

تفسير

سُورَةِ الشُّورَىٰ

كتبها

الشيخ عمر بن محمود أبو عمر

أبو قتادة الفلسطيني

- حفظه الله تعالى -

النور للإعلام الإسلامي

تفسير
سورة الشورى

الطبعة الثانية ـ مُصححة ومُدققة ـ

١٤٣٣ – ٢٠١٢م

الناشر:

النور للإعلام الإسلامي

AL NUR ISLAMIC INFORMATION

Vesterbrogade 208 Box: 276 – 1800 Frederiksberg C Denmark
Phone: (45) 2077 4828. E-mail: alnur_islamic_info@yahoo.com



فحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم، وبالجملة فالسلامة من الخطر، أمرٌ يعز على البشر، فسترَ الله على من ستر وغفرَ لمن غفر:

فَـانْظُرْ إِلَيْهَـا نَظَـرَ الْمُسْتَحْـسِنِ ... وَأَحْـسِنِ الظَّـنَّ بِهَـا وحَـسِّنِ
وَإِنْ تَجِـدْ عَيْبـاً فَـسُدَّ الخَلَـلا ... فَجَـلَّ مَـنْ لاَ فِيـهِ عَيـبٌ وَعَـلا
وَالحَمْـدُ للهِ عَلَـى مَـا أَوْلَـى ... فَـنِعْمَ مَـا أَوْلَـى وَنِعْـمَ المَـوْلَى
ثُـمَّ الـصَّلاةُ بَعْـدَ حَمْـدِ الـصَّمَدِ ... عَلَـى النَّبِـيِّ الْمُـصْطَفَى مُحمَّـدِ
وَءَالِـهِ الأَفَاضِـلِ الأَخْيَـارِ ... مَـا انْـسَلَخَ اللَّيْـلُ مِـنَ النَّهَـارِ[1]

[1] الأبيات من «مُلحة الإعراب» للقاسم بن علي بن محمد بن عثمان، أبي محمد الحريري البصري. (٤٤٦ ـ ٥١٦هـ/ ١٠٥٤ ـ ١١٢٢ م).

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين

تمهيد

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على محمد الأمين، وعلى آله، وصحبه أجمعين. أما بعد:ـ

فإنَّ مِن أعظمِ كبائرِ الوجود الإنساني هو الافتراء على الله والكذب عليه، كما أنَّ مِن أعظمِ الطاعات والعبادات هو ردُّ هذا الكذب وإقامة الحقِّ الذي بُعث به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكان مِن فتنة الله لأهل الأهواء والجهالات أن أقام لهم سبحانه في العِلْمِ مقاييس الباطل، كما جعلَ في كتابه الآيات المُتشابهات، وجعلَ العواصم مِن ذلك أمثال الحقِّ في الوُجود وفي الفِطرة، والآيات المُحكمات في كلامه سبحانه وتعالى، وما مِن باطلٍ يُحتجُّ له بالقياس الشيطاني إلاَّ وفي فطرة الإنسان ما يرده، كما أنَّه لا يُوجد باطل يقوله كاذبٌ على الله في آياته إلاَّ وفي الكتاب الكريم ما يُبْطِلُهُ، وإقامة الشبهات في الوجود للفتنة والابتلاء كما خلق الشهوات، الأولى بلاء وفتنة للعلمِ، والثانية ابتلاء للإرادة، وتاريخ البشريَّة يشهد أنَّ فتنة الخَلق بالشهوة أقل ضررا من فِتنتهم بالكذب على الله تعالى، والشهوة إنَّما يقع الخَطب فيها لَمَّا يزعم أصحابها أنَّها من الله تعالى كما قال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ [الأعراف: ٢٨]. حينها تُصبحُ الشهوة شرعاً وديناً يُتبَّع ويُعظم الضرر، واليوم وقد عمَّت الغُربة أهل الإسلام، وغلبت الشهوات العامَّة والعلماء إلاَّ مَن رَحِمَ الله،

فإنَّ الطامَّةَ الأعظم والقاصِمة التي تُزيل الدين إنْ لم يتصدَ لها أهل العلم هي أن تُصبح الشهوات ديناً، وأن يلبس الباطلِ لباس الحقِّ، وأنْ تُسمى الأشياء بغير أسمائها، فيكون القرآن بين النَّاس حُرُوفاً يتلوه العامَّة فلا يفقهونه، ويُؤَوِّله أهل الشبهات والضلالة فيُتَخَذُ سُلَّماً للباطل، وهذا الشرُّ قد وقع بعضه بل والكثير منه على يد أقوامٍ لا يتَّقون الله، ولا يرجون الآخرة، ليسوا بعلماء مِلَّة، ولا قوامين بالحقِّ، ولا مُستمسكين به، يضربون صدور الآيات بأعجازها، ويقطِّعونها على معنى ما قال الله تعالى لقوم موسى عليه السلام: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾[الأنعام: ٩١]، فصار النَّاس يسمعون ديناً لم يعرفه رسول الله ﷺ ولا أصحابه ولا أهل العلم الماضون الثقات، بل صرنا نسمع من يردُّ على رسول الله ﷺ كلامه، فيقول عُتلٌّ زنيمٌ من هؤلاء مقالات تهدُّ الجبال لِهَوْلِهَا ثم يتبعها بقوله: «ولو سمعتُ رسول الله ﷺ يقول بغير هذا لما أطعته ولَرَدَدْتُ عليه قوله» ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ [الكهف: ٥].

كلمات لا يقولها عاميٌّ جاهلٌ لا يدري معنى ما يقول، بل يتفوه بها من صار مُفتياً لمصر من أمصار المسلمين فيالله كم صار دين الله مطية للمُجرمين وسُلَّماً للزنادقة، وكم تسنَّم الكلام فيه مَن لقمة الخبز عنده أغلى من آيات الله وكلامه!!

وإنَّ مِن أعظم جهالات النَّاس قديماً وحديثاً هو الاحتجاج بالقَدر على الشرع، فيُبطلون الشرع بقواعد القَدر، كما يُبطلون القَدر بقواعد الشرع، وفتنة الله تعالى بالخَلق والقَدر كانت دوماً سُلَّماً للزنادقة وأهل الضلالة في ردِّ شرع الله ودين الأنبياء، فعدم فَهْمِ بعضِهم لخلق الألم والشرِّ في الوجود جعلهم ينفون الحِكمة، وينسبون لله تعالى الباطل، كما أنَّ مِن مزاعم المُشركين قديماً وحديثاً في ردِّ الشرع هو إجراء أقدار الوجود كلِّها على معنى التسليم، حتى أولئك الذين عبدوا

الملائكة قالوا لَّما نُهُوا عن ذلك: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ﴾ [الزخرف: ٢٠]، كذلك زعم البُخلاء في منع الزكاة: ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾ [يس: ٤٧]، ومثلها مَن ردَّ حُكْمَ الله في منع أكل الميتة فقالوا: «نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله» فأنزل الله ردّاً عليهم: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وهذا الدين الباطل في الاحتجاج بالقدر على الشرع لإبطاله قد عمَّ وانتشر كما كان الجبريَّة يقولون بأنَّ الظُّلم مِن الحُكَّام قَدر المعاصي في الأُمم فلا يحل لهمُ الإنكار ولا الاعتراض، فكذلك اليوم مَن يقوله، وزاد شرُّ هؤلاء حتى صاروا يحتجُّون بالكتاب الكريم وآياته الدالَّة على قُدرته في تنوِّع الخَلق واختلافه على جواز اختلاف الشرائع والأديان، وصار المُنْكِرُ على الاختلاف في الأديان والمذاهب مَعِيباً عند هؤلاء، ويُنكرون عليه أشدَّ النكارة، وجعلوا كلام الله في أقداره وخَلقه حجَّة لهم في تشريع افتراق النَّاس واختلافهم في المذاهب والأديان والنِحل.

وقد كان النَّاس يتناظرون قديماً في اختلاف مذاهب أهل الإسلام في المسائل الاجتهاديَّة والتي تحتمل الاختلاف لاشتباه الأدلَّة فيها على الكثيرين، لكنَّ الطامَّة الأعظم اليوم ليست في هذا الباب إنَّما في الُمعممين وزاعمِي الانتساب للفكر الإسلامي يُقررون الجواز الشرعي في تنوِّع أديان النَّاس واختلافهم بين مسلمٍ وكافرٍ، وينسبون لدين الله تعالى ولكتابه أنَّه يجوز ذلك ولا يُنكره، وهذا من أعظم الكذب على الله تعالى وعلى كتابه وعلى رسوله ﷺ، ذلك بأنَّ أعظم الشرِّ في الوُجود هو الكُفر بالله، ولذلك بعث الله الأنبياء وأنزل الكتب وشرع الدعوة إليه وأمر بجهاد الُمخالفين كما قال الله على لسان ذي القرنين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الكهف: ٨٧ ـ ٨٨]، وكما قال رسول الله ﷺ من

حديث عِيَاض بْنِ حمارٍ الْمُجَاشِعِيِّ: «**أَلاَ إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي، يَوْمِي هَـذَا. كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْداً، حَلاَلٌ. وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ. وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ. وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ. وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَاناً. وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلاَّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ. وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَاباً لاَ يَغْسِلُهُ الْمَاءُ. تَقْرَأُهُ نَائِماً وَيَقْظَانَ. وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشاً. فَقُلْتُ: رَبِّ إِذاً يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً. قَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ. وَاغْزُهُمْ يعزك الله . وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ. وَابْعَثْ جَيْشاً نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ. وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ. قَالَ: وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلاَثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ. وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى، وَمُسْلِمٍ. وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ. قَالَ: وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ: الضَّعِيفُ الَّذِي لاَ زَبْرَ لَهُ، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعاً لاَ يَتْبَعُونَ أَهْلاً وَلاَ مَالاً. وَالْخَائِنُ الَّذِي لاَ يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ، وَإِنْ دَقَّ إِلاَّ خَانَهُ. وَرَجُلٌ لاَ يُصْبِحُ وَلاَ يُمْسِي إِلاَّ وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ**». وَذَكَرَ الْبُخْلَ وَالْكَذِبَ.[1].

وهذا الحديث حُجَّة في هذا الباب الشرعي لمن تأمله.

وهؤلاء الذين يحتجُّون بالتنوُّع والاختلاف القَدري على جواز اختلاف أديان النَّاس ليسوا على مرتبةٍ واحدةٍ، فهناك الزنادقة المُجرمون الذين يرون هذا جائزاً على معنى عدم الإنكار قط على دينٍ من الأديان، ولا إبطالها كلِّها إلاَّ واحداً، وهناك من أهل العمائم من يعتقد بصحة دين الإسلام دون ما عداه ولكن يتخذ هذا الاختلاف القدري حجَّة في إبطال جهاد الناكثين والرادِّين لدين الرسول محمد ﷺ، كما يتخذون هذا الاختلاف حجَّة في اجتماع النَّاس على أَلوية الباطل

---

[1] «صحيح مسلم»: ١٧/١٦٦/ح٧١٥٦ .

الجاهليَّة كالوطنيَّة والقوميَّة، ولذلك تجدهم يُنكرون الدعوة إلى الولاء على أساس الدين، كما يُنكرون الجهاد على الإيمان والكفر، ويرون أنَّ الاجتماع على قاعدة الوطن للجميع دون تفريقٍ بين مسلمٍ وكافرٍ، ولا بين مؤمنٍ وزنديقٍ، فإذا ذَكَّرَهُمْ أحدٌ بضلال هذا الدين ذهبوا يكذبون على الله تعالى أنَّ الافتراق جائزٌ، وأنَّ الوطن ظِلٌ جامعٌ لهؤلاء المُختلفين في الدين بلا تفريقٍ في الحقوق والواجبات، وقد تشرَّبت أحزابٌ إسلاميَّة هذا الضلال، وصار من عقيدتهم ودينهم، إذ يُفرِّقون في صواب الدين على أساس المُعتقد، ولكنَّهم لا يرون لهذا التفريق أثراً في الحياة والسياسة والاجتماع، وهذا كلُّه من الجهل والضلال، والإسلام بريء من ذلك كلِّه، فالإسلام ليس اعتقاداً قلبياً ولا عبادةً نُسكية، بل هو دينٌ ينتظم سلوك المرءِ حباً وبُغْضاً، وجهاداً وسِلْماً، واجتماعاً وافتراقاً، فالمسلم في دولة الإسلام المنشودة لا يتساوى قط في الحقوق والواجبات مع غير المسلم، والجهاد في الإسلام ابتداءً ليس إلاَّ قتلاً على أساس الدين كما تقدَّم في كلام ذي القرنين وحديث رسول الله ﷺ: «**وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ**»، أمَّا القتال على أساس الحقوق كالمال والأرض والعِرض فهو تَبَعٌ لذلك وفرعٌ له، فهذا هو الحقُّ، وهذا هو دين الله تعالى.

واليوم وإن كان الإسلام وأهله القائمون به غرباء، وضُعف أهله بيِّنٌ لا خفاء فيه، إلاَّ أنَّ هذا لا يعني أبداً جواز تغيير معالمه وقواعده الأُولى التي يقوم عليها، إذ هناك فرقٌ بين العقل المادي المُقيَّد بظرفه المُلائم له، وبين الاعتقادِ والعِلْمِ الذي هو فوق الظرف الزماني والمكاني، والنَّاس يخلطون بين الأمرين خلطاً شديداً، فحين يجوِّز الإسلام دفع الشرِّ بالتقية كما قال تعالى: ﴿**لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً**﴾ [آل عمران: ٢٨]. إلاَّ أنَّ هذا الفِعْلَ المُقيَّد بظرفه لا يعني إلغاء الحقِّ في العِلْمِ الواجب بأنَّ الكافر عدوٌّ والمؤمن وليٌّ، لكن بعض النَّاس اليوم تحت ظرف الاستضعاف

والغُربة ذهبَ يُلغي المبادئ والقواعد الشرعية المُستقرة من جهة العِلْمِ ليخضع المسلم اعتقاداً لجهالات وضلالات ليست مِن العِلْمِ في شيءٍ، يفعل هذا بحجَّة الاستضعاف والغُربة، وشتان بين هذا الضلال الذي يفعلونه وبين ما يُقال له فقه الاستضعاف.

لقد كنتُ أظنُّ أنَّ الاحتجاج بالقَدر على الشرع ذهبَ أهله، ولم يَعُدْ لهم ذكرٌ، مجرَّد ذكرٍ خبريٍّ لماضين في كُتب المِلل والنِحل، مع وُجُودهم في أديان الشرك اليوم كمثل دُعاة العُرْيِّ، حيث يزعمون أنَّ فِطرة الخَلق في المَوجودات كالحيوانات هي البقاء على البراءة الأصليَّة مِنَ الخَلْقِ، واللباس والزينة أمرٌ حادثٌ، وتدخُّل في هذه الفطرة وهذه البراءة الأصليَّة، وهو تدخُّل خاطئٌ كما يزعمون، ومثلهم مِن الزنادقة الذين يجيزون الحديث عنِ المُعاشرة الجنسيَّة علناً بين النَّاس أو يجيزون تصويرها تحت دعوى أنَّها فعلٌ إنسانيٌّ كالأكل والشرب فلا يستحيا منه، كما سمعتُ مِراراً من بعض مُنتسبي الفقه ممن يميلُون للتصوُّف السكوت عنِ الظالمين والمجرمين لأنَّهم القَدر على إبطال الشرع قد عَمَّتْ وكَثُرُ شرُّها، وصارت تُسمع من كثيرين مِن المُعممين والمُفتين وقادة الحركات الإسلاميَّة، وهم وإن كانوا لا يُصرِّحون بقواعد هذا المذهب ولا اعتقاده إلاَّ أنَّهم من أهله ورجاله، وخطورة المذاهب الضالَّة ليست في اعتقادها فقط لكن في التزام آثارها الفقهيَّة والشرعيَّة، إذ ما مِنْ مذهبٍ اعتقاديٍّ إلاَّ وله تشريعٌ يُعززه ويفسِّره، فاليوم لو قُلْتَ لفقيهٍ يرفع لواء الانتساب للسلف أنَّه جَبري لَغَضِبَ واحْمَرَّ أنفه، مع أنَّ هذا تجده يُفتي فتاوى الجَبريَّة وتفسيرها في الحياة والكون، وهذا أمرٌ منتشرٌ غالبٌ، وهذا لغلبة منطقِ الشعارات وعُمومها على النَّاس اليوم دون معرفة حقائقها وآثارها.

لردِّ هذا الدين الباطل الذي يُنسب إلى كلام الله زُوراً وبُهتاناً نجد أنَّ سورة «الشورى» موضوعها الرئيس هو هذا الباب، فهي السورة التي تُقرر ضَلال

الافتراق في الدين، وتُقرر مَرجعيَّة هذا الافتراق، وهي كما تبيِّن أنَّ الحقَّ واحدٌ كذلك تُقرر أنَّ التنوع القَدري في الخَلق له حِكمة، إذ فيه الدلالة على قُدرة الله وحِكمته في الوجود، فحيث كان الافتراق في القَدر سبباً لدوام الخَلق ومنفعتهم كان الافتراق في الأديان سبباً للابتلاء وقِيام سُنَّة التدافع، فالافتراق في القدر تكاملي نافع، فلا يُنْكَرُ ولا يُرَدُّ، والافتراق في الدين ابتلاءٌ لحصول الدفع والجهاد بشِقَيْهِ العلمي والقِتالي.

وسورة «الشورى» وإنْ كانت مكيَّة بإجماعٍ ـ فيما أَعلم ـ إلاَّ أنَّ بعض أهل العلم استثنى منها آيات فجعلها مدنيَّة، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الشورى: ٣٩]، وهو قولٌ لا دليلَ عليه مِن روايةٍ تسنده، ومَن تأمل السورة على معنى هذه الوحدة التي تقدَّم ذِكرها، وهو أنَّ الحقَّ في الأديان واحدٌ، وأنَّ الافتراقَ فيها هو ابتلاءٌ لشرع التدافع الذي أمر الله به عباده المؤمنين عَلِمَ أنَّ السورة قعدَّت هذا المعنى في مكة لأنَّ هذا من أُصول العلم الشرعي، وقواعد الدين الذي تُبنى عليه حياة المسلم وحركته ووجوده.

أما قول من قال إن قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى: ٢٧] هي مدنية وأنَّها نزلت في أهل الصُّفة، فهو مردودٌ إنْ كان المعنى من هذا القول هو إخراج هذه الآية من سِياق المعنى الكُلي للسورة، لأنَّ هذه الآية هي ضمن سِياق حِكمة الله في أقداره بتنوع مراتبهم في الرزق، وهو أمرٌ حاضرٌ في وِحدة السورة لذكر النوعين من الافتراق كما تقدَّم، هذا مع أنَّه مِن المعلوم أنَّ وجودَ آياتٍ متقدِّمةٍ في سياق سورةٍ مُتأخرةٍ أو العكس ليس ممنوع الوقوع لكنَّ ترتيب الآيات بالإجماع ـ ولا يضرُّ وجود المُخالف ـ توقيفي، وحكمة الله في هذا الترتيب لاتفاق المعاني في السياق الواحد، يعلمه مَن يعلمه ويجهله من يجهله.

أقولُ هذا لأني وجدتُ أنَّ بعض المُتقدمين مِن المُفسرين الذي يحكمون على السورة والآيات بالمدنيَّة أو المكيَّة لا يُراعون الرواية في بعض أحكامهم بل من

خلال تأملهم للآيات مُنفردة وتوافقها لأحداث إمّا مدنيَّة أو مكيَّة، وما تقدَّم مثالٌ لهذا الأمر، ولو تأمل المرء هذا القول وأنَّ الآية: ﴿ **وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ** ﴾ نزلت في أهل الصُفَّة لَرأى أنَّ هذا القول غير صحيح من جهتين؛ **الأولى**: على هذا القول تكون الآية ذماً لأهل الصفَّة إنْ اغتنواْ، مع أنَّ أهل الصفَّة لم يبقوا على هذا الحالِ مِن الفقر، بل اغتنواْ وذهب عنهم صفة الفقر، فبسط لهم في الرزق كحال أبي هريرة رضي الله عنه، فلم يقع عليهم معناها.

والأخرى: الآية عامَّة في منع البسط لعباده وليست خاصَّة، فالآية تقول: ﴿ **وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ** ﴾، وكلمة العباد هنا تُحمل على المعنى القَدري كقوله ﷺ: «**اللهمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وابنُ عَبْدِكَ**»[1] وأبوه ﷺ مات كافراً، وواقع الآية القَدري أنَّ العبد يُعطى ويُحرم، فقد يُعطى المال ويحرم من الصحَّة أو المُلك، وقد يُعطى بعض الرزق ويمنع بعضه، وهذا هو القَدر المُلائم لتفسير هذه الآية، والكافر مهما بلغ في بسط الرزق فإنَّه ممنوع من رزقٍ آخرٍ، وبهذا المنع يمنع من البغي الذي يحصل به البقاء وتمام الإفساد، ومثال ذلك فرعون وقارون، فإنَّهم أُعْطُوا أشياءً ومُنِعُوا أُخرى، ولذلك لم يحصل لهمُ البغي المُطلق بل هُزِمُوا ودُمِّرُوا.

هذا مع ما سيأتي إن شاء الله أنَّ هذا قدرٌ مدفوعٌ منازعٌ كما تُبَيِّنُه السورة نفسها وذلك في قوله تعالى: ﴿ **وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾** ﴾ [الشورى: ٣٠].

وسورة «الشورى» كأغلب السور المكيَّة فهي إذ تعرض قُدرة الله تعالى وآياته الكونيَّة فإنَّها تجعلها مُوجِباً لتوحيد الله تعالى واتِّباع أوامره، كما أنَّها تُقرر قاعدة الحقِّ ومعياره بما يقع للنَّاس مِن جزاءٍ أُخرويٍّ للمؤمنين والعُصاة، كما أنَّها تلتقي

[1] «مسند أحمد»: ٧/١٢٤/ح٢١٣٤٣ .

مع سور مكيَّة أُخرى في تقرير بعض قواعد العِلْمِ الحقِّ وتفريقه عنِ الباطل والهوى، وهي مسألة تخصصت فيها سورة «النَّجم» في هذا الباب.

فمن أجلِ بِناء المُسلم المُعاصر بناءً قرآنياً، في عِلْمِهِ ونفسه، ومِن أجل ردِّ ضلالات المُفترين على الله ومناهجهم الباطلة في إبطال الحقِّ وتعطيل الشرائع فإنِّي أُقدِّم هذه السورة، وما يفتح الله على العبد فيها، والله من وراء القصد.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٤﴾ [الشورى: ١ ـ ٤].

سورة «الشورى» هي السورة الثالثة في ترتيب القرآن من الحواميم، فهي بعد سورة «غافر» و«الصافات»، وقبل «الزخرف» و«الدخان» و«الجاثية» و«الأحقاف»، وسُميت الحواميم لافتتاحها بـ«حمٓ»، والكلام في الحروف المُقطَّعة تكلّمتُ عليه في بداية سورة العنكبوت بما يغني عن إعادته هنا، لكنَّ سورة الشورى وإنْ كانت من الحواميم إلاَّ أنها زائدة في ذكر حروف أخرى غير «حم» وهي قوله تعالى: ﴿عٓسٓقٓ﴾، وفي هذه الحروف واختلاف النَّاس فيها يكمن السر، كما أنَّ الإعجاز في ما بعدها هو الذي يجعل الناظر يعود إليها محاولاً إدراك مراد متكلمها العزيز الحكيم.

وسور الحواميم كلُّها مكيَّة وكان يُسميها السلف بِلُبَاب القرآن، كما كان يُقال لهن العرائس والروضات وديباج القرآن، وهذه السور فيها جوامع من المعاني، فهي كلُّها مختومة بذكر العاقبة إما الدنيويَّة أو الأُخرويَّة، فسورة «غافر» ـ المؤمن ـ خاتمتها هي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ٨٤ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٥﴾ [غافر: ٨٤ ـ ٨٥]. فهذا هو ذكر عاقبة الدنيا وقِيام الساعة، وحال الكافرين فيها حيث لا ينفعهم إيمانهم يومها.

وأما «فُصِّلت» فخاتمتها قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾ [فصلت: ٥٤]، هذا مع تقدم ذكر أنَّ آيات الآفاق هي دليل الحقِّ

أنَّ القرآن من عند الله، فجعل كذلك من أدلَّة الحقِّ أنَّ القرآن من عند الله هو لقاء الله تعالى، كما قال تعالى في «الأنعام»: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام: ٩٢].

وأما «الشورى» فخُتمت بقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٣].

و«الزُخرف» خُتمت بقوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [الزخرف: ٨٨-٨٩].

وخُتمت «الدخان» بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الدخان: ٥٨ - ٥٩].

وخُتمت «الجاثية» بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾... إلى قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية: ٣٢ - ٣٧].

وخُتمت «الأحقاف» بقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف: ٣٥].

ومن جوامع المعاني فيها كذلك هو أمر الله تعالى لرسوله ﷺ وللمؤمنين بالصبر والاستقامة كما في «غافر» (المؤمن): ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر: ٥٥]. وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [غافر: ٧٧].

وكما في «فُصِّلت»: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠].

وكقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت: ٣٥].

وفي «الشورى» قوله تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى: ٤٣]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشورى: ٣٣].

وفي «الزخرف» قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٣].

وفي «الدخان» قوله تعالى: ﴿ فَٱرْتَقِبْ ﴾ [الدخان: ٥٩].

وفي «الجاثية» قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الجاثية: ١٤]. وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الجاثية: ١٨].

وفي «الأحقاف» قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

كما أنَّ فيها كلّها إلا «الأحقاف» و«الشورى» ذِكْر قصة موسى وفرعون وبني إسرائيل، هذا مع ما ذُكر في «الأحقاف» مِن خَبَرِ الجنِّ الذين استمعوا للقرآن فأسلموا، فذكروا لقومهم مُشابهة القرآن في دعوته لكتاب موسى عليه السلام: ﴿ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

كما ذُكر فيها من قبل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ [الأحقاف: ١٢].

وأما «الشورى» فقد ذُكر فيها وَحْدَةُ دين الأنبياء حيث ذُكر فيها أُولو العزم من الرسل بقوله تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾ [الشورى: ١٣].

كما أنَّ من جوامع المعاني فيها أنَّها كلَّها مُفتتحة بذكر القرآن الكريم، وذلك بعد قوله تعالى: ﴿ حمٓ ﴾.

وفي خَمْسِ سورٍ منها ذُكر وصف القرآن بأنَّه عربيٌّ إلاَّ في سورتيْ «غافر» و«الجاثية»، وفي «الدخان» قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الدخان: ٥٨].

قوله تعالى: ﴿ حمٓ ﴾:-

هذه الآية جعلها رسول الله ﷺ وِعَاءً، فقد روى أبو داود[١] والترمذي[٢] عن المُهَلَّبِ بن أبي صُفْرَةَ، قال أخبرني مَنْ سَمِعَ النَّبيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إنْ بُيِّتُّمْ فَلْيَكُنْ شِعَارُكُم حم لاَ يُنْصَرُون**»، وقد ذكر ابن كثير أنَّ أبا عُبيد القاسم بن سلام جعل قوله ﷺ: «لا يُنصرون» عاقبة وليست من الذكر، والأمر محتملٌ، لكن في هذا الحديث دليل على عِظم هذا الآية: ﴿ حمٓ ﴾ فإنَّ الاستعاذة تكون بالكلمات التامات كما قال رسول الله ﷺ: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ..**»[٣] وكون ﴿ حمٓ ﴾ كلمات يُستعاذ بها مِن الأعداء في البيَات يدل على أنَّها معنى تام وكامل في نفسها، ولأهل العلم تفريقٌ بين الكلمات الكونيَّة والكلمات الشرعيَّة، فجعلوا الكلمات التي يُستعاذ بها هي الكلمات الكونيَّة، ومَن تأملَ الأحاديث عَلِمَ أنَّ الكلمات الشرعيَّة رُقية واستعاذة، فإنَّ «الفاتحة» رُقية واستعاذة، وكذلك

---

1 «سنن أبي داود»: ٧/٢٥٧/ح٢٥٩٨.
2 «سنن الترمذي»: ٥/٢٦٨/ح١٦٨٣. وهذا لفظه: «**إنْ بَيَّتَكُمُ العَدُوُّ فَقُولُوا: حم لا يُنْصَرُونَ**».
3 «صحيح مسلم»: ١٧/٢٨/ح٦٨٢٨، ٦٨٢٩، ٦٨٣٠.

«آية الكرسي»، و«المُعوذتين»، فكلمات الله الشرعيَّة فيها أثرٌ ماديٌّ في ردِّ الضرر والمكروه، وهذا سرٌّ مِن أسرارها، والكلام في هذا الباب يطول، ولكنَّ المقصود أنَّ ﴿ حمٓ ﴾ كلمةٌ تامَّةٌ فيها معنى مستقلٌ بذاتها، وبهذا يكون قول بعضهم أنَّها دلالة على غيرها في المعنى فقط دون وجود معنى تحمله في ذاتها قولٌ مرجوحٌ، والأصحُّ أن يُقال كِلاهما، أي فيها معنى ذاتي وفيها دلالة على معنى، فإنْ قيل إنَّ القرآن عربي، ونزل بلغتهم فأين في كلامهم ما يدل على معناها عندهم؟ فيُقال: لقد سمع العرب هذا الكلام من رسول الله ﷺ، وأُلقي إليهم على معنى التحدي، فأصاب منهم هذا المعنى، وهذا أبلغ ما يكون في الكلام، ولم يقولوا له قط: كلِّمنا بما نفهم، بل فهموا وحاروا واستسلموا ، وقصة قراءة رسول الله ﷺ «حم فُصِّلت» على عُتبة بن ربيعة معروفة، فإنَّه لما سُئل: «مَا وَرَاءَكَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟ فَقَالَ: وَرَائِي أَنِّي وَاللهِ قَدْ سَمِعْتُ قَوْلاً مَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ قَطُّ وَاللهِ مَا هُوَ بِالشعْرِ، وَلاَ بِالسحْرِ، وَلاَ بِالْكَهَانَةِ»[1]. وكلام الكُهان عندهم زَمزمة حروف لا يدري السامع منها شيئاً، إلاَّ أنَّ سامعها يُدرك خطرها ـ فيما يعتقد باطلاً ـ وأنَّ فيها سراً لقائلها مع قرينه أو إلهه الذي يعبده، وعُتبة وصفَ من قومه بأنَّه «أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر» ولم يرَ عُتبة قوله تعالى: ﴿ حمٓ ﴾ من هذا شيئاً.

فإن قيل لِمَ كانت هي في الحديث دون غيرها من الحروف المُقطعة الأُخرى كـ ﴿ الٓمٓ ﴾ أو ﴿ الٓر ﴾ استعاذة في ردِّ مكر الأعداء في البيَات فيُقال: لقد تقدَّم أنَّ من جوامع المعاني في هذه السور ذِكر عاقبة الكُفر وأهله، كما أنَّ فيها ذِكر الوعد بذلك، وهذا متضمنٌ لِوعد النَّصر كما في «الزخرف»: ﴿ **فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾** ﴾ [الزخرف: ٤١ ـ ٤٢]، وهذه

[1] «دلائل النُّبوَّة» للبيهقي: ٢/ ٢٠٤. «كنز العُمال»: ١/ ٢٤٩١/ح٣٥٤٢٨.

الآية فسَّرها رسول الله ﷺ بقوله: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَرَادَ رَحْمَةَ أُمَّةٍ مِنْ عِبَادِهِ، قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا. فَجَعَلَهُ لَهَا فَرَطاً وَسَلَفاً بَيْنَ يَدَيْهَا. وَإِذَا أَرَادَ هَلَكَةَ أُمةٍ، عَذَّبَهَا، وَنَبِيُّهَا حَيٌّ، فَأَهْلَكَهَا وَهُوَ يَنْظُرُ، فَأَقَرَّ عَيْنَهُ بِهَلَكَتِهَا حِينَ كَذَّبُوهُ وَعَصَوْا أَمْرَهُ**»[1]، ففي الأمرين نصرٌ له على الأعداء، أمَّا وفاته قبل أُمَّته فإنَّما يكون بنصره على أعدائه كما وقع لرسول الله ﷺ، فإنَّ الله تعالى ما قبضه حتى انتصرَ وانتصفَ مِن خُصومه، وكثيرٌ من الأنبياء أهلكَ الله أُمَّتهم وهم أحياء كما في الحديث، ففي الأمرين انتصارٌ للنبي ووقوع الوعد الإلهي، ولذلك كان مُلاءمة هذا الذِكر لأثره في منع نصر الأعداء وغَلبتهم على المؤمنين، والتوافق بين الذِكر ومعناه وبين أثره ظاهرٌ لمن تأمله في أحاديث الأذكار والأدعية، كما يُوجد التوافق بين السور وأوقات استحباب قراءتها كقراءة «﴿ الٓمٓ ﴾، السجدة» و«الإنسان» في صلاة الصبح من يوم الجمعة، فقد ذكر أهل العلم حِكَماً لذلك منها ما ذُكر في هذه السور مِن خَلْقِ الله تعالى للإنسان وذِكر الإنسان وذِكر الساعة ومعلوم توافق هذا مع يوم الجمعة، فآدم خُلِقَ يوم الجمعة، وقيام الساعة يوم الجمعة، وهكذا.

وعلى هذا المعنى قراءة سورة «الكهف» ليلة الجمعة أو يومها ـ لمن صحح الحديث ـ فإنَّ في «الكهف» ذِكْر دلائل الساعة كيأجوج ومأجوج والسور الذي بناه ذو القرنين.

قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾ [الشورى: ٣].

لقد تكررَ في القرآن كثيراً شأن مشابهة الرسول ﷺ في نُبوته بنبوة الأنبياء السابقين، وها هنا يقول الله تعالى إنَّ الوحي الذي يأتيكَ، والنُبوة التي أُكْرِمْتَ بها هي نوع الوحي والنُّبُوَّة الذي أُوحي إلى الأنبياء من قبلك، وافتتاح السورة بهذا المعنى العظيم لأنَّ شأن السورة كلِّها يقوم على قضيَّة وحدة الحقِّ والدين،

---

[1] «صحيح مسلم»: ١٥/ ٤٤/ح٥٩١٨ .

فما أتى به الرسول ﷺ مِن دينٍ هو عين ما أتى به الأنبياء السابقون كما سيأتي مُفصَّلاً في هذه السورة كقوله: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ ... ﴾ [الشورى: ١٣].

وفي ذِكر الوحي وعلومه بيان مصدر هذا الدين، وأنَّه من الله العزيز الحكيم، وليس على الرسل إلاَّ التبليغ والبيان، وإقامة الحُجَّة على الخَلق، كما أنَّ في ذِكر الوحي المُرسل إلى النَّبيِّ ﷺ وأنَّه هو الوحي المُرسل إلى الرُسل السابقين بيانٌ أنَّ حال النَّاس معه هو حالهم مع الأنبياء السابقين.

ومُنْكِرُو النُبوَّات على غَرْزٍ واحدٍ من الضلالة، وشُبهتهم الضالَّة مُضطردة مع جميع الأنبياء، لكنَّ العجب إنما يكون في مثبت النُّبوة لنَّبيٍّ دون نبيٍّ كما قال الله عن هؤلاء في سورة «النساء»: ﴿ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ [النساء: ١٥٠ـ١٥١]، ولكنَّ الشياطين لا تُعدم عذراً في هذا الضلال، وحُجَجه الباطلة وشُبهه لا تنتهي في الوجود.

والنَّاس ومناهجهم في النُبوَّةِ خَطَانِ؛ خطُ النُّبُوَّةِ وأتباعها، وخَطُ أعدائها ومُنكريها، وحجَّة المُنكرين غير الهوى واتباع الشهوة أنَّ النُّبُوَّة وأحكامها هي سبب افتراقِ النَّاس وخُصوماتهم وعداوتهم، وهذا القول قد شاع اليوم وكثر، وهؤلاء يزعمون أنَّ أحكام الأنبياء في تفريق النَّاس بين مؤمنٍ وكافرٍ، وكذلك أحكامهم في الجهاد والولاء والبراء هو سبب الحروب، ويقولون إنَّ المذهب الإنساني الجامع للبشريَّة على صعيدٍ واحدٍ من غير تفريقٍ بين مؤمن وكافر هو الأصلح للخَلق، وهو المانع من العداوات والحروب والمآسي، وهذا المذهب مع قِلَّة أتباعه في الوجود قديماً وحديثاً إلاَّ أنَّك تجدُ اليوم صَفْوَ مَن يُقال لهم بالمُفكرين المسلمين يميل لهم، وتجد صداقات وقُربى بين الفريقين، والسبب في ذلك أنَّ هؤلاء المُفكرين في دعوتهم لردِّ الظُّلم عنِ المسلمين، وإنكار الحروب التي يشنها الطواغيت الكفرة من أهل العُلُوِ والكِبْرِ ضدَّ ضُعفاء المسلمين وشعوبهم، يجدون مُناصرة يتيمة من هؤلاء أتباع هذا المذهب، فهم يُناصرون المُستضعفين مِن

المسلمين وغيرهم، ويُنكرون احتلال الدول والشعوب، ويُناصرون المظلومين، فاتحاد المسير في إنكار الظُّلم بين الفريقين يصنعُ القُرب النفسي بينهما، ولذلك تجد هؤلاء المسلمين يتأثرون بنتائج الأفكار حتى لو اختلفت في أصل مبعثها، فالمسلم يُثبت النُّبوَّة، والآخرون ينفونها، لكن يتفقِ الفريقان على آثار حكميَّة وشرعيَّة من تقريرات هذا المذهب الباطل، وهو الدعوة إلى وحدة البشر على أساسٍ إنسانيٍّ جامعٍ دون اعتبار الإيمان والكفر، والعقل المسلم البِدعي استمرأَ كثيراً - بسبب مذاهب الباطل - التراكيبَ المُتناقضة، فمنذ أنْ صار العمل خارج الإيمان، فانفصل الاعتقاد إلى جهة والسلوك إلى جهة أخرى، كما انفصلت الحقيقة الإلهية عند الصوفيَّة عن الطريقة فصار يمكن تصور المُتناقضات في حالٍ واحدٍ، كما تصور المُتكلمون القول بالكسب الأشعري، واضطرد هذا التركيب على قضايا حياتيَّة كثيرة، حيث يجعل الاعتقاد في وادٍ والموقف الحياتي والسلوكي في وادٍ آخرٍ، فيمكنُ للمرء أن يكون مسلماً في اعتقاده ذاهباً إلى الشيطان جُندياً مُناصراً مُوالياً في عمله كما يمكن تصور إضافة أي صفة للمسلم بعد ذلك مهما بلغت تناقضاتها مع الإسلام وشرعه.

وهؤلاء من هذا الباب، فهم مع إقرارهم بالنبوَّة اعتقاداً إلاَّ أنَّهم لا يرون حرجاً في تشربهم لمذاهب جميلة حسنة في الذهن وأوهامه وظنونه، فالقول بوحدة البشر على أساسٍ إنسانيٍّ حياتي دون اعتبار لإيمان الرجل وكُفره، وترك المحاسبة للإيمان والكفر إلى أمر الآخرة، يُؤدي عندهم إلى إزالة الحروب والخُصومات، وينشر السلام والوِد بين الشعوب، كما يحقق العدل المُطلق، لأنَّ الأديان عندهم تميز النَّاس في الدنيا وأحكامها على أساس الإيمان بالله والكُفر به، وهذا كلُّه يُؤدي إلى التنازع والشر.

وهؤلاء ابتداءً يجيزون تنوع مصادر التلقي فالقرآن عندهم حقٌّ، لكن في اعتقادهم مجرَّد عُمومات يمكن أن تُملأ هذه العُمومات بأفكار جميلة، يزعمون

أنَّها تلتقي مع هذه العُمومات الكُليَّة ولا تُعارضها، وأما أمر الشرائع فإنَّ ما استقرَ في أذهانهم من قضيَّةٍ اعتبارها أمراً ثانوياً، كما أنَّها أحكام اجتهاديَّة تخضع لاعتبارات الزمان والمكان، كما أنَّ تصورهم لوُجود الخلاف في المذاهب في معنى تصويب المجتهدين يجعلهم في حِلٍّ أن يقولوا فيها ما يشتهون ويستحسنون فيجعلونه ديناً وشريعةً تُنسب للإسلام وأحكامه.

حقّاً إنَّ هذا المذهب الإنساني مُغْرٍ لاَمِعٌ جميلٌ في زمنٍ لا يجدِ المُسلم فيه مُناصراً لبعض قضاياه في ردِّ ظُلم الجَبابرة إلاَّ أصحاب هذا المذهب، لكنَّ الجمال الذِهني شيءٌ والحقائق الوجوديَّة شيءٌ آخرٌ.

ابتداءً يُقال لهؤلاء إنَّ تفريغ الإنسان مِن قيمة لجعله في وجوده هو قيمة ومعياراً للقيَم ضلالٌ وانحرافٌ، فالإنسان ليس قيمة ولا معياراً للقيَم إلاَّ بالمعاني التي يحملها، وهو لا يمكن بذاته أنْ يلقي على نفسه صفات تميُّزه عن غيره مِنَ الموجودات، وكلُّ خصلة تمييزٍ تُطلق عليه خارج الدليل النَّبوي يمكن أن يُنازع فيه، فليست قرآنية في هذا الباب فيُوجد ما يحكم أُسطورة التميُّز الإنساني الوُجودي عن غيره كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، وكقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤]، لكن بمجرَّد إعطاء الخُصوصيَّة للنوع الإنساني من خلال النصِّ الديني يُلغي أساسَ قضية مِعْيَارِيَّةِ الإنسانِ للقيَم ويُعيدها للدين والوحي، وإذا جاز هذا عند هؤلاء فيجب الاضطراد في بُغية الأحكام والتصورات.

الوحي والنُّبوَّة لا يجوز أن يُتخذَا مَطِية كما يفعل بها المجرمون اليوم، حيث يُصار إلى الدِّين حين يكون نافعاً لا بكونه حقّاً يجب اتباعه، فإمَّا معيارية الوحي وإمَّا لا، أمَّا المصير إليه للاتكاء فإنَّ الدين يرفضُ هذا، لأنَّ صاحب الشرع الشريف لا يقبل الشركة ولا المُنازعة كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا

﴿قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. ووصف هؤلاء المجرمين اللاعبين بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٥٠ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥١﴾ [النور: ٤٧ - ٥١]، والذين يجعلون السلام بمفهومه الإنساني هو قيمة عُليا يجب المصير إليها يمكن لآخرين أن يُنازعوا في ذلك، إذ يجعلون المحن والحروب هي أساس حركة الوجود وتطوره وتقدمه، ويعتقدون أنَّ السعادة المنشودة لا تتحقق إلاَّ بالتدافعِ والنِزاع لتصلح الأرض وتتقدم البشرية، ولذلك فما من إنسانٍ يستحسن قولاً إلاَّ وآخر يُنازعه في هذا الاستحسان ويُقيم على مذهبه دلائل التاريخ وحقائق النَّوع الإنساني.

هذا المَنزع الفكري في الردِّ على المذهب الإنساني المحبوب لدى هؤلاء، لكن هناك منزع وجودي تاريخي لا يقبل الاغترار بخيالات العقل وكُليَّاته وجمالياته الوهميَّة، وهو أنَّ هناك إنساناً له حقائقه النفسيَّة والفِطريَّة هي التي تُعالج، فالتاريخ يشهد على الإنسان بما شَهِدَ به القرآن عليه، فهذا الإنسان كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ [العلق: ٦ -٧]، وهو كذلك: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧﴾ [عبس: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ٥٤﴾ [الكهف: ٥٤]، وقوله تعالى عنه: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ٩ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ١٠﴾ [هود: ٩ - ١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ٨٣﴾ [الإسراء: ٨٣]. وغير ذلك من الآيات التي يشهد لنا تاريخ الإنسان وواقعه، فحيث كانت هذه حقيقة النَّاس فهل يردُّ شرَّ الطواغيت والعُتاة

والمُستكبرين مثلُ هذه الأفكار الجميلة؟ ثم إنَّ مبدأ الحقِّ القرآني الجامع بقوله: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقوله: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ [الأنفال: ٥٨] هو الذي يتحقق به صلاح البشريَّة وقوامها؟

لو كانت البشريَّة في أصلها تنزع إلى شُكْرِ المُنعم لَشَكَرَتْ نِعم الله الجليلة عليها، ولو كانت البشريَّة تنزع في أهلها إلى الاعتراف بالحقوق لَصَدَّقَت الأنبياء وأَدَّتْ لله حقَّه عليهم، لكن أَنَّى للبشريَّة التي تُنكر أعظم الحقائق فتذهب لتقرَّ الحقوق التوابع لذلك؟.

أما قولهم إنَّ وجود خطِّ النُّبوَّة هو سبب الحروب والخُصومات والنزاعات بين البشر فهذا مِن أكذبِ الكذبِ وأبطلِ الباطلِ، لأنَّ تاريخ البشريَّة يشهدُ أنَّ القتل والدمار وإفساد الإنسان كان أصحابه هم أعداء النُّبوَّات، وأنَّ الضحايا في الأغلب هم أتباع الأنبياء وكان طواغيت البشر همُ العُتاة المُستكبرون في الظُّلم والقتل والإفساد، ولولا أتباع الأنبياء ومُدافعتهم لهؤلاء الأشرار لَكان حال الأرض في كلِّ وقتٍ أسوأ بكثير مما هو عليه في أيِّ وقتٍ، والاستقراء الأمين يشهدُ لهذا، وأما خطُّ النبوَّة ومُدافعته لهؤلاء وجهاده لنشر التوحيد ومُقتضياته في الأرض فإنَّه وإنْ حصلت به الحروب في آنٍ، فإنَّ هذا له سببه الذي كان هو منع تحرير الإنسان من هؤلاء الطواغيت وتعبيدهم لربِّهم، كما أنَّ عاقبة هذا الجهاد كان سلاماً وأمناً ورحمةً لهؤلاء المُستضعفين كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [النساء: ٧٥].

كما أنَّ الحروب من أجل الشهوات والغَلَبة والاستعلاء التي قادها الخارجون عن خط النبوة وقع فيها من الجرائمِ العُظمى ضدَّ الإنسان ما تَشِيبُ له الوِلْدَانِ، وإنَّ أعظم الضحايا في عصرنا إنَّما وقع من دُعاة الإنسانيَّة وتعظيمها الذين هم ضدَّ النبوة والوحي، فإنَّ ما يُقال له بالثورة البلشفيَّة في روسيا قد قتلت مِن

المسلمين أرقاماً فلكيَّة تكاد تتجاوز بآلاف الآلاف المرات عدد قتلى كلِّ قتال وجهاد الأنبياء وأتباعهم على مدار تاريخ البشريَّة كلِّه إلى يومنا هذا، ومثلها ما يُقال له بالثورة الثقافيَّة في الصين، لكن هؤلاء القوم عيونهم عوراء جاهلة تُتقن تزوير التاريخ وإفساد أحداثه وأرقامه.

إنَّ القرآن الكريم وهو كتاب الحقيقة في الوُجود لأنَّه كلمة الله تعالى ليشهد أنَّ صورة الظُّلم في الوُجود الإنساني كما أصحابها هم أعداء الرسل والوحي والنُّبُوَّة، وأنَّ الضحايا همُ المؤمنون التابعون لخطِّ النبوَّة والوحي والرسالة، ولولا المُدافعة اليسيرة التي ينشط لها في كلِّ وقتٍ بقايا حملة منهج النُّبُوَّة لَفسدت الأرض كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥١].

وواقع الحال اليوم يشهد لهذا، فإنَّ المظلوم اليوم هم أتباع الرسل، والظالمون المجرمون هم أهل العُلُوِ مِن المُرتدين والمُستكبرين الكافرين، لكنَّ مجرَّد صُراخ المظلوم مِن الألم اليوم هو جريمة في عُرْفِ الجاهليَّة الحديثة، وحين يقتل المِئات في مكانٍ ظلماً وعدواناً يستر ويقلل من شأنه، ولكنَّ قتل مجرم عُتُّلٍ زنيمٍ ظالمٍ هو الجريمة التي تُعظَّم ويُصرخ منها ولها استنكاراً ورفضاً، لأنَّ منطقَ الظُّلم هو السائد، وما زال فرعون ومنهجه حاضراً ولم يغبْ عنِ الوجود حين قال هو وهامان: ﴿ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾ [غافر: ٢٥]. واليوم يُعمل بنفس القانون، وحيث كانتِ النساء في زمن فرعون موسى عليه السلام للسخرة والخدمة، فإنَّ اليوم هو استحياء العبيد من المسلمين الذين يقبلون حياة الخادم الذي يرضى الذلَّة على مائدة فرعون مُقابل انسلاخه من دينه وإنسانيَّته، وأما الرافض لمنطق الذلِّ والخزي فيُقتل ويُصلب ويُعذب ويُسجن، فالشعار هو الشعار والواقع هو الواقع: «اقتلوا الرجال المُعارضين، واستحيوا عبيد الحقل، وخدم البيوت، وسخرة المصانع، وبائعي المبادئ».

إنَّ استجابة بعض مُفكري الإسلام لمنطق دُعاة الإنسانيَّة في رفض الاصطفاف على أساس الدين والإيمان من أجل كسب أصواتهم التي لا تُسمن ولا تُغني من جُوعٍ في حياة الوُحوش الكاسرة والجبابرة الظالمين لَيُعَدُّ جريمةً في حقِّ الله الذي خَلقهم وأَمَرهم بشُكره وعِبادته، كما يُعَدُّ جريمةً في حقِّ الفِطرة البشريَّة وصيرورة الحياة ومنطق الوجود.

فالوحي للوجود هو الرحمة وهو الدواء الربَّاني الحكيم لعلاج أمراض البشريَّة، وإنَّ مِن أعظم أمراضها هو الكُفر بالله والكُفر باليوم الآخر، وما من طُغيانٍ في الوُجود إلاَّ وهذا أُسُّهُ وآخِيَتُهُ، ولذلك تجد دُعاة الإنسانيَّة هؤلاء سُرعان ما ينقلبون على مبادئهم المزعومة هذه ليكونوا أدوات إجرامٍ لفرعون العصر وطواغيت الزمان، لكنَّها لعبة الاستحواذ الشيطاني على الإنسان المسلم؛ هذا المسلم الذي يُعظم القِيَم القرآنية، فيُخاطب من خلالها للوصول إلى خطَّة الشيطان وطريقته، فالرحمة والعدل وحبُّ الخير قِيَمٌ قرآنيةٌ عظيمةٌ لكنَّ وضعها في غير موضعها الذي قرره القرآن ظُلْمٌ وجَهْلٌ، والله يقول: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)**﴾ [الأعراف: ١٥٦].

إنَّ خطَّ الوحي والنُّبُوَّة ليس شرعاً مُستحباً ولا شرعاً مُكَمِّلاً كما يُريد الجهلة من مسلمين وغيرهم أن يجعلوه، فإنَّ الذين يتخذون هذا السبيل كثيرون في زماننا، إذ يذهبون إلى مُقررات إنسانيَّة إمَّا وهميَّة وإما شهوانيَّة فيجعلونها أصلاً ثم يجعلون الشرع بعد ذلك مُزّيِّناً مجمِّلاً لهذه المُقررات، فإنْ حصل تعارضٌ صريحٌ أوَّلُوا الشرع أو بحثوا عن فقيهٍ منسيٍّ قال قريباً من قولهم، كما يذهب بعضهم إلى استخدام خط النُّبُوَّة والوحي داعماً لِعُمد وأُصول جاهليَّة كالولاء على أساس الوطن أو العِرق أو القوم، فيكون الدين مُكَمِّلاً للصورة الجامعة تحت أصلٍ جاهليٍّ، وأمثال هؤلاء من يرى خطَّ النبوَّة جزءاً تُراثيَّاً مُكَمِّلاً لوجودٍ

إنسانيٍّ مُستقرٍ أصيلٍ، هذه الصور وأمثالها هجينة مرفوضة لحقيقة الوحي والرسالة والتي تُقرر أنَّ الأصل في حقيقتها هو إفراغ الإنسان من كلِّ تَصَوُّرٍ أو سُلُوكٍ أو انتماءٍ إلاَّ من بعد أن يستمع لقول الله تعالى وما جاء به الأنبياء كما قال تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١].

إنَّ كلَّ الشعارات التي تُرفع بعيداً عن حقيقة الدين الأُولى وهي أنَّ الإنسان عبدٌ لله، وتابعٌ لأمره، وخاضعٌ لشريعته هي شعارات مُزَوَّرَةٌ، فالإسلام ليس محبَّةً، ولاهو سِلْم، ولا تنميةٌ، ولا أمنٌ، ولا كلٌّ هذه الشعارات ولا أمثالها إن لم تقرر الحقيقة الأولى للدين وهو استسلام الإنسان لله وإفراغه من داعية هواه.

من غير هذا الأصل يُصبح الدين مَطيَّة لأهواء النَّاس وأمزجتهم واستحسانهم، وينقلب خطُّ النبوَّة تابعاً مأسوراً لخطِّ الجاهليَّة والشيطان، والواقع يشهدُ لهذا، إذا صار سهلاً على كلِّ أحدٍ بعد أنْ يزعمَ أنَّ الأديان عظيمة وجميلة ورائعة، وأنْ ينسب للدين بعد ذلك ما يراه عظيماً وجميلاً ورائعاً من جهة نفسه، ولا يتصور أن يأتي الدين بغير هذا، فإنْ حُوجِجَ بحديثٍ كذبَّه، وإن حُوجِجَ بآيةٍ زعمَ أنَّ لها تأويلاً، وإنْ حُوجِجَ بإجماعٍ ردَّه وقال: لعلَّ النَّاس اختلفوا، فإنْ كانت كذبته كبيرة مُستهجنة دعا إلى تجديد الفقه وأُصوله، وإلى تجديد الدين وإعادة فتح باب الاجتهاد، وتحت باب احترام الدين من هؤلاء، وتحت باب أنَّ الأديان لا تأتي بما يخالف مُقررات عقولهم ونفوسهم وأمزجتهم غزتِ الأهواء والشهوات الأديان، وما كان مستنكراً يوماً ما في سالِفِ الأزمان صار مقبولاً، فالربا يتسلل رُوَيْداً رُوَيْداً، وكلَّما فُتِحَ له بابٌ صرخ أهل الإسلام، ثم تبدأ في الاستقرار حتى تُصبح مألوفة، ثم يُفْتَقُ فَتْقٌ آخرٌ وهكذا، ومثله الزنا، بل واللواط كذلك، ولو تأملتَ دُعاة إحياء الخلافة الإسلاميَّة كيف بدأوا باعتبارها حقًّاً ربَّانِيّاً لا تنازلَ عنه، بل دُونها الموت، كيف صاروا اليوم إلى حال الصُّراخ ليل نهار: «نحن برآء

من إنشاء إمارة إسلاميَّة»، فها هي الإِمارة تُصبح تهمة تجتنب، فما هو شأن الخلافة عند هؤلاء اليوم إذاً؟.

حقيقة النُّبُوَّة والوحي الذي يجب بحثه اليوم وتعليمه للمسلمين لا يتعلَّق بإكثار الشروح حتى التعب من علوم تابعة، ككيفيَّة الوحي كما هي في كُتب العلماء الأقدمين، لأنَّ الأوائل كان الدين مُستقراً بأُصوله عندهم، بل له سلطان في النفوس وفي الحياة وفي المُلك والخلافة، لكنَّ معركة الإسلام اليوم ليست خارجه لتحقيق نصرٍ في غيره، ولا لردِّ عدوٍ خارجيٍّ عنه، فهذه معارك فضل وكرامة، لكنَّ معركة الإسلام اليوم تدور حول حقيقته، حيث يمارس عليه زاعمو احترام الدِّين نفس الدور الخطير الذي يريده أعداؤه منه، لأنَّه منذ وقتٍ ليس بالطويل نشأ خلافٌ في مدارس الاستشراق في كيفيَّة مُواجهة قُوَّة هذا الدِّين، ففِرقةٌ تقول بحربه وتدميره، وفرقةٌ ترى تحويره من داخله وإزالة عناصر الاختصاص فيه لِيُصبح طيِّعاً في الدخول والانسجام مع هياكل الجاهليَّة وأُطرها، وقال أحد دهاقنتهم يوماً: «إنَّ هذا الدِّين لا يُقضى عليه من داخله». وشأن الدِّين هو شأن العربيَّة، كما قال أحدهم: «يجب تفجيرها من داخلها»، وقاعدة هذه الجريمة هو تجنب أي تجريحٍ للأديان، بل يجب إعلان احترامها وتقديرها، لكنَّ المُنازعة تدور مع الأفهام التي يحملها بعضهم من «المُتشددين» و«المُتكلسين»، وبذلك تبقى الأسماء مجرَّد شعارات لكن على غير حقائقها، وهم يتقدمون في صُعُدٍ كثيرةٍ، فهناك جانب الفقه وتطويعه ويقوم عليه جيوش مُعممة، فمنهم حَسنُ النيَّة الغبي النافع، ومنهم سيءُ الطوِية الخبيث الزنيم، وهناك جانب الفكر الإسلامي، وهو بابٌ جديدٌ يتحرر منه صاحبه بكونه مفكراً لا فقيهاً مِن قيود الفقه وأصوله ليقول بعد ذلك ما يشاء من رؤى وأفكار واستحسانات، فإنْ حُوجِجَ بأنَّ ما يقوله هو فتوى على الله وتوقيع عنه قال: هذا فكرٌ وليس فقهاً، وهناك جانب الدراسات الإسلاميَّة في القرآن والسنَّة وتاريخ الفقه الإسلامي، وهي جهودٌ خطيرةٌ، يُغْدَقُ

عليها الأموال، ويمهد لها في وسائل الدعوة الإنسانيَّة كالجامعات والجوائز والندوات واللقاءات الإعلاميَّة، ويُسْبَغُ على أصحابها الألقاب والصِفات وقوى الجاهليَّة هي الحاكمة، فهي الدولة وهي السلطان، وأعداء هؤلاء من وُرَّاثِ النُّبُوَّة والوحي غُرباء ضُعفاء، يُلاحقون مُلاحقة فرعون لموسى عليه السلام، لأنَّ واقع دينِ الأنبياء لم يتمْ تحقيقه في واقعِ الظُّلم الفِرعوني إلاَّ بجهاد فرعون وإخراج المُستضعفين مِن حُكمه وكِبره، فإنَّ الجهاد صار التُّهْمَةَ الأعظم، والسبب المُبرر لأعداء الأنبياء وأتباعهم في حرق إبراهيم عليه السلام، لأنَّه تجرأ أنْ يكسرَ الأصنام.

هذا الواقع بكلِّ ظُلماته لا يحقق في قلوب أتباع الأنبياء إلاَّ قوله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾** ﴾ [الأحزاب: ٢٢] حتى لو وقفوا بأبنائهم وزوجاتهم على شَفِيرِ النِّيرَانِ المُحرقَةِ فسيصرخُ طِفلهم في أُذُنِ أُمِّهِ: إنك على الحقِّ، وسيكون النَّصر لهم لأنَّ كلمة الوحي تقول: ﴿ **قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾** ﴾ [البروج: ٤].[1].

قوله تعالى: ﴿ **ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾** ﴾ [الشورى: ٣] في الوحي شرعٌ وتوحيدٌ ودعوةٌ للعبوديَّة، ولكنَّ الدَّاعي لذلك عزيزٌ عند الخَلْقِ المدعُوِّين، ولذلك فهو لا يدعوهم احتياجاً لهم، بل هو العزيز والقائم على نفسه وعلى غيره جلَّ في عُلاه، لكنَّ هذه العِزَّة مُكتملة بالحكمة، ولذلك خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ، وأرسل الرسل وأنزل الشرائع، وأقام لذلك أسواق العمل ثم الثواب والعِقاب، واقتران العِزَّة والحكمة هو أبلغ الوصف لها، فإنَّ العِزَّةَ بغير حِكْمَة داعية لما لا يحمد، كذلك الحكمة من غير نفاذٍ عجزٌ وضُعْفٌ، فالعِزَّة مُلْكٌ وغِنًى، والحِكمة وضع الفرادة

[1] للشيخ حفظه الله تعالى، ونفعنا بعلمه رسالةٌ بعنوان: «**دَرْكُ الهدى في اتباع الفتى**» شرح فيها حديث الملك والساحر والراهب والفتى شرحاً قيِّماً ومُمتعاً ومُفيداً... فارجع إليها غير مأمور.

والمُلك موضعه، وهذا هو شأنه جلَّ في عُلاه في الوحي الذي يُرسله للخَلْقِ، فهو يُرسله مع عِزَّته واستغنائه، لأنَّ حِكمته جلَّ في عُلاه تقتضي ذلك.

كما أنَّ الوحي بما يأتي به إنَّما هو من مُقتضيات العِزَّة والحِكمة، فشرعه جلَّ في عُلاه إنَّما يقع على هذا المعنى من الكمال في عِزَّة الربِّ وحِكمته.

وعِزَّتُهُ جلَّ في عُلاه ذاتيَّة، لا تكون لملكٍ حادثٍ ولا تخشى ملكاً ذاهباً، وهو إذ يجعل سبحانه وتعالى من معاني عزَّتِهِ ملك ما يخلق فليس لأنَّ هذا الخَلْقَ الحادث يحدث له وصفَ العِزَّة كما يعلم من اتصاف الخَلق بهذا الوصف، بل هو سبحانه وتعالى لعزَّته يخلق الخَلق، وهم في وُجودهم وبقائهم قائمون به جلَّ في عُلاه، محتاجون إليه، لكنَّ الربَّ جلَّ في عُلاه وتقدستْ أسماؤه وصِفاته يحبُّ الحمد، ويُثِيبُ عليه، ويحبُّ تسبيحَ الخلائق له، ولذلك خَلقهم، فهو لا يُريد منهم رِزْقاً ولا طعاماً إنَّما خلقهم لحمده وتسبيحه.

فلذلك قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾ [الشورى: ٤] عقب قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ ليست ذِكْراً لِعِلَّةِ العِزَّةِ والحِكْمَةِ، لأنَّ قبل وُجود السموات والأرض هو العزيز الحكيم، إنَّما هذا تأسيسٌ جديدٌ لأمرٍ آخرٍ، فإنَّ ذِكْرَ المُلك بعد العِزَّةِ والحِكمة هو من تمام المدح لربِّنا جلَّ في عُلاه.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾.

إثبات صفةِ العُلُوِ لربِّنا أمرٌ مُستقرٌ في فِطرةِ الخَلق، وهو مما أخبرَ به الأنبياء أعداءهم قبل أتباعهم، ولذلك نازعَ فرعون موسى في هذه الصفة فقال نافياً لهذه الصفة التي عَلِمَهَا من موسى عليه السلام: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨]، وفي سورة «غافر» (المؤمن) قال الله عنه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧]،

ولذلك فَنُفَاةُ صفةِ العُلُوِّ عنِ الله تعالى هُمْ على مذهب فرعون الذي كذَّبَ موسى في خبره عن ربِّه جلَّ في عُلاه.

وأدلَّة إثبات عُلُوِّ الله تعالى على خَلقه مبثوثة في الكتاب والسنَّة، ينصرها فِطرة الخَلق في توجههم إلى العُلُوِّ حين يطلبون ويدعون ربَّهم، وسور الحواميم هذه كلها ذُكر فيها تنزيل القرآن، والقرآن كلام الله، والنزول لا يكون إلاَّ من عُلُوٍ إلى ما هو دونه، وهذا من أعظم الأدلَّة لو فَقِهَ المُخالف.

والذي يُفسد دينَ النَّاس في هذا الباب هو قِياس الربِّ على خَلْقِهِ، فيكون التشبيه، ومن أجل الهروب من التشبيه تُعقد القواعد الذاتيَّة وتُبنى عليها بَعْدَ ذلك الآيات والأحاديث، فأصل التَنزيه البِدعي الذي به تُنفى صفات الله تعالى إنَّما هو في الحقيقة استقرار التشبيه ابتداءً في قلوب المُبتدعة، ولو سلم القلب من هذه البدعة لَعَلِمَ أنَّ أي صفةٍ تثبتُ للربِّ قد جاء بها القرآن والسنَّة هي صفةُ حقٍّ، كما أنَّها حُسنى لا نَقْصَ فيها، وفي هذه السورة «الشورى» ذُكِرَ وصفُ العُلُوِّ لربِّنا في مَوْطِنَيْنِ؛ في هذا الموطن بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤﴾ وبعدَ ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾ [الشورى: ٥١]، كما اقترنَ في مواطن أُخرى وَصْفُ العُلُوِّ بوصفِهِ جلَّ في عُلاه أنَّه كبيرٌ كما في سورة «النساء»: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ۝٣٤﴾ [النساء: ٣٤]، وفي «غافر» ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ۝١٢﴾ [غافر: ١٢]، وكذلك في «سبأ» قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٢٣﴾ [سبأ: ٢٣]، وهو عُلُوٌّ مُطْلَقٌ كما أنَّه عامٌّ في كلِّ معانيه، فلا يجوز تقييده كما هو مجمعٌ على ذلك، كذلك لا يجوز تخصيصه بقواعدٍ عقليَّةٍ باعثها الهَوى والخوف من التشبيه كما تقدَّم، فهو سبحانه له العُلُو على خَلقه في كلِّ ما يدلُّ عليه اللفظ في لُغة العرب.

وإنَّك لَتعجب من بعضهم كيف يُثبت الرؤية يوم القيامة والحديث يُشبه الرؤية - أقول تشبيه الرؤية لا المرئي، فالله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيءٌ جلَّ في عُلاه -

بقوله: «كما ترون هذا القريب دونه سحاب» ثم هم ينفون علوَّه، لكنَّه كما تقدَّم من شأن المذاهب البدعيَّة التي تُركِّب المُتناقضات في حالٍ واحدٍ.

ولقد رأيتُ أحدهم يزعم دراسة اعتقاد محمد بن جرير الطبري في الصفات وينسب له مذهب التحريف الذي يُقال له التأويل البِدعي، مع أنَّ الطبري له كتاب في هذا الباب اسمه «صريح السنَّة»، إلاَّ أنَّ بعضهم لا يكفيه الوهم على نفسه حتى يفتري على الآخرين، والطبري ككلِّ السابقين في هذا الباب، أي إثبات ما أثبته الله على نفسه، وإمرار الصفات كما جاءت مع إثبات معناها والعلم به وتفويض الكيف إلى الله سبحانه، ويجمع هذا كلَّه قول مالك رحمه الله تعالى عن الاستواء «الاستواء معلوم والكيف مجهول»، وعبارة الطبري في هذا الموطن كما في مواطن كثيرة تردُّ مذهب التحريف الباطل حيث يقول: «وهو ذو علوّ وارتفاع على كلِّ شيءٍ، والأشياء كلُّها دونه، لأنَّهم في سلطانه، جارية عليهم قُدرته، ماضية فيهم مشيئته العَظِيمُ الذي له العظمة والكبرياء والجبرية»[1]، لكن بغياب العِلم تنتشر الشعارات العامَّة، فبمجرَّد استخدام الألفاظ في معنًى صحيحٍ على معنى باطلٍ قديمِ الوُقُوعِ، فكلمة التأويل لم تكن قطُّ عند الأوائل على هذا المعنى البدعي الحادث بعد ذلك من صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر محتمل لقرينة عقليَّة كما يزعمون، بل التأويل عندهم يكون على معنى التفسير أو على معنى الحقيقة، وكِلاهما في كتاب الله تعالى، وهذا التلاعب بالألفاظ قد استخدمه الزنادقة اليوم في حمل كتاب الله على المعاني الباطلة كثيراً، إذ أن كثيراً من دارسي القرآن اليوم ـ زعموا ـ يقفون عند الألفاظ والصُّراخ بها للوصول إلى أهدافهم في التحريف وإبطال الشريعة، وهذا بابٌ يحتاج بنفسه إلى تفصيلٍ ليس هذا مكانه، لكن يُنبه عليه لأنَّه قاعدة الشرِّ التي يُبنى عليها في تقريرات الباطل وتمريره على النَّاس.

---

[1] «تفسير الطبري»: ٢٥/٦ . عند تفسير الآية الرابعة من سورة «الشورى» .

وقوله تعالى هنا: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ صفة الملك الشامل لكلِّ خَلقه، وإرادته النافذة فيهم، وفيها كذلك بيان صفة الذات، فهو سبحانه وتعالى مالكٌ لما خَلق، مُدبِّرٌ له، وهم تحت سلطانه ومشيئته، وهو سبحانه عليٌّ عظيمٌ بذاته وصفاته، وهذا هو أبلغ المدح وأعظمه، إذ فيه بيان عظمة الذات وشمول المُلك ونفاذ المشيئة.

قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ [الشورى: ٥].

لما كان الله سبحانه عظيماً عالياً على كلِّ شيءٍ من خَلقه، ولما كانت السموات هي مكان أمره، فالملائكة فيها تسمع أمره، وفيها تُسبحه وتحمده فإنَّ السموات لذلك مع عظمتها تكاد تنشقُ، ومِن المعلوم أنَّ السموات أعظم من الأرض، وهي محيطةٌ بالأرض وأقطارها، وهذا الانشقاق إنَّما يكون للهيبة وعظمتها وجَلالها، ويكون شفقةً وخوفاً، فهذه استجابة السموات لما تعلم عن ربِّها سبحانه وتعالى، وأما سُكانها مِن الملائكة فشأنهم مع ربِّهم هو التسبيح بحمده، والتسبيح هو التنزيه والتقديس لصفات الجلال، والحمد يكون لصفات الذات وكمالها وحُسنها، ويكون للإنعام، كما عُرف عند أهل العِلم بأنّه الثناء الحَسن على الجميل الاختياري، والجميل الاختياري يتضمن الجميل المُتعدي وغير المُتعدي، وأعظم الحمد ما كان للجمال والجلال ولذلك يُقال: «الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه»، فهو يحمد لصفات ذاته، ويحمد لملكه وسلطانه، وقد حمد الله سبحانه وتعالى نفسه لملكه فقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الفاتحة: ٢]، وكقوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [سبأ: ١]، وحَمِدَ نفسه لخلقه فقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١]، وحَمِدَ نفسه لشرعه وإنزاله الكتب فقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ ﴾ [الكهف: ١]، وحَمِدَ نفسه في كلِّ زمانٍ فقال:

﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠] وقال: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ [سبأ: ١]، وحَمِدَ نفسه على قُدرته على كلِّ شيءٍ، فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١]، وحَمِدَ نفسه في السموات والأرض وفي العشي والإظهار، فقال سبحانه: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨﴾ [الروم: ١٨]. فكان حمد الله شاملاً لصفاته، وأفعاله، وملكه، وفي كلِّ مكانٍ وزمانٍ، ولذلك فإنّه أعظم الدعاء كما جاء في الحديث لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

والعبادات كلُّها مقصودها تسبيح الله وتنزيهه، وحمده وشكره، فما مِن عبادةٍ إلاَّ وهذا معناها، ولذلك كانت صفات الله تعالى وأسماؤه الحُسنى هي مُوجِبات العبادة، والقلوب إنْ حصل فيها العِلْم بالله والعلم بصفاته حصل فيها الخوف والحبُّ، فاندفعت للعبادة والطاعة، وهي ترى بفِطرتها أنَّ هذا من لوازم وُجودها وضُعفها واحتياجها، كما هو من لوازم شُكرِ المُنعم ودفع غضبه وتحصيل رِضاه، وكلما حصل في القلب الهُدى على هذه المعاني ازدادت عبوديَّة المرء لربِّه مُسبِّحاً حامداً كما قال تعالى واصِفاً هؤلاء: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٢﴾ [التوبة: ١١٢]، ولذلك فالعِلْمُ بأسمائه وصِفاته ليس أمراً تصوريًّا فقط، بل هو معانٍ في القلب تحصل فيها الخشية والإنابة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢]، ولذلك فإنَّ أعظمَ الحديث وأعظمَ العلم هو ما يحصل به حبُّ الله والخوف منه، وكلُّ علمٍ إنَّما تُعرف قيمته باتصاله بهذا المعنى وإلاَّ فهو فَضْلٌ أو لَغْوٌ لا قيمةَ له، وتحصيل هذا العِلم يكون بأمرين؛ ذكر الله بالعبادات النُّسُكِيَّة كالصلاة والصوم والزكاة وقراءة القرآن والتسبيح والتحميد، ويكون بالتفكر كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠ـ ١٩١]، ولقوله تعالى في بيان سبب الضلال: ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٠ـ ١٠١]، وقال عنهم: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٤]. فبالذكر وبالفِكر تحصل معاني الهداية التي تُوجب الشكر والخوف، ولذلك قالوا بعدها: ﴿ سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾[آل عمران: ١٩١].

والسابقون المهْدِيُّونَ كانوا يعلمون قيمة العُلوم بما يحصل لأصحابها من إخباتٍ وذكرٍ وتألهٍ وخشيةٍ، فإنْ خلتْ عن هذه المعاني عَلِمُوا أنها غير ذات بالٍ ولا قيمةَ لها، ولهذا فُضِّلَ عِلْمُ السلف على غيرهم، وكان مِعيار هذا التفضيل هو آثار علومهم على حياتهم ونفوسهم وعبادتهم.

وعمل الملائكة هنا في هذا الآية هو: ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى: ٥]، وهذا أجلُّ عَمَلِ العابدين في الوُجود، والملائكة هم بجنسهم خير ما خلق الله تعالى فلا جنس في الخَلق خيرٌ منهم لا الإنسان ولا غيره، والإنسان إنَّما فُضل على كثيرٍ مِن الخَلق لا على كلِّهم كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقد وصف الله الملائكة بقوله: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم: ٦]، ولذلك فعَمَلُهُمْ هو أحبُّ الأعمال إلى الله تعالى، وقد كان رسول الله ﷺ يحب لأصحابه مُشابهة الملائكة في عبادتهم فيقول عن صفِّهم للصلاة: «**أَلاَ تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟**»[1]، وعملهم في

[1] «صحيح مسلم»: ٤/١٢٧/ح٩١٩ .

هذه الآية جامعٌ للفَضْلِ مِن كلِّ نواحيه، فهُمْ يقومون بحقِّ الله تعالى عليهم من التسبيح بحمده، ويقومون بحقِّ سكان الأرض من الاستغفار لهم، وهذا هو جامع العبادة للإنسان كذلك في القيام بحقِّ الله في تسبيحه وحمده والإنابة إليه، وفي قِيامه بالحقوق الواجبة والمُستحبة التي أمر الله بها من حقوق العِباد.

وأعظم الأعمال الواجبة من حقوق العِباد هو تخليصهم من ذنوبهم بدعوتهم إلى التوحيد لبراءتهم من الشرك والكُفر، وتعليمهم ما يحقق لهم رضوان الله، ودخول الجِنان، والهروب من النار، ولذلك كان عمل الملائكة هو الاستغفار لأهل الأرض.

وهذا المعنى الحاصل في القلب من استغفار الملائكة لأهل الأرض هو من أعظم دوافع الإنسان لمعرفة خطر وُجوده وخطر أعماله في الوُجود بأكمله، فأنْ يعلم العبد أنَّ ملائكة الله تعالى تستغفر لذنبه، وهُمْ مَن هُمْ في الخَلق والقُوة والكَرامة والعِلم بالله والسموات والأرض والجنَّة والنَّار، ليجعل العبد في مُراقبة دائمة لعمله لئلا يزلّ ويُذنب، وهذه هي التقوى، فالعِلْمُ بعمل الملائكة هو دافعٌ من دوافع التقوى في القلوب، وهُمْ حيث يستغفرون لأهل الأرض لمحو ذنوبهم ومغفرتها لأنَّهم يعلمون عِظَمَ الذنب وخَطره وأثره على الوُجود كلِّه وعلى الإنسان، فقد قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القمر: ١١-١٤]. فها هو الكون كلّه يتأثر بما يعمل الإنسان ويجنيه، لكنَّ غفلة الإنسان تمنعه من إدراك خطرِ عمله وذُنوبه على الوُجود، ولذلك كان مِن عَمَلِ المؤمنين الاستغفار للمؤمنين والاعتذار عنهم كما قال الله عن موسى عليه السلام واعتذاره عن قومه: ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وفي استغفار الملائكة لأهل الأرض دليلٌ على أنَّ استغفار غير المذنب لذنبِ غيره نافعٌ، وكذلك سائر الدعاء، فإنَّ الله تعالى يقول عنِ اللاحقين من المؤمنين: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠]، وقول إبراهيم عليه السلام في دعائه: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ۝٤١﴾ [إبراهيم: ٤١]، وهذا كلُّه من رحمة الله تعالى وهو تخصيصٌ لقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾ [النجم: ٣٩]، وهي آية مخصصةٌ بغير هذا كذلك كعمل الابن لوالديه وغير ذلك.

وهذه الآية في «الشورى» عامَّة في استغفار الملائكة لأهل الأرض، والتي في «غافر» خاصَّة في استغفارهم للمؤمنين، كما يقول فيها سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾ [غافر: ٧]، والجمع بينهما أنَّ استغفار الملائكة في سورة «غافر» مذكورٌ فيه كما ترى مغفرة الذنوب للمؤمنين ووِقايتهم عذاب جهنَّم، وكذلك فيها قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾ [غافر: ٨ - ٩]. فهو استغفارٌ له نتائجه في محوِ الذنوبِ واجتنابِ آثارها مِن العذاب ودخول الجِنان، أما الاستغفار لأهل الأرض عموماً؛ مُسلمهم وكافرهم، فليس هذا عاقبته للكافرين، لأنَّ الله يقول في السورة نفسها - «الشورى» - بعد ذلك: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨﴾ [الشورى: ٨]، ولكن ما يحصل للكافر من استغفار الملائكة هو عدم تعجيل العقوبة له، وعدم منعه الرزق، وكذلك صرف البلاء عنه وحصوله على النعيم فيها، وهذا مذكورٌ في قوله تعالى في السورة - «الشورى» - ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم

﴿مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠]، ولذلك فإنَّ الكافر يحصل له النفع من استغفار الملائكة لعموم أهل الأرض والله يقول: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٦١﴾ [النحل: ٦١]، وكذلك يقول: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥]، والاستغفار يُطفئ غضب الله تعالى، وبحصوله من الملائكة ومن المؤمنين يحصل النفع الإلهي لأهل الأرض، كما يحصل البقاء لهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال: ٣٣]، وهذا شأنه كما شأن الاستسقاء، فإنَّ المؤمنين يُصلّون ويستغفرون فينزل الغيث ويحصل به النفع لهم ولغيرهم من الكفار، ولغير الإنسان كذلك.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الشورى: ٥].

هاتان من صفات الله تعالى المُقدمتان على غيرهما من الصفات، فإنَّ رحمة الله تسبقُ غضبه، وإنَّ مغفرته تسبقُ عُقوبته، ومن تقدمة صفة الرحمة على غيرها فقد جعل الله افتتاح كل سورةٍ باسمه جلَّ في عُلاه وبصفة الرحمة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وهذا وإنَّ مِن سُبل الشيطان في إغواء البشر وموتهم على الكفر هو عدم فِقههم لهاتين الصفتين، فإنَّ اليأس من رحمة الله كُفْرٌ، وانقطاع رجاء المغفرة يدفع الجاهل إلى الإصرار على المعاصي، والتي هي بَرِيدُ الكُفر، ولذلك فإنَّ مِن مُهمات الرُّسُلِ العُظمى هو تبشيرُ النَّاس برحمة الله ومغفرته مِن غير استهانةٍ للمعاصي، فالرحمة والمغفرة صِفتان لله لَهُمَا مُوجِبٌ من أعمال العِباد القَلبيَّة واللسانيَّة والفِعليَّة، إذ لا يقعان إلاَّ على مستحقٍّ لهما، أمَّا المُسْتَهْتِرُ برحمة الله

فهذا لا يَرْعَوِي ولا يتوب، وأمَّا المُؤمن فهو بين حالِ الخوفِ مِن الله وحالِ الرجاء، وبهذا يستقيم أمره على الطاعة، ولا تقطعه المعصية، فلا يقفُ عندها يائساً محبطاً، بل هي ككلِّ إخفاقات الإنسان يتوب منها ثمَّ يرحلُ إلى مرحلة أُخرى من الإقبال على الله والعمل بطاعته كما قال موسى عليه السلام بعد قتله القِبطي: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [القصص: ١٦ ـ ١٧].

هذا المطلع العظيم لهذه السورة يُنبيكَ عن عِلْمٍ بقضايا مهمَّة، ففيها الحديث عنِ الوحي والنُّبُوَّة، وفيها ذِكر الملائكة وأعمالها، وشأنُ السماء في تفطُّرها لعظمة الربِّ، وهي بهذا الحديث الشامل عنِ الله والوحي والملائكة والسماء وعلاقة كلِّ ذلك بهذا الكائن السائر في جَنبات الأرض، وبيان خطر أعماله وسلوكه لِتصنع الإنسان أمام حقائق جِديَّة لا لَغْوَ فيها ولا عَبَث، ومَن آمن بهذا الكلام الحقِّ خرج من جهالات الأسئلة التي يزعم بعض النَّاس الحيرة فيها عن الإنسان والوجود والمصير فيما يُسمونه مباحث الفلاسفة، فهذه أسئلة مُصطنعة وَهْميَّةٌ يهربُ إليها بعضهم كما يهرب المرضى والجهلة إلى المُخدرات ليصنعوا الوهم والسراب، فيخوضون تحت سِتار رَفْعِ الحيرة، فإن ساروا ازدادت حيرتهم ثم لا تنقضي الرحلة إلا على ظُلمات وحيرة لا تنتهي.

مع هذه الحقائق القرآنيَّة يحصل برد اليقين على المعاني القلبيَّة، لكن يحدث استنفارٌ آخرٌ هو استنفارُ مَن أدركَ خُطورة مهمّته وعظمة رسالته، والجهلة يَقلبون الحال، إذ يزعمون أنَّ الأجوبة الجاهزة على أسئلتهم التي يُسمُّونها كُبرى هي تعطيلٌ لأُفُقِ عقولهم العظيمة، ولذلك هم يَعيبون على النُّبُوَّةِ وأتباعها أنَّهم أصحابُ اطمئنانٍ ساذجٍ كما قال الله تعالى في وصف اتهاماتهم الكاذبة هذه بقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٣]، لكنْ إنْ صَحَّ قولكم في دعواكمُ القُدرة في إدراك

حقيقة الوُجود كلِّه وحقيقة الإنسان فيه فماذا كان منكم بعد ذلك سِوى فساد السلوك وضلال الشرائع وجهالات المبادئ المُخزية.

لقد تبيَّن أنَّ أتباعَ الأنبياء وهم يحصلون على موائدهم أجوبة الأسئلة الإنسانية ينطلقون بفَعاليَّة مُؤثرة في الوجود وأحداثه، فهم صُنَّاع التاريخ، وهمُ الخائضون حقَّاً في مَعَامِعِ الحياة وإصلاحها، وكلُّ زاعمي الحيرة هم معوقون على درجة حيرتهم، ولذلك أكثر النَّاس إعاقةً وشللاً في التاريخ الإسلامي هم الصوفيَّة، لأنَّهم زعموا أنَّ العلم بالشريعة لا يحقق الاطمئنان، بل الذي يحقق الاطمئنان هو الذوق للمعاني الباطنيَّة، وهي عندهم على معنًى آخر غير الظاهر الشرعي.

وظاهرة الشلل والإعاقة تحت دعوى حلِّ المُشكلات الفكرية الدقيقة مُكررة في الوجود الإنساني، ولذلك نجد أنَّ أكثر النَّاس خَوْضاً في هذا الباب هُمْ أكثر النَّاس ابتعاداً عنِ الحياة وإصلاحها وتحقيق وقائع الإصلاح، والذين يُقال لهم أصحاب المشاريع الفكريَّة والدراسيَّة في الصفِّ الإسلامي اليوم هم على هذه الشاكلة، إذ يكثر كلامهم ويقلُّ فِعلهم، ولذلك ليس الإبداع والتجديد في حلِّ مُشكلات العقل ووقائعه إنَّما الإبداع في حلِّ عقد الإرادة الإنسانيَّة، وذلك عن طريق مُقاومة الهوى والظنِّ، ومَن تأملَ القرآن الكريم ودعوته لتحقيق الإنسان السوي عَلِمَ أنَّ حربَ القرآن الكبرى إنَّما تَنْصَبُّ على هذين الأمرين؛ الهَوى والظن، فجَعَلَ مُقابلَ ذلك الهدى، فالظن يُقابَل بالوحي وعلومه لا بتأملات العقل الذاتيَّة، والهوى يُقابل بالامتثال والطاعة، فبهذا تحلُّ مشكلات الوجود العلميَّة والسلوكيَّة، ومن لم يقبلْ بذلك فمصيره إلى الحيرة دوماً، وإلى فساد السلوك واتباع الهوى لا محالة.

هذا لا يعني أبداً تعطيلاً للعقل كما يزعم خصوم الأنبياء، بل هو إرشادٌ له وضبطٌ لحركته وفَعاليته، والقرآن الكريم لوحةٌ من لوحات الوُجود التي تُدرس وتُعقل لإدراك المعاني والعلوم، فكما خَلَقَ الله الوجود فيتفكّر فيه الإنسان ليُدرك

السُنن والحِكم وليستخرج المعاني منها، فكذلك أنزل الله القرآن ليتدبَّره قارئه فيستنبط منه معاني الحقِّ التي تنفعه، ولذلك فإنَّ الله جعل مصدريْنِ للحقِّ في سورة «النجم» **أولهما**: الوحي، حيث برأه من الهوى والكذب فقال سبحانه: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾** ﴾ [النجم: ٣]، وقال: ﴿ **مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾** ﴾ [النجم: ١١].

والآخر: البصر والنظر، وجعل شرط صلاحه عدم الزيغ ولا الطغيان فقال: ﴿ **مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾** ﴾ [النجم: ١٧]، والزيغ يتضمن إدخال الأجنبي على الحقيقة فيُفسدها، والطغيان يتضمن تضخيم الحقيقة على حسابٍ آخرٍ.

فبهذا يتم صلاح علم الإنسان، ويُفسده الظن والهوى.

أما حقائق الوُجود ووقائعه فلا تقع بالتمني ولا بحديث النفس كما قال تعالى فيها: ﴿ **أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾** ﴾ [النجم: ٢٤]، وكما قال في سورة «النساء» ﴿ **لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ** ﴾ [النساء: ١٢٣].

ويحيط هذين القانونين؛ قانون العِلم، وقانون العمل بمشيئة الله سبحانه وتعالى كما قال: ﴿ **۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾** ﴾ [النجم: ٢٦].

هذا وإنَّ من خصائص مفهوم العِلم في القرآن هو العمل، فالأفكار والمعاني ليست عِلْماً لوحدها، بل لا بدَّ مِن النظر إلى قُدرة هذه الأفكار والمعاني في قيادة الإرادة الإنسانيَّة، فإنْ لم تحقق هذه القُدرة فليست مِن العِلْمِ في شيءٍ، ولا يحق للمرء أنْ ينسب للعلم إلاَّ وهو ممتثلٌ لمعانيه مقتاد لمفاهيمه، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ **فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾** ﴾ [النجم: ٢٩ ـ ٣٠].

والعلوم الشرعيَّة وإنْ كانت حقيقة في نفسها إلاَّ أنَّها ليست بشيءٍ دون مقصدها الكُلي وهو رجاء الدار الآخرة، ولذلك لا يجوز نسبة علومها وحقائقها

إلى ذكر الله إلاَّ بهذا الاعتبار لقوله تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النجم: ٢٩].

هذه هي أُصول العلم وقواعده، وهذه هي صناعة القرآن للإنسان ليُحقق السويَّة والاستقامة والفَعاليَّة، ومَن تأملَ حال الصحابة واستسلامهم للقرآن اطمئناناً، وبذلهم الجهد الأعظم في باب العمل علم خطأ مدَّعي إحياء الفَعاليَّة اليوم، حيث يغلبُ على وهمهم أنَّ المشكلة التي تُعاني منها الأُمَّة هي مشكلة فِكريَّة فقط، دون وعيهم على معنى العِلم في القرآن، ودون خوضهم غمرات تحرير إرادة المسلم من الهوى، هذا إن سلَّمنا أن اجتهاداتهم قرآنيَّة النظر والاستنباط.

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ ﴾ [الشورى: ٦].

بعد ما تقدم من ذكر الحقائق المُتعلقة بالوحي والوجود الغائب نظراً والحاضر أثراً يأتي ذكر موقف الإنسان المُخالف، لا ليثبت بُطلانه وخطأه، فهذا مُقررٌ في المعنى، لكن لِيُبَيِّنَ خضوعه، وشمول قُدرة وعِلْم الله عليه، فالمُستسلم لله شرعاً لا مُنازعةً في شأنه مع حقائق القرآن، فهو مهدي العلم والعمل، مُنسجمٌ مع الحقائق القَدريَّة، لكن المُعارض وهو يرفض الخضوع الشرعي هل يعني أنَّه خرج عن الإرادة القَدريَّة بهذا الرفض الإرادي له؟

القرآن يُقرر أنَّه مشمول بالقُدرة والإرادة الإلهيَّة، وخاضعٌ للإحصاء والإحاطة العلميَّة، ولذلك قال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾، فَوَهْمُهُم الباطل لا يُغيِّر الحقائق، لأنَّ الحقائق لا تُصنع ذهنيَّاً، ولا تُصاغ بالدعاوى الذاتيَّة، بل هي حقٌّ ثابتٌ في الوجود.

وفي هذا المعنى تقريرٌ لحقيقة الاختيار الإنساني القَدري للتأليه والعبادة، لكنَّ هذا لا يعني خروجه عنِ الحساب والعِقاب، كما ستبين الآيات بعد ذلك.

قوله: ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٦ ﴾. بيانٌ لحقيقة الرسالة ودورها في أقدار الخَلق، وهي عدم قُدرتها ولا مَن مَلَكَهَا سَوْقَ النَّاس وقلوبهم واختياراتهم إلى المعاني، وذلك بخلاف مُهمّتها في الهداية العِلميَّة والإرشاديَّة كما ستبيِّنُ خواتيم هذه السورة.

بهذه الكلمات، وبآيةٍ واحدةٍ تُحَلُّ مشكلة الإرادة الإنسانيَّة وحقائق اختياراتها العلميَّة والعمليَّة، وهي قضيَّةٌ لا يمكن لأحدٍ أنْ يجيب عليها إلاَّ وسيُنازع في إجابته، لأنَّ سَوْقَ الإنسان وإرادته محتملٌ في العقل، وتحررها في اختياراتها محتملٌ كذلك، والبشريَّة في تاريخها لا تعرفُ تخبطاً أعظم من تخبطها في هذا الباب، وهي معذورةٌ في عدم قُدرتها على حلِّ هذه المشكلة، لكنَّها محاسبة على عدم الاستماع إلى حقائق القرآن وكلمة الله، لأنَّها هي الوحيدة القادرة على إجابة هذه الحيرة وهذه الأسئلة.

بهذه الآية يُقرر القرآن أنَّ الإنسان مختار: ﴿ **وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ...** ﴾ فهو فعلٌ لهم، وهو مع ضلاله وانحرافه لكنَّه منهم هم لا من غيرهم.

★ وهو باختياره هذا خاضعٌ لعِلْمِ الله وقُدرته ومشيئته ﴿ **ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ** ﴾.

★ والعلمُ الحقُّ يملكُ دورَ الإرشادِ لا السوق، ولكنَّه لا يملكُ التأثير إلاَّ باستعداد المحل ﴿ **وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ** ﴾ وفي هذه الآية التي جاءت معانيها في سور أُخرى مكيَّة كقوله تعالى في «هود»: ﴿ **إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢** ﴾ [هود: ١٢] تطمينٌ لرسوله ﷺ وتسكينٌ لنفسه من وقوع الأقدار التي لا يحبّها للخَلق من المعاصي، فإنَّ المؤمن إنسانٌ قبل قناعاته، والإنسانُ تَنْزَعُ مشاعره إلى الحبِّ والرضا كما تنزعُ إلى الكُرْهِ والغَضَبِ، وهذه الأعمال القَلبيَّة لها أثرٌ على المعاني

على الرغم أنَّها من نتائجها، وهذا كشأن الأعمال، فإنَّها كما تمدُّ القلب بالمعاني الإيمانيَّة أو الكُفريَّة، إلا أنَّها من صناعتها ابتداءً، ولذلك كان هذا المعنى القرآني هو الذي يُشكِّل السِوار المانع من تأثير هذه الأفعال القلبيَّة سلباً على معاني الإيمان، فالله يقول: إن كفرهم وشركهم ليس طغياناً على إرادة الله القَدريَّة، بل هو محيطٌ بهم، بعلمه وقُدرته، وكفرهم هذا لا يُؤثر في حقائق الوحي، كما أنَّك معافى من آثاره لأنَّه ليس لك من الأمر شيءٌ.

★ مسيرةُ الدعوة والعمل لدين الله تعالى ستُصابُ بما ستُصابُ به كلُّ الدعوات، فهي في مُستواها العِلمي ربَّانيَّة الهُدى والإرشاد، لكنَّها في مُستواها العملي بشريَّة الأداء، والإنسان عنصرٌ غير ثابتٍ، فلا تلتصقُ صفات القِيَم كما تلتصقُ به صفات الإرث والنسب، فالإيمان يزيدُ وينقصُ، والمرء يُصبح مؤمناً ويمسي كافراً، وكذلك العكس، كما أنَّ في الصفِّ الإسلامي عناصر النفاق كما يمكن حصول عناصر التغير والانقلاب، فالدَّاعي إلى الله وخاصَّة الرائد فيها، والعامل لدين الله تعالى مجاهداً وقائداً يجب أن يكون مُترفعاً في إرادته وتصميمه عن هذه الهنّات والتقلّبات، ومشهد الرسول ﷺ في أُحد وفي حُنين، وكذلك مشهد صاحبه وخادمه الصِّدّيق رضي الله عنه في فِتنة الرِّدَّةِ شاهدٌ على عُمْقِ هذه المعاني في النفوس، فإنَّ معانيَّ الحقِّ في النفوس ليست عُرضة لمساومة الواقع وتقلّباته، والثبات على القِيَم من خلال إيمان المرء أنَّ الله محيطٌ بذلك كلّه، وهو تحت مشيئته وقُدرته وإرادته، كما أنَّه خاضعٌ لحكمته مع شهوده على نفسه أنَّ مشهد الوجود كلِّه لا يخضع لأمانيه حتى لو كانت إيمانيَّة المعاني؛ أي أن يحب أن يُؤمن النَّاس جميعاً، أو أنْ ينتصرَ الحقُّ في كلِّ مواقعه، تجعله مُثابراً جَلْداً صَبُوراً، لا تغرّه المشاهد الحادثة، ولا اللحظة الراهنة، ولذلك فقول الحقِّ لرسوله ﷺ: ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ** ﴿٦﴾ ﴾ [الشورى: ٦] هي مددُ الإيمان لكلِّ الرحلة حتى يأتي وعد الله أو يأتيه اليقين، وإنَّ مِن أعظم معاني

التربية في السور المكيَّة تحصيل هذه القضيَّة في نفس رسول الله ﷺ، لأنَّها مرحلة إعراضٍ بشريٍّ عنه، وحسابات النفس تميلُ إلى عَدِّ هذا الإعراض من جُملة الإخفاق الذي يُؤْلِمُ النَّفس ويُتعبها ويحزنها، وهي عوامل إضعافٍ للهِمَم، فيأتي القرآن الكريم مُرشداً إلى سحب هذه الوسيلة من لُعبة الشيطان، وكل انقلابات الحركة الإسلاميَّة المُعاصرة عن ثوابت الحقِّ إلى التمييع والتبديل مبعثها هذه المعاني وهذه الأسباب، فهي تسعى لحصْدِ الكثير استعجالاً، وتأمل في بلوغ الغايات بسهولة، فتبدأ المُراجعات المزعومة تحت دعوى فشل المرحلة السابقة، أو إخفاقِ التجربة، وكل هذا مِن عدم فَهْمِ ارتباط هذه الدعوة وهذا الدين بالغيب والحقِّ ومعاني الابتلاء، بل والجهل كذلك بالتجارب الإنسانيَّة التي لا تَنِي في تَكرار الفِعْلِ وُصُولاً إلى تحقيق الهدف.

حقَّاً إنَّ المرء لَيعجبُ من هؤلاء الصِّغار الذين يزعمون الإبصار التام فيلتفون الْتِوَاءً على أعقابهم وانحرافاً عنِ المسيرة بعد أول موقعةٍ، بل بعد الصَّرخةِ الأُولى مع أنَّ دفاتر الموقعة ما زالت مفتوحة ولم تُغلَق أوراقها.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الشورى: ٧ ـ ٩].

تقدَّم أنَّ الوحيَ لرسول الله ﷺ هو الوحي لمن سبقه من الرسل، وكما أنَّ النُّبوَّة إرشادٌ وهدايةٌ من الأنبياء لأقوامهم، فكذلك الحال في نبوَّة محمد ﷺ، فالله يقول له: وكما أُعطي الأنبياء الرسالات فكذلك أُعطيتَ هذا القرآن، فالنُّبوَّة تبليغ لرسالة، وليست حالة معرفيَّة ذاتيَّة فقط، ولذلك فالقول بأنَّ الفرق بين الأنبياء والرسل أنَّ الرسل مبعوثون لأقوامهم وأنَّ الأنبياء يُوحى إليهم دون الأمر بالتبليغ قولٌ ضعيفٌ، لأنَّ الوحي حُجَّة إلهيَّة على الخَلق، ولا تقع الحجَّة إلاَّ بالبلاغ.

والقرآن يُقرر أنَّ كلَّ نبيٍّ أُرسل بلسان قومه كما قال تعالى: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ** ﴾ [إبراهيم: ٤]، والنَّبي محمد ﷺ عربيٌّ فأُرسل باللسان العربي، وكان كتابه بالعربيَّة، فهو قرآنٌ عربيٌّ مُبينٌ، والعرب هم مادَّة الإسلام الأُولى، وهم حملة حقائقه ومِزاجه، وغيرهم من غير العرب هم تَبَعٌ لهم في ذلك، وقاعدة التفضيل القرآنيَّة في الاختيار يُقابلها الابتلاء وثِقلُ المُهمات كما قال تعالى في «الدخان» عن بني إسرائيل - وهي من الحواميم -: ﴿ **وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾** ﴾ [الدخان: ٣٢- ٣٣]، ولَمَّا كان العرب هم أصل الإسلام، وهم مادته الأولى فإنَّهم حَمَلَةُ المُهمَّات فيه، فَهُمْ أَولى النَّاس فيه عِلْماً وعَمَلاً، فلا عِلْمَ يُنسبُ للإسلام إلاَّ إذا استُنْبِطَ مِن القرآن والسنَّة وهما عربيان، والذين حملوا مهمَّة الإسلام الأُولى وأَرْسَوْا قواعدها في الأرض همُ العرب، لا يُنكر ذلك إلاَّ منافقٌ حسودٌ، ويحصل لغير العربي مِن الفَضْلِ والخيريَّة بهذين الأمرين، أي اتِّباع أثر العرب في لسانهم، وأثر العرب في جهادهم، بل والصحيح أنَّ المزاجِ العربي هو أصلح الأوعية لهذا الدين، أي بما معهم من خِصال الشجاعة والكَرم، فهم أهل هذه الخِصال التي حصلت لهم مِن قُربهم من النُّبوَّات وخاصَّة من أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام.

والأُمم فيها المسلم والكافر، والكلام هنا عنِ الجنس في أصله، فقد يحصل للعربي أو لفريقٍ منهم انسلاخٌ من خِصال الخير كالعِلْمِ باللغة أو معاني الفضل مِن الشجاعة والكرم، كما يحصل لغيرهم الدخول في هذه المعاني فيتم الاستبدال، وهذا قد وقع في التاريخ الإسلامي كثيراً، إذ صار عِلْمُ العربية وفقه الدين وخِصال المِنعة والعطاء في غير العرب فحصل لهمُ الفضل والسبق.

وفهمُ قاعدة التفضيل التي تُوجب البلاء والامتحان وتحمُّلِ المُهمَّات تمنع الفخر بالأنساب الذي هو دين الجاهليَّة، لأنَّ الفخر لا يحصل إلاَّ بخصال الواقع كما

تفرضها قاعدة الامتحان والابتلاء، والأُمم في هذا الباب متحولةٌ غير ثابتةٍ إذ كثيرٌ من غير العرب صاروا عرباً باللغة والمِزاج والعِلْمِ، كما أنَّ كثيراً من العرب صاروا عجماً باللغة أو المزاج أو العِلْمِ، فهذه قضيَّةٌ لا يتخذها سُلَّماً لِشَرٍّ إلاَّ ضالٌ أو زنديقٌ أو عريٌّ عن خِصال الخير، لكنَّه يستدفئ بثوب الزور ويتجمل بثوب زورٍ آخرٍ.

بقيت قضيَّة عمومِ الرسالة مع عربيَّة القرآن والسنَّة، إذِ المعلوم يقيناً أنَّ محمداً ﷺ رسولٌ للثقلين كما قال الله تعالى: ﴿ **قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقوله تعالى: ﴿ **قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١** ﴾ [الجن: ١]، ثم قولهم لأقوامهم: ﴿ **وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٢** ﴾ [الأحقاف: ٣٢]، وهذه آيات مكيَّة، فعموم الرسالة إلى الثقلين مقررٌ في الابتداء، وليس تطوُّراً كما يزعم أعداء الإسلام من المُستشرقين وأفراخهم زنادقة العرب.

فإنْ كان محمد ﷺ رسولاً لكلِّ النَّاس فكيف تكون حجَّة القرآن العربي على غير العرب؟.

ابتداءً يُقال إنَّ كثيراً من السائلين هنا هم من أتباع الأنبياء على غير لسانهم، فعموم النصارى اليوم المُنتسبين لعيسى عليه السلام هم على غير لِسانه، وكذلك اليهود، وكثيرٌ من أتباع الديانات هم على دين رجالٍ ولسانهم غير لسانهم، فاختلاف اللسان ليس مانعاً في الاتِّباع، ولا مانعاً في حصول الهداية والفهم، لكن لكلِّ وجودٍ علميٍّ أو عمليٍّ قواعده الأُولى التي تكون مستقرة ثابتة على معنىً واحدٍ، ثمَّ تأتي التوابع واللواحق، فالله قد اختار العرب ليكون القرآن بلسانهم مع التذكير أنَّ جدَّ الرسول ﷺ الأول إبراهيم ليس عربيًّا ولا لسانه بالعربي، وإنَّما حصل لسان العرب في رسول الله ﷺ وأجداده من جهة زوجة

إسماعيل عليه السلام والتي هي من جُرْهُم[1]، وإسماعيل عليه السلام هو مَن قوَّم لسان العرب وقعَّده وحسَّنه كما قال رسول الله ﷺ: «**أَوَّلُ مَنْ فُتِقَ لِسَانُهُ بِالْعَرَبِيَّةَ الْمُبَيِنَةِ إِسْمَاعِيلُ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً**»[2] لكنَّ خِصال الخير حصلت في العرب من جهة النُّبُوَّة كما تقدَّم.

واليوم نرى أنَّ عدد المسلمين من غير العرب أكثر من العرب، وقد حصل لهذه الأُمم من الدخول في العربيَّة الشيءُ الكثير، بل إنَّ بعضهم حصل له العربيَّة جميعاً لولا طُغيان طواغيت الحُكام، فمِنَ المعلوم أنَّ خُراسان كان لسانها عربيَّاً، إلاَّ أنَّ الطاغية تيمُور لِنْكْ التتري لَّما تغلَّب عليها أصدر قراراً باعتماد الفارسيَّة لغة رسميَّة، ومع ذلك بقي النَّاس يكتبون لغتهم بالحروف العربية، وهكذا في لغات كثيرة، كانت تُكتب بالحروف العربيَّة اختياراً حتى جاء طواغيت الإجرام كمصطفى كمال أتاتورك! فمنعوا ذلك، ولو ذهبتَ اليوم إلى أقاصي قرى أندونيسيا وماليزيا لرأيتَ آثار هذه الحروف ما زالت مشاهدة في اللوحات

---

[1] جُرْهُمٌ، كقُنْفذٍ: حَيٌّ من اليَمَنِ، نزلوا وتَزَوَّجَ فيهم إسْمَاعيلُ عليه السلامُ. فعصَوا الله، وأُلحدوا في الحَرَم فأبادهم الله. انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي، و«الصحاح» للجوهري، و«العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي.

[2] «كنز العُمال»: ١/٢٣٠٦/ح٣٢٣٠٩. وقال المناوي في «فيض القدير»: ٣/١٢٠/ح٢٨٣٧. بعد أن ذكر الحديث وشرحه: «ـ رواه ـ الشيرازي في كتاب «الألقاب» عن عليٍّ أمير المؤمنين ظاهر عدول المُصنف للشيرازي أنه لم يره مخرجاً لأحد من المشاهير الذين وضع لهم الرموز، وهو عجبٌ فقد خرجه الطبراني والديلمي من حديث ابن عباس باللفظ المزبور. قال ابن حجر: وإسناده حسن، ورواه الزبير بن بكار من حديث علي رفعه باللفظ المزبور وحسَّن ابن حجر إسناده أيضاً. وأخرج البيهقي في «شُعب الإيمان»: ٢/٢٣٣/حديث رقم: ١٦١٧عن بن عباس رضي الله عنه قال: «أول من نطق بالعربية فوضع الكتاب على لفظه ومنطقه ثم جعله كتاباً واحداً مثل بسم الله الرحمن الرحيم الموصول حتى فرق بينهم ببينة ولده إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام». وأخرجه الحاكم في «المُستدرك على الصحيحين»: ٢/٦٠٢/ح٤٠٧٧. بنفس ألفاظ البيهقي، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

والشواهد والرقم. وكما يقول الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى: «فإنما يقيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها، ونشاط أهلها وفراغهم»[1].

والقصد أنَّ اختلاف النَّاس في اللغة لا يمنعهم من الهداية والتعلم والاتِّباع، أما مسألة الإعجاز فإنَّ الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن هو أحدُ وُجُوهِ الإعجاز وليس كلّه، واليوم النَّاس في هذا الإعجاز سواء، لأنَّ اللغة العربيَّة في علومها اليوم مُكتسبة للجميع وليست مَلَكة تُنتجها البيئة والمحيط، وقد قال ﷺ: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلاَّ أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْياً أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[2].

ومن مُعجزات هذا القرآن أنه مُيَسَّرٌ للذِكر حتى إنَّكَ لَتَجِدَ حُفَّاظاً له من غير العرب أكثر من العرب أنفسهم، ومَن تأملَ هذا عَلِمَ سِرَّ هذا القرآن، كذلك عَلِمَ بعض معاني قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩** ﴾ [الحجر: ٩]، أمَّا انتشار بُغض العرب بين المسلمين من غيرهم، فهذا مرضٌ قديمٌ وله أسبابه المُنحرفة عند الأقدمين، لكن اليوم له أسبابه، منها وهي الأهم هي ممارسات زنادقة العرب الذين يستعلون بقوميتهم على الآخرين من غير دينٍ ولا انتسابٍ للإسلام، فهؤلاء القوميون الزنادقة ممن انسلخوا مِن قِيَمِ الدين ومعانيه لَمَّا حصلَ لهمُ القيادة في بلاد المسلمين ساروا مسيرة فرعون في النَّاس، وكان شرُّهم شاملاً على الأُمَّة جَمعاء، فتلقفَ الزنادقة من غير العرب هذا الواقع ليستغلِّوه في فصل عُرَى الحبِّ بين المسلمين تحت لوائح وشعارات الزندقة القوميَّة لغير العرب كما هو شأن زنادقة القوميَّة العرب سواء بسواء، ويُشجِّع هذا إبليس وجنوده المُستكبرين من الكفار في الشرق والغرب، لأنَّ هذه مادَّتهم في إخضاع أُمَّة الإسلام لخططهم ومقاصدهم، فافترقت الأُمَّة الإسلامية الواحدة تحت شعارات

---

[1] «الإحكام في أصول الأحكام»: ٣١/١.

[2] «صحيح البخاري»: ١٩٠٥/٤/ح٤٩٨١. طرفه ٧٢٧٤. «صحيح مسلم»: ١٥٢/٢/ح٣٤٠.

جاهليَّة، واللوم يقعُ في هذا على العرب أكثر من غيرهم، حتى لو كانت الدعوة إلى القوميات الجاهلية قد بدأت من غيرهم كما يُثبت التاريخ، لكنَّ استجابة العرب لهذه الدعوات جرَّتْ عليهمُ الخسارة أكثر من غيرهم، وكان عليهم أن لا يقعوا في هذا الفخ، وخاصَّة أنَّ عُمد الدعوة إلى القومية العربية كان من غير المسلمين، بل هم من بقايا الصليبيين في بلاد المسلمين، لكن كيف يعذر مجرَّد أن ينتسب لآل البيت نسباً وهو الحسين بن علي المُسمى شريفاً!! في بيع نفسه لأعداء الإسلام الإنجليز ليقتل المسلمين من الأتراك في مجازر تشيب لها الوِلدان، وستبقى في الذاكرة الإنسانيَّة زمناً طويلاً؟!.

مِن المُمكن أن يُقال إنَّ القوميين من غير العرب كانوا البادئين لكن هذا لا يصلح عُذراً لمسلمٍ عربيٍّ أن يقعَ فيه أو أن تنطلي عليه لُعبة القوميَّة، لكنَّ هذا الذي حدث، وكان الخاسر فيها الإسلام وأهله، والأكثر خسارةً همُ العرب.

ثمَّ إنَّ من عوامل انتشار بغض العرب حالات مُتعددة أعقبت تشكل الدولة الجاهليَّة المُعاصرة على أساس قومي، ومن ذلك مظالم هؤلاء القوميين العرب لغير العرب، ومجازرهم ضِدَّهم، واستعلاؤهم عليهم كما تقدَّم، ومن ذلك كذلك حالة الهَوان والضعف التي آلتْ إليها الأُمَّة الإسلاميَّة تحت هؤلاء الحُكام المُرتدين من العرب، إذ صار الهَوان والجهل والتخلُّف والفساد عُنواناً لهذه الدول تحت هؤلاء الحُكام، وبالتالي مُلتصقاً بالعرب لُزُوماً، كما إن جهالات شعوب أكرمها الله بالمال والغنى فلم تشكر نعمة الله عليها على مساكين المسلمين وخاصَّة من غير العرب الذين يأتون إليهم للعمل والاكتساب، فمظالم هذه الشعوب الجاهلة، وصِفاتهم غير الحميدة تُنفِّر الغريب فيها، فيرحل المرء منها وهو يحمل قصصاً وأحداثاً لشعبه تمتلئ استهزاءً وكُرْهاً وبُعْداً، ولذلك بدل أن يحمل العربي صفةَ الهُدى والدين كما فعلَ أسلافه من التجار الذين دخل بسببهم ملايين

المسلمين من الملايو صار العربي بغِناه الجاهل، وبغروره الفجِّ، وبكبره القبيح مصدر نفرة من ملايين المسلمين من غير العرب حين يأتي إليهم ويعيش بينهم.

هذا مع أنَّ العرب ـ الذين يتكلمون العربية اليوم ـ هم في شقاقٍ وخصومةٍ، وقد انطلت عليهم ابتداءً لعبة الشيطان في القوميَّة، ثم ها هي لعبة إبليسيَّة أُخرى تحوز عليهم، وهي تقسيمهم على أساسٍ قُطري، كلّ قُطْرٍ يبغضُ آخراً ويستهزئُ به ويحمل عليه خِصال الشرِّ، مع افتخارٍ جاهليٍّ، واستعلاءِ مغرورٍ بنفسه وبقومه وبقُطره، فصار الشرُّ شُروراً، فعاد النَّاس إلى جاهليتهمُ الأُولى ببُعدهم عن مبدأ الولاء والبراء الذي أمر الله به عبيده المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ دلَّ على أنَّ هذا القرآن عربي لا يجوز أن يُنسب إليه شيءٌ مِن غير لُغتهم، وهذا الذي عليه أساطين أهل العِلم كالشافعي وابن جرير رحمهما الله، والشافعي يُشدد النكير في كتابه «الرسالة»[1] على مَن زعم أنَّ في القرآن لغة غير لغة العرب وقال في حقِّ هؤلاء: «وَقَدْ تَكَلَّمَ فِي العِلْمِ مَنْ لَوْ أَمْسَكَ عَنْ بَعْضِ مَا تَكَلَّمَ فِيهِ لَكَانَ الإِمْسَاكُ أَوْلَى بِهِ وأَقْرَبَ مِنَ السَّلاَمَةِ لَهُ إِنْ شَاءَ اللهُ. فقال منهم قائل: إنَّ فِي القُرْآنِ عَرَبِياً وَأَعْجَمِياً، وَالقُرْآنُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَيْسَ مِنْ كِتَابِ اللهِ شَيْءٌ إلاَّ بِلِسَانِ العَرَبِ، وَوَجَدَ قَائِلُ هَذَا القَوْلِ مَنْ قَبِلَ ذَلِكَ مِنْهُ، تَقْلِيداً لَهُ، وَتَرْكاً لِلْمَسْأَلَةِ لَهُ عَنْ حُجَّتِهِ، وَمَسْأَلَةِ غَيْرِهِ مِمَّنْ خَالَفَهُ، وَبِالتَقْلِيدِ أَغْفَلَ مَنْ أَغْفَلَ مِنْهُمْ، وَاللهُ يَغْفِرْ لَنَا وَلَهُمْ».

ثمَّ ذهب رحمه الله يرد شُبه القائلين بهذا القول بحججٍ عظيمةٍ يُرجع إليها لفائدتها، وكتاب «الرسالة» للإمام الشافعي لم يَقُم النَّاس اليومَ حقَّ القِيامِ من النظر والتفكُّر فيه، وهو كتاب يكشف عقول السالفين من علمائنا، بل يكشف عن أعظم العقول في عصره ومَن بَعده، والشافعي حقيقٌ بهذا الوصف، وقواعد

[1] «الرسالة»: ١/ ١٢٨ .

علمه التي صار فيها حجَّة للسنَّة كما وُصِفَ مِن قِبَلِ مُعاصِرِيه هي مما يحتاجه اليوم النَّاس لضبط مهزلة الفُقهاء الجُدد ممن لا يتقون الله تعالى في فتاويهم، وليتَ أحد أهل العِلْمِ النُجباء يتصدى لشرح كتاب «الرسالة» وكشف كُنوزه ودُرره، كما يقربه للنَّاس اليوم ليعين الطلبة في تحصيل مَلَكة الفقه وأصوله، فإنَّ أصول الفقه وكُتبه قد دخلها ما ليس من علومها، كما غلب عليها صياغة المناطقة ومسائلهم، حتى دخل فيها ما هو أجنبي عن أُصول الفقه، وأما ما يُدرَّس للطلبة من أصول الفقه فإنَّها يجب أن تُسمى بمصطلح أصول الفقه، لأنَّها تعريف بمصطلحات هذا العلم لا تعليماً لقواعده ليصبح ملكة نفسيَّة لمتعلمه.

قوله: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [الشورى: ٧]. وأمّ القرى: مكَّة، وقوله: ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ دليلٌ على ما تقدَّم من عموم رسالة محمد ﷺ لكلِّ النَّاس، وهذا زائدٌ عن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤]، ذلك بأنَّ قومه همُ المقصودون ابتداءً بهذا الدين وغيرهم بعدهم، وقد ذكر معنى هذه الآية في قوله تعالى في «الأنعام»: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

والنذارة عندهم هي الإبعاد بالعقوبة، وضدها البشارة فهي الوعد بالخير.

قوله تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ [الشورى: ٧]. أي تخوّفهم يوم القيامة إذ يجمع فيه الخلائق، وهذا أساس النبوَّات، وقد يموت قوم قبل إتيانهم نذارة الدنيا ولذلك قال الله على لسان مؤمن فرعون: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾ [غافر: ٢٨]، وأما وعيد الآخرة فهو مصيب كلِّ أحدٍ مُعرضٍ كافرٍ، وسيذوق كلٌّ منهم عمله الذي عمله في الدنيا.

والرَّيْبُ في كُتب التفسير هو الشَّكُّ، مع أنَّ الشَّكَّ يكون مِن جهة العِلْمِ والتصديق، والرَّيْبُ أبلغ من ذلك، فإنَّه يكون من جهة العِلم والمُتابعة، فقد

يُصدِّق المرء خبر أحدهم من جهة العِلم، لكن لا يُتابعه لِهَوىً أو لمانعٍ فيكون هذا ريْباً، ولذلك الرَّيْب أبلغ، إذ أنَّ المُنافق مُرتابٌ حتى لو صَدَّقَ الرسول وما جاء به، لكن أَبغضه لحسدٍ أو هوىً أو كِبْرٍ، والقرآن يُوصف بقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، إذ أنَّ القرآن فيه أخبارٌ وهذه يردها الضالُّ المُرتاب بالشَّكِّ أو التكذيب، وفيه أوامر ونواهٍ ويردّها الضالُّ المُرتاب بالإعراض والإباء، وسببهما الرَّيب، وهذا بخلاف الشَّكِّ فإنَّه لا يدخل إلاَّ على جانبِ التصديق المُتعلِّق بالأخبار فقط، لكن تفسيرهم هذا للمُقاربة، وهو تفسيرُ الشيء ببعض معانيه لِيُدْرَكَ.

قوله: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى: ٧]. هنا دليلٌ على ما تعرفه العرب من التَجَوُّزِ في استعمال الألفاظ المُشتركة في المعاني، فقد تقدَّم أنَّ النذارة إِيعَادٌ بالشرِّ، ولكنها استُخدمتْ هنا للأمريْنِ، أي للوعد والوعيد، وذلك لاشتراكهما بالوعد والجزاء.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ هو إخبارٌ عن مُستقر النَّاس يوم القيامة، إذ ليس في الآخرة إلاَّ هذان المُستقرانِ للنَّاس، والقرآن وهو يُقسِّم النَّاس أصنافاً بحسب مراتبهم الإيمانيَّة أو المُعاندة، فالمؤمنون سابقون ومُقتصدون وظالمون، وكذلك مُقربون وأصحاب اليمين، والمُعرضون مُنافقون وكافرون، والكُفار مراتب في الدنيا فهناك أهل الكتاب والوثنيون وغير ذلك إلاَّ أنَّ شأْنَ الآخرة في الجُملة لا يكون إلاَّ على حقيقتين؛ فريقٌ في الجنَّة وفريقٌ في السَّعير، ولكنَّ الجنَّة درجات كما النَّار دركات، وفي سورة «الرحمن» بيانٌ لمراتبِ الجِنان، وفي أحاديثَ مُتعددةٍ مراتب للنَّار ودركاتها.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الشورى: ٨].

سيتبيَّنُ لنا في آياتٍ كثيرةٍ من القرآن أنَّ تنوّع الخَلق لحِكمةِ عِلْمِ اللهِ وقُدرته كما يقول الله في هذه السورة: ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠ ﴾ [الشورى: ٥٠]، ولذلك هو فِعْلُ الربِّ بلا اختيارٍ للخَلْقِ ولا إرادةٍ منهم، وأفعال الله تعالى موصوفة بالحُسنى كما قال تعالى: ﴿ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [طه: ٨]، [الحشر: ٢٤]، ولكنَّ افتراقَ النَّاس إلى مؤمنٍ وكافرٍ لا يمدح على هذا المعنى في آيات القرآن مع أنَّه خاضعٌ للعلم والقُدرة، بل تبيِّن الآيات رحمةَ الله وهِدايته للمؤمنين ومَقته وكُرهه للكافرين كما هو بيَّن في هذه الآية، وكذلك في قوله تعالى في سورة «الإنسان»: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ۝٣١ ﴾ [الإنسان: ٢٩ ـ ٣١].

وقال تعالى في سورة «هود»: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١١٩ ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩].

فهذه الآيات وهي تُبيِّنُ افتراقَ النَّاس في أديانهم إلاَّ أنَّها لا تجعل ذلك على جهة التسليم بهذا الافتراق، بل تُقرن بعاقبة العُصَاة ورحمته وهِدايته للمؤمنين، وهذا يُبيِّنُ ضلالَ وانحرافَ الاستشهاد بهذه الآيات على جِهة الإقرار بهذا الافتراق كما هو واقع التعدد في الخَلق والوجود.

وفي سورة «فاطر» وهي سورة بيان القُدرة الإلهيَّة وتنوعها، كما هي سورة حالة النَّاس مع الرسل والرسالات تأتي فيها الآيات تَتْرَى معددة التنوع في الخَلق كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢ ﴾ [فاطر: ١٢].

كما فيها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٧ ـ ٢٨].

فهذا التنوُّع فيه وحدة المنفعة كما قال تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النحل: ١٤]، وفيه وحدة القصد كما قال تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ١٤]، فهو تنوّع مُقرٌّ لا يُنازع بل يستغل لأنَّه مسخر للإنسان نافع له.

لكنَّ آيات افتراقِ الخَلق في أديانهم ليست على هذا النَّسَقِ، وليست على هذا المعنى أبداً، بل هي على وجهٍ آخرٍ مختلفٍ، ففيها كما تقدّم بيان مِنَّة الله ونِعمته على المؤمنين كما قال تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ [الإنسان: ٣١]. ويقول: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٩]. كما يُبيِّنُ مقاصد أُخرى في آياتٍ أُخرى بقوله في سورة «محمد» (القتال): ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، فوجود التضادِّ في الأديان للابتلاء والتدافع والصراع، لا أنَّه قدر غير منازع كما يريده بعضٌ من المُعاصرين، وفي آية سورة «هود» المُتقدّمة بيان حكمة الافتراق بقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: ١١٩].

وفي سورة «يونس» قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس: ٩٩ ـ ١٠٠]، فهذا حُكمه جلَّ في عُلاه في الكافرين، وهم أهل رِجْسٍ في أعمالهم وأهل ضلالٍ في عقولهم.

وفي سورة «فاطر» بيان حال المُخالفين والمؤمنين، حيث تقع آيات اختلاف الخلق المُتقدِّمة بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [فاطر: ٢٧] ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾[فاطر: ٢٨]. وبيَّن حال الكافرين بقوله: ﴿ثُمَّ

أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فاطر: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فاطر: ٢٩ ـ ٣٠].

حتى في سورة «التغابن» وهي تُبيِّنُ تنوّعَ الخلق في الإيمان لا تترك هذا الأمر دون بيان حال الفريقين، فالله يقول فيها: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ [التغابن: ٢ ـ ٣]. ثم تأتي الآيات بعد ذلك حتى نهايتها وهي تشرح مُستقر كلِّ فريقٍ من هؤلاء.

إنَّ هذا المنهج القرآني العظيم لَيكشف سوء صنائع بعض مَن سوَّق آيات افتراق النَّاس في أديانهم تحت شعار الإقرار لذلك، واضعين أيديهم بأيدي اليهود وعلى ما ينقض دينهم في هذا الباب، وهو بيان الواجب الشرعي المُلقى على المؤمن في التعامل مع هذا الافتراق وبيان حُكمه ودور المؤمن فيه، كما يُبيِّن فساد قِياسهم الضالّ في جعل معاني التعدد في الخَلق هو معنى التعدد في الأديان.

إنَّ هذا البابِ ليس فاسداً من جهة التصوُّر فقط بل يتخذ وسيلة لإحداث تجمّعٍ وولاءٍ جاهليٍّ يُقام على أساس نقضِ تجمّع النَّاس وولائهم على أساس الدين والإيمان، إذ أنَّ إعلان ضلال كلِّ دينٍ غير الإسلام، كما أنَّه في بيان حِكمة الافتراق من الابتلاء والتدافع والجهاد، وما يتبع ذلك مِن الحُكم على غير المسلم بالخُلود في جهنَّم يعني أنَّ الحدود الجامعة للنَّاس هو الدين والإيمان لا غير، فالحبيب والولي هو مَن كان على دينكَ الحقِّ، والعدو والغريب هو مَن خالفكَ في هذا، ولذلك جاء في هذه السورة في الحدَّين المحيطين لهذا الافتراق على أساس الإيمان أنَّ الله هو الولي وهو النصير، فقد تقدم قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ... ﴾ [الشورى: ٦]، وتختم الآية التي هنا: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾

[الشورى: ٨]. بقوله: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ٨﴾ [الشورى: ٨]، وتأتي الآية التالية: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٩﴾ [الشورى: ٩].

ذلك لأنَّ نوع الافتراق يجدد نوع الولاء، والولاء يعني الدين والإيمان، فكلُّ افتراقٍ يصنعه النَّاس من جهة أنفسهم هو افتراقٌ جاهليٌّ لأنَّه ولاء على غير الدين فهو يتعبَّد لغير الله، وكلُّ من كان مؤمناً بالله فهو وليٌّ له، ووليٌّ للمؤمنين معه في إيمانه، فهذه قِسمة الشرع التي تصنع الحياة، فتقوم من أجلها الخُصومات والمنع والعطاء والقُرب والتولي.

هكذا صار الافتراق على أساس الدين قاعدة الحياة، كما أنَّ تنوّع الخَلق إنَّما وقع على جهة التسخير والنعمة التي تحقق منفعة الخَلق ودوام وُجودهم حتى يأذن الله تعالى بغير ذلك.

ولذلك كذب على الله من زعم أن الافتراق على الدين لا يصنع الاختلاف، ولا يُوجب البراء، ولا يحقق البراء والمُدافعة بين الخَلق، وحَمَلَةُ هذه الدعوة ابتداءً في بلاد المسلمين همُ الزنادقة من دُعاة القوميَّة والتوحد على أساسها ونبذ الدين إلاَّ على وجه اعتباره حالة مُكمِّلة لا أصليَّة في وجود الأُمة وهويتها، ثم لما حققوا مُبتغاهم في نزع الولاء والافتراق على أساس الدين ذهبوا يحاربون الدين نفسه ويدعون إلى نحته وتقليمه حتى يتلاءم مع صَنيعهم الجاهلي، واستجاب جهلة الفكر الإسلامي لهذا الأمر مع وجود المُعارضة في الابتداء، إلاَّ أنَّ الطريق طال عليهم فدخلوا في سبيل المجرمين، حيث اختفت الهوية الدينيَّة إلاَّ باعتبارها صِبغة مُكمِّلة لا أصليَّة، أو باعتبارها وجهاً تاريخيّاً كتقاليد النَّاس وتُراثهم لا غير، فانضوى النَّاس تحت رايات القوميَّة والوطنيَّة، ولم يَعُدْ عاراً ولا ضلالاً الانتساب لهذه الشعارات والهويات الجاهليَّة، بل صار من نفاق «الإسلاميين» في الحفاظ على هذه الكيانات الذهاب أبعد مما يذهب غيرهم، فهم يُقاتلون على

أطرها وتحت راياتها، وذهبت الفتاوى إلى القول بجواز تماهي رؤية الحركة الإسلاميَّة في الأحداث والخُصومات بين هذه الكيانات الجاهليَّة مع رُؤى الجاهليين الوطنيين والقوميين سواء بسواء.

ثمَّ اندفع جُند الشيطان إلى محاور قِتاليَّة جديدة ومُتقدمة في هذا المعنى وهو إلغاء الفارق الديني والإيماني بين الشعب الواحد ـ زعموا ـ، فالجميع له نفس الحقوق والواجبات، لأنَّ الهويَّة الجامعة هي الهويَّة الجاهليَّة الجديدة، وليست هويَّة الإيمان والإسلام، فساروا في الدعوة إلى الدولة الوطنيَّة التي تلغي أي شرع يحقق الفَرق على أساس الدين وهويته.

ومن معالم هذا الانحراف سرقة الشهادات الإسلامية الموضوعة على معانٍ إيمانية كالشهادة في سبيل الله ووضعها على وقائع هذا الاصطفاف الجديد، فأُلغي الجهاد على أساس الإيمان، وصارت الفتاوى تُجرِّم جهاد الدعوة، بل صارت تجرِّم جهاد الدفع إن قام فاعله على أساس الخُصومة على كلمة الله تعالى كما قال تعالى في موقعة بدر: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ ﴾ [الحج: ١٩]، وصار القول بأنَّ القتال على أساس الإيمان والكفر قولٌ غريبٌ منبوذٌ، يصرخُ بهذا أصحاب عمائم وقادة فكر إسلامي، وأئمة حركات قامت ابتداءً رَدَّة فِعْلٍ على سقوط الخلافة، ثم سار بها الانحراف إلى أُمنية القبول بهم مكوِّناً مِن مكونات الكيان الجاهلي الجديد، يرجون الإصلاح داخل هيكله، وينظفون قَذارته الْمُلاصقة به قدراً لا انفكاك منه ضربة لازب.

أما إرجاء القضاء في الخُصومة بين أديان النَّاس إلى يوم القيامة كما يزعم الزنادقة وبعض فِراخهم فهو من قبيل الاستهزاء بالدين والاستهزاء بيوم القيامة، فإنَّ الدين كما يريده الله في كتابه وكما شرعه للنَّاس ليس حالة غيبية قلبية في هُداه، كما أنَّه ليس حالة غيبيَّة في جزائه، فكما أنَّ الدين يستغرق حياة النَّاس في معاني قلوبهم وحركة جوارحهم، فكذلك هو جزاء دُنيوي كما هو جزاء أُخروي

كما قال الله على لسان ذي القرنين: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: ٨٧ـ ٨٨]، وكما قال الله مُتوعِّداً آكل الربا: ﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، وكذلك بالجمع بين آيات سورة «الشعراء» في قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٤ـ ٢٠٧]، وآيات سورة «الصافات» في قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الصافات: ١٧٦ ـ ١٧٧]. وقد قال رسول الله ﷺ لما غزا خيبر: «**اللهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ**»[1]. فالنبي ﷺ أوَّلَ عذابَ الله هنا أنَّه هو وجيشه، فالمُعاند له عذابان؛ عذاب الآخرة وعذاب جيش المُسلمين، وهكذا في آيات كثيرة تُبيِّنُ وُجُوبَ القضاء عند القُدرة على المُخالف للدين بأحكام الشرع المعروفة حتى يخضع المُخالف لحُكم الله الشرعي كما هو خاضعٌ لحُكمه القَدَري.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الشورى: ٨]. دليلٌ على أنَّ الكافر بكفره لم يخرج عن مشيئة الله تعالى القَدريَّة، فإنَّه وإنْ عصى أمره ورُسُلَه، وخرج عن طاعته الشرعيَّة إلاَّ أنَّه خاضعٌ لإرادته القَدريَّة، ودلَّتْ كذلك على أنَّ هذا القَدر سابقٌ ولا يسوقُ النَّاس بلا إرادتهم، فمَن اهتدى فإنَّما بنعمة الله قد اهتدى، ومن ضلَّ فإنَّما بإرادته ومشيئته قد ضلَّ وغَوى، وهذا من تمام عدل الله في خَلقه، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يسلب إرادةَ أحدٍ ثم يحاسبه، والنبي ﷺ قال: «**تَجاوَزَ الله عَنْ أُمَّتي الْخَطأَ وَالنِّسيانَ وَما اسْتُكْرِهوا عَلَيْهِ**»[2]. فهذا العدل في رفع

---

[1] «صحيح البخاري»: ١/١٤٥/ح٣٦٩، ١/٢٢١/ح٦٠٣، ١/٣٢١/ح٩٣٥، ٣/١٠٧٧/ح٢٨٧٨، ٣/١٠٩/ح٢٩٢٣، ٣/١٣٣٣/ح٣٥٦٧، ٤/١٥٣٨/ح٤١٠٥، ٤/١٥٣٩/ح٤١٠٧. «صحيح مسلم»: ٩/١٨٤/ح٣٤٥٠، ١٢/١٢٩/ح٤٦٢٠.

[2] «المُستدرك على الصحيحين»: ٢/٢١٦/ح٢٨٥١. وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

المَلاَم عمَن فعلَ فِعْلاً على وجه الإكراه مِن الآخرين، والله عزَّ وجلَّ أَوْلَى به جلَّ في عُلاه.

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾ [الشورى: ٩].

لَّما نفى الله سبحانه وتعالى عنِ الظالمين الوِلاية والنُّصرة منه ومن غيره جلَّ في عُلاه، بيَّن بعدها نكارة اتخاذهم أولياء لهم من دون الله تعالى، ذلك لأنَّ هؤلاء الأولياء ليسوا بشيءٍ كما قال الله عنهم في «الأعراف»: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٢ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ۝١٩٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٩٤ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ۝١٩٥ إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٧﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٧].

وكما قال في سورة «النحل»: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١﴾ [النحل: ٢٠-٢١].

وقال فيها: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٧٣﴾ [النحل: ٧٣]، وآيات كثيرة في هذا المعنى.

وقد بيَّن الله في آياتٍ أُخرى عاقبة هذه الولاية المشؤومة كما قال سبحانه: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ۝٥٢﴾ [المائدة: ٥٢].

وآيات أُخرى ذُكرت في غير هذا الموضع.

قوله تعالى: ﴿ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ ﴾ [الشورى: ٩]. أي الحقُّ المُستوجب لهذه الصفة العظيمة، وأمَّا غيره فهم آلهة وأولياء باطلة لا تنفع ولا تضر، لأنَّه سبحانه وتعالى هو الذي ﴿ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾ [الشورى: ٩].

قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾ [الشورى: ١٠ ـ ١٢].

لَمَا كان النَّاس فريقين؛ فريقٌ في الجنَّة وفريقٌ في السَّعير، كان هذا يعني اختلافهما على الدين، وهذا الاختلاف مذمومٌ لا مدحَ فيه ، كما قال تعالى: ﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝ ﴾ [الروم: ٣١ ـ ٣٢]، كان لا بدَّ مِن مرجعٍ يقضي على هذا الاختلاف، وهذا المرجع هو ربُّ العالمين، وقد تقدَّم أنَّ العِلْمَ بحُكم الله إنَّما يقع عن طريق الوحي.

بهذا الحسم القرآني لأسئلة الوجود العلميَّة، ولشرائع النَّاس المُختلفة، ولخصوماتهم المُتنوِّعة تكون الحلول من مصدرٍ وحيدٍ هو ربُّ العالمين، لأنَّ الحُكْمَ لله وحده كما قال تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [يوسف: ٤٠]، وهذا الحُكم والإقرار به هو أحد معاني عبوديَّة النَّاس لربِّهم واستسلامهم له جلَّ في عُلاه، إذِ المُعرض عن حُكمه وأمره كشأن عابد الوثن والصنم، بل إن أول كُفْرٍ وقعَ في الوجود الإنساني إنَّما وقع في ردِّ الأمر الإلهي كما وقع من الشيطان، فهذا هو أصل كُفر الوُجود، وكلُّ كفرٍ بعد ذلك تَبَعٌ له، يَفْهَمُ هذا كلُّ مَن عَلِمَ معنى العبودية والاستسلام والتألُّه، سواء من لغة العرب أو من آيات القرآن الكريم، ومجرَّد مُنكري هذا المعنى من العبادة لا يجعل المسألة مسألة خلاف، لأنَّ

هناك من نازع في الدعاء والسجود، فجعلوا دعاء غير الله ليس عبادة ولا تألهاً، وجعلوا الذبح لغير الله لا تدخل في الشرك والكفر، ولذلك فما من معنى من معاني العبادة والتألُّه إلاَّ ونازع فيها قومٌ ينتسبون للإسلام، لكن لا يجعل هذا النزاع أنَّ المسألة اجتهادية يجوز فيها الخلاف كما يُريد أن يصنع هذا بعض الجهلة والضُّلال، كما أنَّ جَعْلَ الحُكم بمعناه الكلي على معنى العمل قول باطل مفسد لحقائق اللغة ولقواعد الدين، فالعمل وإنْ كان حُكْماً كما يقول ابن حزم رحمه الله تعالى، إلاَّ أنَّ دخول العمل في الحُكم هو دخول جُزئي لا كلي، وحين يدخل أمرٌ في أمرٍ على معنى جُزئي فإنَّه يلحقه بعض حُكمه لا حُكمه الكلي، ولذلك كانتِ المعاصي كفراً لدخولها في معنى الحُكم في هذا الباب، ولافتراقها عن معناه في بعض الوُجوه كانت كفراً أصغراً، أما ما يدخل في معنى الحُكم دخولاً كليًّاً فإنَّه يدخل في حُكمه الشرعي دخولاً كُليًّا كالقضاء والفتوى.

هذا ما تقتضيه قواعد الفِطرة والشرع، فمن حَكَمَ بغير حُكْمِ الله تعالى فقد عبدَ سِواه لأنَّه نقضَ كلمة التوحيد نَقْضاً كُلِّياً، لا كشأن الكبائر التي تضر واجباتها لا أصولها.

فقوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴾ [الشورى: ١٠]. تقريرٌ أنَّ الحُكم يدخل في معنى الربوبية ومعنى الألوهية والعبادة، إذ كون الحُكم هو حقُّ الربِّ فهو يحكم به، وهو يقوله، وهو يأمر به، هذا يدخل في معنى الرب، لأنه فِعله، فهو قوله: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾، وكون المؤمن يستسلم له ويُؤمن به ويعمل بمقتضاه يعني أنَّه تألُّهٌ وعبادةٌ وإيمانٌ، ولذلك فالحُكم يدخل في معنى الربِّ ومعنى الإله كما تحكم بذلك هذه الآية العظيمة.

قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ دلَّ على أنَّ المُعْرِضَ عن حُكْمِ الله قد اتخذ ربًّا غير الله، فإنْ اختلفَ النَّاسُ في أمرٍ عِلْمِيٍّ أو عَمَلِيٍّ فجعلوا غير الله حَكَماً بينهم في فَضِّ خِلافهم فقد اتخذوا هذا الحَكَمَ ربًّا من دون الله تعالى.

وهكذا تقتضي هذه الآية على دعوى الضالّين الذين يُقرّون الاختلاف ويرونه حسناً في الوجود، ويمدحون تنوّع الأديان والعقائد، لأنَّ مجرَّد الإقرار هو ردٌّ على الله وقضائه فلأن كلَّ عمل يعمله المرء إنَّما يرجو تحصيل منفعة فيه، كما يحتاج إلى تيسير أمره حتى يُقضى، ولمَّا كان حُكم الله الشرعي مُوافقاً لحُكم الله القَدري في تحقيق مُراد العبد مِن أُمور حياته كان في تسليم العَبد لحُكم الله هو على معنى التوكل عليه سبحانه وتعالى، فالعبدُ الذي يَعصي ربَّه في أمرٍ شرعيٍّ إنَّما يرتفع عنه أمران؛ **أولهما**: تسديد الله وسداده في أمره فيرتفع عنه التوفيق الذي هو حاصل التوكل والتفويض، **والآخر**: أنَّه لا يمكن أن يكون راجياً لربِّه في المَعاد الأُخروي ولا في عاقبة أمره الذي هو فيه حين انقضائه، إذ ليس هذا إلاَّ للمُطيع، ولذلك فإنَّ المُمتثل لأمر الله تعالى وشرعه وحُكمه فإنَّه لا يفعل هذا إلاَّ على جهة التوكل بأنْ يقضي الله حاجته في الأمر، كما أنَّه يرجو عاقبته الأُخرويَّة عند الإنابة إليه سبحانه وتعالى، ولذلك فإنَّ العبدَ المُؤمن يسلم لحُكْمِ الله فهو على هذا الغَرَز ﴿تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠﴾ [الشورى: ١٠]، فالله عزَّ وجلَّ قاضٍ حاجةَ من أطاعه ومثيبه على هذه الطاعة، وهذا معناه كذلك في سورة «الطلاق»، فإنَّ الله لمَّا فرغ من ذِكْرِ حُكْمِ الطلاق الرجعي ثم ذكر أمرَ الرجعة والإشهاد فيها بقوله: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]. قال عَقِبَ ذلك سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]، فقرن سبحانه وتعالى امتثالَ الأمر في الحُكم الشرعي بحصول قضاء الوطر، لأنَّ في امتثال الأمر تقوى الله وفيه إيكال الأمر إليه جلَّ في عُلاه.

والتوكل وإنْ كان في جانب العمل، أي إنَّ المرء يرجو أثره في الأعمال إلاَّ أنَّ هذا الأثر لا يحصل إلاَّ إذا كان العمل شرعيًّا، وكذلك رجاء الأجر لا يكون إلاَّ بالأمر الشرعي كذلك.

وهذا الذي تقدم مِن سرِّ القرآن في بناء الأعمال الظاهرة بالأعمال الباطنة وجمعهما في سِياقٍ واحدٍ بخلاف الكُتب المُصنفة في العلوم، فالقرآن حين يتكلم عن الصلاة التي يحصل بها الأثر قال فيها: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ ﴾ [المؤمنون: ١ -٢]، فجعلَ الخشوع وهو عمل الباطن شرطاً لأثر الصلاة بتحصيل الفلاح، وهذا الاقتران في حالٍ واحدٍ مع القرآن مُوَزَّعٌ إلى بابين في كُتب المُصنفين، فكُتب الفقه تتحدث عن أركانها العملية لا القلبيَّة، وكُتب السُّلوك تتكلم عن باطنها، والقرآن طريقته الجمع بينهما.

ثم في قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ بيانٌ أنَّ الصلاح في الأرض، وقضاء الحاجات للإنسان على وجه ما يحب ويُريد لا يكون إلاَّ بحُكم الله تعالى، فإنَّ الله إنْ توكَّلَ بأمرٍ قضاهُ وأمضاهُ على خير الوُجوه وأرضاها لأصحابها المؤمنين، وأمَّا غيرهم فلا تُقضى حاجاته إلاَّ على وجه المشقَّة حتى لو تابع السنن القَدريَّة لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤].

واقتران هذا الوعد الإلهي بقضاء الحاجات مع امتثال الشرع وحصول التوكّل يُبَيِّنُ الفَرْقَ بين حُكْمِ الله وحُكْمِ غيره، فإنَّ غيره مِن الآلهة الباطلة إنْ قضواْ في أمرٍ لا يُعينون عَبيدهم في قضائه، مع ما في أحكامهم مِن الهوى الذي يحصل به الرهق على العبيد.

وقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠ ﴾ جبرٌ للضُعف والخطأ، فإنَّ الإنابة عودةٌ عن الذنب واستغفارٌ منه، والعبدُ في عمله لا يخلو من نقصٍ وتقصيرٍ، ولذلك كان الاستغفار خاتمة أعمال العابدين، بل هو خاتمة حياتهم كما قال الله لرسوله ﷺ:

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر: ١-٣]، فالعبدُ وإنْ استسلمَ قلباً وعملاً للأمرِ إلاَّ أنَّه يُقِرُّ بتقصيره فيه مهما رآه على وجهِ السَّدادِ والمُقاربة، ولذلك كان العبد محتاجاً إلى حدٍّ لازمٍ قبل العمل وهو التوكل، وحدٍّ لازمٍ بعد العمل وهو الاستغفار وهو قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾.

وهذا المنهج في عمل المؤمنين الساري على وجه امتثال الشرع وقبولِ حُكمه ثم الاستعانة بالله في قضائه والتوكل عليه في إمضائه، ثم استغفار ربِّه بعد قضائه ونفاذه هو دين الأنبياء كما قال الله عن شعيب عليه السلام كما في سورة «هود»: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود: ٨].

والله سبحانه وهو يقضي بين النَّاس بحكمه فيما اختلفوا فيه بيَّنَ بعدها صفة الوجود وسننه في الاختلاف الذي يحقق دوام الوجود فقال: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: ١١].

فالوجود عُلْوِي وسُفْلِي؛ أي سموات وأرض.

وقال: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا﴾ [الشورى: ١١].

والأحياء في هذا الوجود الأرضي أزواجٌ؛ ذكرٌ وأُنثى، وهذا الثنائي ليس ثُنائِياً مُتعارضاً بل سماه الله: ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ لاقتران كُلِّ قِسْمٍ فيه بالآخر، ولذلك قال: ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِ﴾ [الشورى: ١١]. أي جعلَ سببَ وُجودِكُمْ وخَلْقِكُمْ هذا التنوّع إلى زوجين، كما جعلَ دوام بقائكم في هذا الوجود بتنوُّعِ الأنعام أزواجاً، إذ أن خَلْقَهُمْ على هذا المعنى هو الذي يحقق لكمُ النفع والحياة.

وقوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي خالِقَها في المُبتدأ، لأنَّ الفَطر هو أصل الخَلق، ولذلك يُقال لأصل الإيجاد الفِطرة، والفَطر أخص من الخَلق، فإنَّ التصنيع والتمثيل خَلْقٌ، لأنَّ مجرد الإحداث على أي وجه كالإيجاد من عدم أو التمثيل في الموجود يُقال له خَلْقٌ، أما الفَطر فلا يكون إلاَّ إيجاداً من العدم، وعلى وجهٍ غير مسبوق، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي هو المُوجد لهما من العدم على مثالٍ غير مسبوقٍ، وقد مدح الله نفسه لهذا الفِعْلِ الذي هو من خُصوصيات الله جلَّ في عُلاه فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ١]، ولذلك فتفسير الأئمة لقوله: ﴿فَاطِرِ﴾ أي خَالِقِ هو تفسير الشيء بما يُشاركه في معناه في بعض وُجوهه لا أنَّه معناه من كلِّ وجهٍ، وهو تفسيرٌ للتقريب.

وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ هو على معنى قوله تعالى في سورة «الروم»: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فالله خَلَقَ من الذكر أنثى، لأنَّ الولد من ماءِ الرجل كما تُبيِّنه الآيات الصريحة وكما أثبتَ ذلك عِلْمُ الأَجِنَّة، فالله يقول في سورة «النجم»: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ۝٤٦﴾ [النجم: ٤٥ ـ ٤٦] فجعل خَلْقَ الذكر والأنثى مِن المنيِّ لأنَّه هو الذي يحدد نوع المولود لا ماءَ المرأة، وقال سبحانه في سورة «الطارق»: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦﴾ [الطارق: ٥ ـ ٦]. فجعلَ أصلَ الخَلْقِ مِن الماءِ الدافِقِ، وهو ماءُ الرجل، هذا مع التنبيه أن قوله في الآية التالية: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطارق: ٧]. لا يعود الضمير المستتر فيها إلى الماء بل يعودُ إلى الإنسان، فإنَّ ماء الرجل لا يخرج من بين الصلب والترائب كما هو منتشرٌ في كُتب التفسير وغيره وفي كلام العَوام، بل الجنين هو الذي يخرج من بين الصلب والترائب، أما ماء الرجل فله مخرجٌ آخرٌ وهو الخصية لا غير، إذ هي مصنعه ومنها يتدفق، أما آية الميثاق في سورة «الأعراف» في قوله

تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. فهذه تخبر عن عالَم الغيب بما لا نعرف كيفيته سِوى ما ورد في هذه الآية وبعض الأحاديث في باب القَدر، ولا علاقة لها بماء الرجل ومخرجه، وبعض أهل العلم فسَّر الآية بفِطرة الله الإنسان على التوحيد، ولذلك قال الحسن البصري: إن الله قال: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ... ﴾ ولم يَقُلْ من ظهره»[1]، وقصده أن ينفي حصول الميثاق لجميعهم في صعيدٍ واحدٍ مع ورود أحاديث في ذلك، ولكن كلّها فيها مقال، وكون ذُريَّة الإنسان من ظهره تثبته الآية لكنَّ الكلام عن الماء الدافق ومخرجه وتكوّنه أمرٌ آخر.

أمَّا قول من قال بأنَّ حواء خُلِقَتْ مِن ضِلْعِ آدم فهو لا دليلَ عليه البتة، بل هو مأخوذٌ من الإسرائيليات، وحين يَنسبُ الله خَلْقَ الأزواج إلى الرجال فهو على المعنى المُتقدِّم، إذ يخلق الله من ماء الرجل أزواجاً للرجال، وقد نسبَ الخَلْقُ إلى الرجال والنساء «الذكر والأنثى» كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وكلُّ الآيات التي فيها أصلُ الخَلْقِ أنَّه من نفسٍ واحدةٍ كقوله تعالى في «النساء»: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء: ١]، وقوله في «الزمر»: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الزمر: ٦]، وقوله تعالى: في «الأعراف»: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩]. فإنَّها على المعنى المُتقدِّم من أنَّ ماءَ الرجل هو ما يخلق به الذكر والأنثى.

---

[1] «تفسير القرآن العظيم» المشهور بـ«تفسير ابن كثير»: ٤٥١/٣ .

وأما الحديث الذي في «البخاري»[1] قوله ﷺ: «**اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاَهُ، إِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ**» فليس فيه نسبة الضِّلْعِ إلى الإنسان، إذ لو كان كذلك لَبَيَّنَهُ رسول الله ﷺ هذا مع أنَّ عِوج ضِلْعِ الإنسان الذي في جنبه ليس في أعلاه لِيُطَبَقَ عليه الحديث، مع ما في رواية التوراة من الخلط الذي تأباه سنن الله تعالى كقولهم فيها: «فَأَوْقَعَ الرَبُّ الإِلَهُ آدَمَ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ، ثُمَّ تَنَاوَلَ ضِلْعاً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَسَدَّ مَكَانَهَا بِاللَّحْمِ، وَعَمِلَ مِنْ هَذِهِ الضِّلْعِ امْرَأَةً أَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ»[2] فإنَّ الأضلاع في الإنسان ليستْ وِتْراً حتى تكونَ ناقصةً بأخذِ هذا الضلع، بل هي ضِلْعٌ في الإنسان، وكمْ في كُتب التفسير مِن الإسرائيليات التي تُرَوَّجُ على العامَّة ويستحسنها الوُعاظ دون نقدٍ وتمحيصٍ.

قوله تعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ تحتمل معنيين، **فالأول** على معنى: يخلقكم؛ أي إنَّ الله تعالى يخلقكم من هذا التنوع في جعلكم أزواجاً، فأنتم نسلٌ بعد نسلٍ، وكذلك الأنعام.

والآخر: أي جعل معاشكم بهذا التنوُّع.

قال ابن جرير: «القولان وإنْ اختلفَا في اللفظ من قائليهما فقد يحتمل توجيههما إلى معنى واحد»[3].

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

لما ذكر الله صِفة الأحياء مِن خَلقه ميَّز ذاته العليَّة عنِ المُشابهة لهم، فهُمْ وإنْ كانوا أزواجاً لكنَّ الله تعالى: «أحد صمد لم يلد ولم يولد» وقال: ﴿ **مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ**

---

[1] «صحيح البخاري»: ٣/١٢١٢/ح٣٢٦١.

[2] «التوراة»، «العهد القديم»: سفر التكوين، اليوم السابع: يوم الراحة: ٢/٢١-٢٢.

[3] «جامع البيان في تفسير القرآن» المشهور بـ«تفسير الطبري»: ٢٥/٨.

﴿مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧٤﴾ [النحل: ٧٤]، وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: ٦٥] وهذا وإنْ كان إنشاءً لكنَّه بمعنى الخبر لأنَّه استفهام بمعنى النفي، وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وكلمة «شيء» هنا نَكرة في سياق النفي، وهذا من صنيع العموم، فهي تعم كلَّ شيءٍ غير الله سبحانه وتعالى، ونفي المُماثلة لأنَّ المماثلة نقصٌ، فكلُّ ما سِوى الله تعالى ناقصٌ قائمٌ بغيره، بل إنَّ ذكر المُفاضلة بين الكامل والناقص نقصٌ كذلك إلاَّ في أبواب التحدي والبيان كقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾ [النمل: ٥٩]، وقوله ﷺ: «..**وَفَضْلُ كَلَامِ الله عَلَى سَائِرِ الكَلَامِ كَفَضْلِ الله عَلَى خَلْقِهِ**»[1]. قال الترمذي فيه: حسنٌ غريب.

ولذلك فأساس ضلال الخَلق هو مشابهة الله تعالى لخلقه، كالذين يزعمون له الولد والزوجة، أو يجوِّزون عليه التعب، وهذا كلُّه من قِياس الباطل، وهو قِياس الغائب على الشاهد.

وقوله: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مفاتيحها، وهو مالكٌ لخزائنها جلَّ في عُلاه، فلا يُعطى عبدٌ منها إلاَّ بأمره كما قال: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾، فهو الفاعل لذلك، وعِلْمُه محيطٌ بكلِّ شيءٍ.

فالله عزَّ وجلَّ أثبتَ لنفسه صِفة الخَلق والإيجاد على معنى النفع للإنسان، وأثبتَ لنفسه صفة القَيُّومِيَّة على الخَلق ومُلكه لهم، كما أثبتَ لنفسه صِفة السمع والبصر والعِلم ونفى عن نفسه النقص والعيب.

---

[1] «سنن الترمذي»: ٨/٢٠٤/ح٣٠٠٥. «سنن الدارمي»: ٢/٤٤١/ح٣٣٥٤ـ ٣٣٥٥. «شُعب الإيمان» للبيهقي: ٢/٣٥٣/ح٢٠١٥ .

وهذه الصفات الحُسنى لربِّنا هي مُوجبات تألُهه، فالإله لا يستحقُ العبادةَ إلاَّ إذا كان ربّاً له صفات الربوبيَّة التامَّة، والله عزَّ وجلَّ هو الربُّ، فهو الخالِقُ والمالكُ والمُدبِّر، وهو السميع البصير العليم، ولذلك هو إلهُ الحقِّ وغيره آلهة باطلة.

والقرآن الكريم كلام الله، مُهمَّته الأُولى هو الحديث عنِ الله العظيم، والكلام عن صِفاته وأفعاله، وهذا هو أعظم الحديث وأحسنه، ولذلك كانت آية الكرسي هي أعظم آية في القرآن لأنَّها حديث عن الله وصِفاته، بل وفيها أعظم الصفات لربِّنا ـ الحي القيوم ـ، وكانت سورة «الصمد» ثُلُث القرآن لأنَّها صفة الرحمن كما وصفها أحد محبيها من الصَّحابة والذين استوجبوا الجنَّة بحبها[1]، والنفوس مُتعلِّقة بما تحبُّ، والعابدون يحبُّون سماع صفات الله وأعماله وأسمائه، لأنَّهم يحبُّونه، ولذلك هم يُديمون قراءة القرآن كما يُديمون ذكر الله، وأساس صلاح الوجود وعمرانه، وصلاح الآخرة وبلوغ أعلى منازلها هو أن تتعلَّقَ القلوب بالله، وأنْ تحبَّ ذِكره على كلِّ حالٍ، ومِن عجائب ضُلال البشر أنَّهم ينشطون نشاط الأذكياء والدارسين فيما يزعمون في دراسة شعر الوصف الذي يقوله العُشاق في معشوقاتهم، ثم هم لِبُغضهم في الدين، ولنجاسة قلوبهم التي لا تتلاءم مع نور القرآن وهديه لا يرون من العلميَّة ولا من النشاط الإنساني العظيم، ولا من البحث المُوجب للمدح أن يعنى بدراسة وبحث كلام الله عن نفسه، مع أنَّ الوجود كلَّه قَدراً وخَلْقاً، وُجُوداً ودَوَاماً إنَّما هو من مُقتضيات صفات هذا الربِّ

---

[1] عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلاً عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لأَصْحَابِهِ فِي صَلاَتِهِ فَيَخْتِمُ بِـ ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭼ فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ «**سَلُوهُ لأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ**». فَسَأَلُوهُ فَقَالَ لأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «**أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ**». والقارئ هو: قتادة بن النعمان رضي الله عنه. ذكره ابن حجر في «فتح الباري شرح صحيح البخاري»: ١٥/٢٩٤. وذكره أيضاً بدر الدين العيني في «عُمدة القاري شرح صحيح البخاري»: ٢/٣٢، ٢٥/٨٢.

«صحيح البخاري»: ٦/٢٦٨٦/ح٧٣٧٥. «صحيح مسلم»: ٦/٧٩/ح ١٨٤٠.

العظيم الجليل، إذ كلما اهتدت القلوب لمعاني هذه الصفات، وكلما كان هُداها مُستقراً فيها كان المرء حكيماً بصيراً مُوَفَّقاً مَهْدِيًّا، إذ لا حدثَ في الوجود إلاَّ وهو من فيض حِكمته وتدبيره، ولا قَدراً جارياً إلاَّ وهو جارٍ على مُقتضى صفاته في القبض والبسط، والمنع والعطاء، والابتلاء والإنعام، ولذلك لا سعادة للقلوب إلاَّ وهي تُدرك جَريان الوجود على معنى الحِكمة والعدل والإحسان، وحين تفقدُ القلوب والعقول هذه المعاني تغزوها أمراض الاضطراب والقلق، فتحوّل حياتها إلى ضَنَكٍ ومشقَّةٍ.

إنَّ الحديث عن أسماء الله وصفاته لتحصيل معاني التعبّد هو الذي يجعل للعبادات النُّسُكِيَّة معناها في تحقيق أهدافها، ولذلك ما تشهده بعض المجتمعات العلميَّة من استغراقٍ في اللفظ لتحقيق معانيه الذِهنيَّة بسبب خصومة المُبتدعة النافين لحقائق الصفات يُذهب الكثير من حقائق التعبّد، وهي المقصودة مِن العلم بهذه الصفات، فالعبد مسعاه أن يحقق درجة الإحسان التي جاء معناها في الحديث: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهِ كأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإِنَّهُ يَرَاكَ**»[1]. وهذا يعني حضور معاني هذه الصفات في القلب في العمل والنظر والسيْر في الأرض، فلا يشهد فعلاً إلاَّ ويشهد معه حُكم الله فيه، ولا يشهد وُجوداً إلاَّ ويشهد خَلق الله له، ولا يشهد حدثاً إلاَّ ويشهد حِكمة الله، كما لا يرى أمراً إلاَّ وهو يرى عاقبة الله له، ولذلك فهو ربَّاني العِلم والحكم والقصد والنظر.

كما أنَّ العلم بصفات الله تعالى يُورث المرءَ حبَّ الله وخشيته، فما من نعمةٍ يراها في نفسه أو في غيره أو في الوجود إلاَّ وهي عَطيَّة الربِّ، وما مِن رحمةٍ يراها في أحدٍ مِن الخَلق إلاَّ وهي مِن رحمةِ الله تعالى وضعها في قلوب عبيده، وهو يُشهد مع هذا رحمته في العُصاة ومغفرته لهم إنْ تابوا وأنابوا، بل من رحمته أن

[1] «صحيح البخاري»: ١/٢٧/ح٥٠، ٤/١٧٩٣/ح٤٦٥٩. «صحيح مسلم»: ١/٣٤/ح٥٩، ١/٤٣/ح٦٣.

يُبدِّل سيئاتهم حسنات، كما يُشهد أنَّ رحمة الله تسبق غضبه، وهو يُعلم من صفاته الجمال والعدل والقدوسيَّة، فيرث بسبب هذا العلم حبَّ الله، بل ولا يحبُّ شيئاً في الوجود إلاَّ وهو يعلم أنَّ ما من سببٍ مُوجِبٍ لحبِّ هذا المحبوب إلاَّ وهو نعمة من الله، فيصبح كلُّ حبٍّ يقع في قلبه مُوجِباً لحبِّ الله تعالى لأنَّه هو مُنعمه ومُيَسِّرُهُ.

كما أنَّه وهو يُشهد صفات الجلال لربِّنا، فهو المُتكبر الجبار، وهو شديد العقاب، كما أنَّه الغني العلي تجعله تقياً عن اقتراف المحارم، بعيداً عما يُوقعه في مُوجبات سخط الله العظيم.

فبهذين الحدين؛ الحبِّ والخشية تستقيم حياة البشريَّة، فلا يطغى أحدٌ على أحدٍ، ولا يَظلم أحدٌ أحداً، كما لا يبغي أحدٌ على أحدٍ، فالعلم بصفات الله تعالى على معنى تحقيق معانيها في القلوب، وحضورها فيها يحقق صلاح الوجود الإنساني كلِّه، فالحدود والشرائع ليست نصباً وهياكل ماديَّة كما تُريدها الدساتير وموادها، بلِ الحُدود والشرائع معاني عبادة كما يقولها واضعها في كتابه الكريم.

فتأملْ كيف تُصاغ أوامر الشرع في القرآن، وكيف تختلط مع معاني الإدراك والتقوى، فلا تكون مجرَّد حدود جامدة، ومواد لا معاني للقلب فيها، اقرأْ إنْ شئت قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ...إلى قوله تعالى: **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾** ﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣].

واقرأْ كيف يُبيِّنُ كلام الرحمن تحريم الخمر وما معها على وجهٍ من معاني العبوديَّة لله تعالى فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ**

﴿وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة: ٩٠ ـ ٩٢].

بهذا العِلم بربِّنا وبأسمائه وصفاته تكون الأحكام عبادة لله، وتكون الشرائع إيماناً، وتكون الحدود صَلاحاً للبشريَّة، وبغير ذلك فلا يحقُّ أن يُنسب حُكْمٌ ولا شرعٌ ولا حدٌّ إلى الله وإلى الإسلام إن فَقَدَ هذا المعنى، ومن دعا لشيءٍ من ذلك خارج معانيه فلا يستحقُّ أن يُقال له إنَّه داعٍ إلى الله، أو داعٍ إلى الإسلام، لأنَّ الظواهر بمعانيها، والهياكل بألبابها وحقائقها.

قوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣].

لما جعل الله سبحانه الحُكم له وحده كما تقدَّم، فإنَّه سبحانه وتعالى شرع لهؤلاء الرسل الذين جاءوا قبل النبي محمد ﷺ ثمَّ جاء الرسول على سُننهم كما قال في صدر السورة ديناً يخضعون له ويدعون أقوامهم له، وهذا الدين واحدٌ لا اختلاف فيه عُمدته الخضوع لأنَّه دين، ومُقتضى هذا اللفظ، أن يَدِينَ النَّاس له ويخضعوا له، وقَوامه في الحياة بينهم أن يجتمعوا عليه ولا يتفرقوا فيه.

وفي هذه الآيات أمورٌ عظيمةٌ منها: أنَّ الحُكم دينٌ، وأنَّ تشريعَ الأحكام يعني الدخول في دين المُشرِّع، ولمَّا كان الدين عبادة كان التشريع عبادة، والتشريع هو إطلاق وصفٍ من أوصاف الحُكم الخمسة على عمل، فتسمية الشيء حلالاً ورفع حُكم الحُرمة عنه تشريع، وكذلك تسمية الشيء حراماً ورفع حُكم الحلِّ عنه تشريع، فالله عزَّ وجلَّ هو المُشرِّعُ الحقُّ، فمن خضعَ لشرعه فقد عبده حقَّ عبادته، ومن رفضَ شرعه فقد كفرَ به وخرجَ من وِلايته، ولذلك فإنَّ اتخاذ المُشرِّعين الذين يطلقون وصفَ الحلِّ والحُرمة على الأشياء يعني اتخاذهم آلهة

يُعبدون، لا فرقَ بينهم في ذلك وبين عبادة الناسكين للآلهة الباطلة من حجرٍ وغيره.

ولذلك فقَصْرُ معنى الدين على الاعتقاد كما يقول به الجهلة والمُبتدعة هو سلبٌ لحقيقة الدين، فإنَّ المرءَ لا يُوصف بأنَّه مسلمٌ إذا دانَ اعتقاداً بالإسلام ثمَّ دانَ لشرعٍ غير الإسلام، لكنَّ الحال اليوم هو أنَّ وصف الدين يُطلق على النَّاس باعتبارات تُراثية أو نَسبيَّة دون تحقق وصف الدين في صاحبه، بل إنَّ بعضهم يرى أنَّ هذا الوصف لا يتغيَّر ولا يزول عن صاحبه حتى لو نقضَ أُصول دينه الذي يَنتسبُ إليه حجراً حجراً، وهو ما يفعله طواغيت اليوم من الخضوع لأديان جاهليَّة شيطانيَّة، ويحتكمون لغير حُكْمِ الله، ويُسمُّون الحرام الشرعي في اختياراتهم وتشريعاتهم بالحلال، ويجعلون الولاية بين النَّاس على أُسسٍ تنقضُ أُسسَ الإسلام وأحكامه، ومع ذلك فإنَّ الضالين لا يرون في شيءٍ من هذا ناقضاً لوصفِ دين الإسلام فيهم، بل يُصرُّون على وصفهم بالمسلمين كذباً على الله وعلى رسوله وعلى المسلمين.

أما قوله تعالى: ﴿ وَصَّيْنَا ﴾ فهو مِن أعظمِ الأدلّة على أنَّ هذا لا اختيارَ للمرءِ فيه، وأن نقضه مُوجِبٌ لنقض العبادة والدخول في الطاعة، لأنَّ لفظ «وَصَّىٰ» لا يعني الاستحباب كما يظن بعضهم ، فإنَّ الله تعالى قال هذا اللفظ وهو يدعو لتوحيده كما قال في سورة «النساء»: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ ﴾[النساء: ١٣١]. فجعل سبحانه ترك وصيَّة الله كُفْراً.

وفي سورة «الأنعام» نهى الله عن أعظم المحرمات بلفظ الوصيَّة فقال سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ...إلى قوله تعالى: وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥١ـ١٥٣].

وفي هذه الآية بيانُ أنَّ قِوام الدِّين وأوامره وشرائعه وعقائده لا تكون إلاَّ بعدم التفرُّق، لأن التفرّق يوهي قيامه، فهو إذ يضعف أهله لا يستطيعون حمله لانشغالهم بالتصدُّع الحاصل فيهم، كذلك هو يُعطي الحجَّة للمُخالفين بأنَّ حقائق ما يدعون إليه مُضطربة ومُتهاوية وإلاَّ لم يحصلِ التفرُّق بين أهلها، وكذلك قالوا: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ فالتفرُّق ليس عامل تنوُّع ممدوح كما يزعم الضالون بل هو سبب لضعف الدين وعدم قيامه، والناظر إلى أعداء الإسلام والزنادقة فيه يراهم يجتمعون بهذا التفرُّق في عدم وضوح الدين، فيقولون: إلى أي إسلام تدعون؟! إذ ليس هناك إسلامٌ واحدٌ بل عِدَّة وقائع كلٌّ منها يدَّعي أنَّه الإسلام، كذلك كان التفرُّق سبباً في التنازع الذي أدَّى إلى جعل المسلمين في كلِّ مكان أقليَّة، مقابل إتقان الباطل واتحاده، فأنتَ لا تجد مكاناً إلاَّ وأهل الحقِّ ضِعافٌ بسبب نُزوع مخالفيهم من مذاهب الضلال إلى البراءة منهم، بل تجدهم على استعدادٍ لتولي الكافرين والمُشركين بدل أهل الحقِّ والدين، ولذلك كانت فِرق الضلالة في الإسلام وفي حروبه ضدَّ أعدائه أشدَّ على المسلمين من الكافرين أنفسهم، بل لم يكُن للكافرين سبيل على المسلمين إلاَّ بسبب هذه الفِرق الضالَّة التي خرجت عن جادَّة الكتاب والسنَّة والتحقتْ بدين الشيطان مع بقاء استتارها بشعار الإسلام العام.

ولذلك ففي هذه الآية بيان مصدر الدين، وهو مصدرٌ معصومٌ لا ضلال فيه ولا هوى، وفيه كذلك بيان قيامه في الأرض، وهو اتفاق أهله عليه، إذ لا يكفي أن يكون الدين حقَّاً حتى تقوم عُمُده في الأرض ويستقرَ وجوده على معنى التمكين، بل هذا شيءٌ وهذا شيءٌ، فالدين وإنْ كان حقَّاً في نفسه إلاَّ أنَّ وجوده في الأرض يعتمد على عمل أهله فيها وعلى وجهٍ يُوافق سُنن الله تعالى في المُدافعة والصِّراع.

ولذلك ففي كثيرٍ من حلقات الصراع مع الباطل يكون الابتداء في رأب[1] تصدع الداخل قبل الصدود إلى الخارج، ولكن قد يتماهى في بعض حلقات التاريخ العدو الداخلي مع الخارجي، ولا يمكن الفصل بينهما فتُصبحُ المُواجهة شاملة لكليهما، لكن إذا أمكن البناء الداخلي بالقضاء على الفُرقة، وإزالة المُنافقين، ومذاهب الباطل قبل الخروج إلى الآخرين فهو الطريق الحسن الممدوح.

والتفرق والاختلاف في الدين لا يكون حقاً أبداً، ولا يكون ممدوحاً بوجهٍ من الوجوه، وكل مَن حاول تحسينه أو إضفاء الشرعية عليه فهو كاذبٌ مُفْتَرٍ على الله وعلى رسوله، لأنَّ التفرق شرٌّ كما قال ابن مسعود رضي الله عنهما، والله نهى عن التنازع والاختلاف، وتاريخ الإسلام يشهد أن هذا الاختلاف كان عامِلَ إضعافٍ داخليٍّ، وصراع مذموم وصل إلى درجة الاقتتال بين النَّاس حتى على مسائل فرعية، ولو نظرتَ اليوم إلى الفقهاء الجُدد الذين يفتون بالباطل، ويقولون بالشرِّ، ويسيرون بالباطل ومع الباطل ضدَّ الحقِّ وأهله إنما يستندون إلى جواز التفرق في الدين، وابتداء هذه الزندقة هو تصويب المجتهدين كما قال ابن تيمية[2]، فحين جوَّزوا الاختلاف ابتداءً، ثم صوَّبوا كلَّ قول يقوله عالم جوَّزوا لأنفسهم بعد ذلك الاختيار بين هذه الأقوال على جهة التشهي والهوى تحت دعوى التسهيل حيناً، أو مُلاءمة العصر والأحوال، وهي أصولٌ ضالَّة لا تمت إلى عالِمٍ من علماء المسلمين الماضين المشهود لهم بالعلم والتقوى.

وكذلك تفرُّق المسلمين في جماعاتهم وأحزابهم وشِيَعهم كان سبيلاً لتنمية الخلاف بينهم حتى وصل لدرجة الاقتتال والدماء، ولم يرث أحدهما الآخر، بل ورثت الجميع الجاهليَّة وأعداء الأُمَّة، ثم إن دخول أهل الدين في أحزاب الجاهليَّة

---

1 رأب :ـ أصلحَ ، وكذلك الرأب :ـ الجمعُ والشَّدُّ
2 انظر : «مجموع فتاوى ابن تيمية» : ١٩/١٢٩و١٥٥ .

كان سبباً في اتخاذهم أسلحة ضدَّ إخوانهم الآخرين، كما أضفى الشرعيَّة على هذه الأحزاب الجاهليَّة الكافرة.

ولذلك فالواجب هو العمل بكتاب الله؛ وهو أن يُردَّ الحُكم إليه في الخلاف، وأن يُردَّ الاختلاف بين النَّاس في القيادة والإمرة إلى حالٍ واحدٍ لا تعدُّد فيه، فهم في دينهم واحد، وفي أمرهم وسبيلهم واحد، ولهذا الحالُ هو الحال الوحيد الذي يتحقق فيه قيام الدين.

ومع عدم جواز الاختلاف أصلاً إلاَّ أنه قَدَرٌ لاَزِمٌ للإنسان ككلِّ المعاصي التي تحدث منه كما قال رسول الله ﷺ: «**كلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاء، وَخيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**»[1]، ولقوله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ**»[2]، فإنه لا يحصل خلاف إلاَّ لضُعفٍ في العلم، ومَن تأملَ أسباب اختلاف العلماء عَلِمَ هذه الحقيقة، ولذلك فذِكْرُ أسباب اختلاف العلماء ليس مُبرراً للخلاف، لكنَّه يُعذر العلماء في خلافهم، وفرقٌ بين التبرير الذي يُؤدي إلى الإقرار وبين الإعذار، فالخطأ خطأ ولا يجوز أن يُسمَّى بسبب عُذر صاحبه صواباً كما يفعلُ النَّاس اليوم وهم يسوقون أسباب اختلاف العلماء في مسائل العلم، وإعذار العلماء في الخطأ لأنَّ النبي ﷺ قال: «..**وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**»[3]، وهذا محمول على من له صلاحيَّة الفتوى واستفرغَ وُسعه في إصابة الحقِّ من دليله.

---

[1] «سنن الترمذي»: ٢١٣/٧/ح٢٥٤٧ . قال المُنذري في «الترغيب والترهيب»: ٤٦/٤/ح٤٧٥٠ . بعدما أن أورد الحديث: »«رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم كلهم من رواية علي بن مسعدة، وقال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن مسعدة، عن قتادة، وقال الحاكم: صحيح الإسناد»اهـ. ورواية الحاكم من طريق أنس.

[2] «صحيح مسلم»: ٥٨/١٧/ح٦٩١٤ .

[3] «صحيح البخاري»: ٧٦/٢٦/ح٧٣٥٢ . «صحيح مسلم»: ١٢/١٢/ح٤٤٤١ .

وهذا التقدُّم اللازم في حُصول الخطأ يجب إصلاحه وذلك بأمور، **أولها**: أن يبقى الاعتقاد قائماً أنَّ الحقَّ واحدٌ، ويجب بذل الوُسع في الوصول إليه، لا على معنى التخيُّر كما يُريده الفقهاء الجَهلة المُعاصرون، بل عن طريق قوله تعالى: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ١٠].

ثانياً: أن يبقى باب النظر والاجتهاد والمُناظرة مفتوحاً للوصول إلى الحقِّ، ومن معاني هذا الباب أن يُشدَّ النكير على الأقوال الضعيفة المرجوحة، ويُعاب على قائليها بما كان يُعاب على قائليها قديماً، فلا يُتخذ وُجود الخلاف عُذراً لأحدٍ في تقليد الأقوال الشاذة التي مضتْ على وجه النكارة مِن قِبل القُدماء، وأعظم ما يُعمل في هذا الباب هو صِيانة باب الإجماع، وأن يُعمل باستصحاب الإجماع، لا كما يفعلُ بعضهم مِن الطعن في حقيقته ابتداءً، فإنَّه مما تقرر في الأُصول أن يستصحب الإجماع حتى يثبت وجود المخالف، أمَّا أن تُتخذ عبارة الشافعي وأحمد: «مَن ادعى الإجماع فقد كذب فلعلَّ النَّاس اختلفوا» حجَّة لكلِّ أحدٍ في طعن الإجماع قبل تحقق وجود الخلاف فهذا فعل جاهل يأتيه ويطرقه المحدثون كثيراً لفتاوى باطلة جاهلة، بل إنَّ كثيراً ما تُنسب أقوالٌ إلى ماضين من العلماء، وأنَّها مذاهبهم وليست كذلك كما يَعرفُ ذلك كلَّ من عانى هذا الباب ودرسه حقَّ دراسته.

ثالثاً: لقد كان التاريخ دوماً عاملاً سلبيَّاً في الاختلاف، إذ أنَّ زاوية الانحراف في كلِّ تفرقٍ تبدأ يسيرة ثم تزداد انحرافاً، فتبعُد الشقَّة بين الفريقين، فمَن تأملَ مسائل الخلاف بين الصحابة لَوجدها معدودة جداً، وقد حصرها بعض أهل العلم، وهي مسائل مضى الكثير منها إلى وجه الاتفاق كالصرف والمُتعة وعِدة الحامل المُتوفى عنها زوجها وبيع أمهات الأولاد وغيرها، ثم مضت الأيام وزادت الأقوال وكثر الاختلاف، ودخل الاختلاف في الدين والإيمان والتوحيد، وحيث كان الاختلاف يسيراً بين الصحابة إلاَّ أنَّهم كانوا يُنكرونه ويغضبون له،

ويسعون إلى حَلِّه، ومن رأى مُراجعة زيد بن ثابت لعمر في مسألة ميراث الجد والإخوة علم شِدَّتهم في إنكار هذا الاختلاف، وكذلك محاورة عمر وبلال رضي الله عنهما في سواد العراق وغنائم الأرض، وشَدَّة علي رضي الله عنه في ردِّ قول ابن عباس رضي الله عنهما في المُتعة، وإنكار ابن مسعود وغيره رضي الله عنهم على عثمان في مسائل في الحج كإتمامه في مِنًى، وعلى إنكارهم على عمر في منع متعة الحج، والعجب لما زاد الاختلاف وصار في أصول الدين والإيمان وُجِدَ مِن النَّاس مَن يُبهره ويستحسنه ويدعو إلى التعامل معه وكأنه طاعة وليس معصية يجب إصلاحها والتوبة منها.

أقول: بدخول الزمن زاد الاختلاف، ولذلك فمِن أعظم سُبل ردِّ الاختلاف هو العودة إلى ما كان النَّاس عليه قبل الاختلاف وهو ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم، وهذا قدرٌ جامعٌ لكلِّ المسلمين إلاَّ لقومٍ من الزنادقة لا يرون الصحابة شيئاً، وهؤلاء يهود هذه الأمة ديانةً وواقعاً، فهم بلاءٌ يُداوى ويُعالج بما أمر الله من معالجة كلِّ بلاء لهذه الأُمَّة.

رابعاً: مع عدم إقرار الخلاف في الدين، ووجوب مُعالجته وإزالته إلا أنَّه إنْ وُجِدَ على وجهٍ مِن وُجوه القَدر كما تقدَّم فلا يجوز أن يُتخذ مطيَّة للافتراق في قيام الدين، فهذه أُمَّة واحدة لا يصلحها إلاَّ الوحدة، كما لا يكون لها بقاءٌ إلاَّ باجتماعها، ولعلَّ المُتأمل لكتاب الله تعالى في عيبه على المُشركين وفي وعظه للمؤمنين بعدم تقليدهم ولا مُتابعتهم إلاَّ أنَّ أمراً واحداً قد نبهنا إلى العناية به وهو قوله تعالى في سورة «الأنفال»: ﴿ **وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ** ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٧٣]، وهذه الآية جليَّة في وجوب الاجتماع على صعيدٍ واحدٍ مِن الإمْرَةِ والقيادة والعمل، فليس المقصود بها الاجتماع العلمي على الحقِّ، لأنَّ الكافرين ليسوا كذلك، فهم على الباطل، وهم متفرقون في باطلهم ودينهم، لكنَّهم مجتمعون في صعيدٍ واحدٍ وعملٍ

واحدٍ، وهذا ما نبهنا القرآن إلى الأخذ به، وبيَّن فيها سبحانه وتعالى أنَّ فُرقة الأبدان والقيادة عمل ووسيلة للشرك ومعانيه من الضلال والانحراف بقوله: ﴿تَكُن فِتْنَةٌ﴾ ووسيلة للفساد العملي وأهونه الاقتتال إذا تحصَّل الفريقان وسائله.

وعُظماء الرجال والعلماء والفقهاء هم من قدَّروا في اختلافهم في باب لم يقدروا على دفعه علماً أن يكونوا إخوة وأحبَّة ويداً واحدةً كما فعلَ ابن مسعود رضي الله عنه وقد أنكر على الخليفة الراشد ذي النُّورين إتمامه الصلاة في مِنًى إلاَّ أنَّه لمَّا قام يُصلي خلفه صلى بصلاته أربعاً، فلما رجع قال: الخِلاف أشدُّ.

وهذا الذي قاله الإمام الشافعي كما روى عنه صاحبه محمد بن يونس الصدفي حين تناظرا في مسألة فاختلفا، فلما لقي أحدهما الآخر في الغد قال الشافعي: لا يمنعنا أن نختلف في مسألة أن نكون أحبَّة، فقال الصدفي: «ما رأيتُ أعقل من الشافعي»[1]، وهذا يدلُّ على عِظَم هذه المرتبة في الوجود مع نَدْرَتِهَا حتى في زمن السابقين.

والنَّاس قد يُعذرون بسبب الخلاف العلمي في مسائل الاجتهاد لاشتباه هذه المسائل على العلماء بل العامّة، لكن لو تأملتَ الخلاف بين الأحزاب والطوائف والفِرق العاملة للإسلام لَوجدتَ أنَّ الكثير من الأسباب تعود إلى الهوى والعصبيَّة والجهل واتباع الغَوغاء، فهذا الافتراق غير مبررٍ بحالٍ، وهو باطلٌ لا دليلَ لمحتجٍّ عليه، لكنَّ الهوى والباطل يقنع من قبل أهله بقِناع الدليل، وهذا أمر يُتقنه كلُّ أحدٍ حتى الأطفال، لأنَّ التبرير فنٌّ إنسانيٌّ، ولا يَتقيه إلاَّ العلماء الصالحون.

خامساً: وللتقريب بين النَّاس للوصول إلى السَّداد أوِ المُقاربة فيه ينبغي التفريق بين مسائل الاجتهاد ومسائل الخلاف، لأنَّ الخلط بينهما فتح باب عذرٍ لضعافِ

[1] «سير أعلام النبلاء»: ٨/٣٧٧.

الإيمان والتقوى، وللجهلة كذلك للقول على الله بغير عِلْمٍ، وللفتاوى الجاهلة، حيث ظنُّوا أنَّ كلَّ مسألةٍ حدث فيها الخلاف بين الأقدمين هي مسألة اجتهادية يسع النَّاس فيها الخلاف، أو أنَّ أدلَّتها مُشتبهة، وهذا جهلٌ، لأن كثيراً من مسائلِ الخلافِ وقعتْ بسبب ما ذُكر في كتب إعذار العلماء في وجود هذا الاختلاف، وأشهر أسبابه هو غياب النصِّ عنِ الفقيه، فيضطر أنْ يجتهد فيُخطئ ويخالف، ولو أنَّه هو صاحب هذه الفتوى أُعْلِمَ بالنصِّ لَرجع عن قوله كما فُعِلَ في كثيرٍ من المُناظرات بين العلماء كمناظرة مالك لأبي يوسف في المدِّ والصَّاعِ فلما تبيَّنَ له الدليل قال: لو عَلِمَ صاحبي؛ ويقصد أبا حنيفة، لَرَجَعَ كما رجعتُ، وكما رجع أبو عُبيد بن القاسم عن مسألة بيع بيوت مكَّة لَمَّا ناظره الشافعي فيها وهكذا، والمُعاصرون إذ يصرخون بكُتب الإعذار ككتاب ابن تيمية المُسمَّى: «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» إلاَّ أنَّهم لا يستفيدون منها إلاَّ على وجه الخطأ وذلك بإقرار الخلاف وتجويزه شرعاً، ولو تأملوها على حقيقتها لَعلموا أنَّ مِن فوائدها بعد إعذار المُختلفين هو إزالة أسباب الاختلاف التي يمكن تحقيقها وذلك بعد العلم بها.

فلا يجوز أن تُعتبر كلّ مسألةٍ خلافيةٍ مسألة اجتهاديَّة مُشتبهة، فإنْ جاز اضطراراً الخلاف في المسائل المُشتبهة إلاَّ أنه لا يجوز الإفتاء بمسائل بَانَ فيها النصُّ لتابع المفتي بحجَّة أنَّها مسألة اجتهاديَّة.

واليوم يتوسع الفُقهاء الجُدد في هذا الباب على وجهٍ وصلوا فيه إلى حدِّ الضَّلال كما قال الأقدمون: «لو أخذتَ بزلَّة كلِّ عالمٍ تجمَّع فيك الشرُّ كلُّه» إذ صار هؤلاء إلى تجميع الأقوال الضعيفة التي تُسْقِطُ التكليف تحت باب التيسير حتى صار دين تابعيهم في الامتثال والطاعة كالثوب الرقيق.

سادساً: وإنَّ من مُهمَّات المُجددين اليوم هو إعادة الجدَّة لأُصول الأقدمين في الاجتهاد، إذ دخل على أُصول الفقه بفعل الفقهاء الجُدد المحدثين الكثير من

الأجنبي، وعامَّة أُصولهم تقدَّم على تعطيل النَّص الشرعي؛ أي الكتاب والسنَّة، فضوابطهم التي جاءوا بها لتعطيل النصوص ضوابط ضالَّة مُنحرفة، إذ صارت المصلحة الشخصيَّة، والهوى، والنظر النفسي، والتشهِّي الذاتي، وأمزجة المُستفتين، وكراهية الحُكام والكفار للحقِّ وغيرها الكثير ضوابط عند هؤلاء تمنعهم من اتِّباع النَّص الشرعي، فيدورون حوله تعطيلاً أو تأويلاً على طريقة الضالِّين الأقدمين.

فالدِّين لم يَعُدْ اتِّباعاً وامتثالاً، بل صار انتقاءً بما يُوافق الرأي والشهوة، ولو تأملتَ قواعد المُفتين المُعاصرين في فتاويهم لَوجدتَ أنَّهم يُصرِّحون بالضلالات في مصدر ما يفتون به، فهم يُصرِّحون حيناً بأنَّ العصر لا يُلائم هذا النَّص، ومرَّةً يقولون: هذا الأوفق والأيسر لأهل هذا الزمان، وأخرى يُعلنون: بأنَّ هذه الفتوى تحبب غير المسلمين بالإسلام، وأمثال هذه القواعد الضالَّة، وهذه في حقائقها موانع الاتِّباع في كلِّ عصور التاريخ.

سابعاً: لقد ظُلمت المذاهب الأربعة المُتَّبعَة من قِبَلِ فريقين، مِن أصحابها لجهلهم بأُصولها وأخذهم إيَّاها على جهة التقليد الأعمى دون إدراكٍ لطُرُقِ الاجتهاد عند أئمتها، كما ظُلِمَتْ مِن قِبل خُصومها المُعاصرين الذين زعموا قيادتهم لفتح باب الاجتهاد، وإنَّه من أمانة التاريخ أن نقول إنَّ الدعوة إلى كسر احتكار الفتوى بالمذاهب الأربعة في العصر الحديث إنَّما قام بها مَن سُمُّوا لاَحِقاً بالعقلانيين، سواء بالمشرق أو المغرب، أقصد في المغرب الإسلامي الذي يُقابله المشارقة من أهل الشام والعراق والجزيرة العربية، وها هنا يجب التفريق بين دعوات التجديد التي كان يقوم بها العلماء المُصلحون وبين دُعاة فتح باب الاجتهاد على أساس المصلحة والتي اقترنتْ بعدم الاقتصار على المذاهب الأربعة المُعتبرة، ولو تأملتَ تاريخ الاعتناء بكتب العلماء الذين لهم نهمة الاجتهاد من السابقين ككُتب الشاطبي لَوجدتَ هذا بيِّناً، والعيب ليس في هذه الكُتب، بل

هي كُتُبُ عِلْمٍ عظيمةٌ لا تكتمل أدوات العلم عند طالب العلم من المُعاصرين إلاَّ بفقهها، لكنَّ المُصيبة في الاستغلال المُنحرف لها، وشأنها في ذلك شأن الاعتناء بـ«مقدّمة ابن خلدون» عند القوميِّين واليساريين، فالمقدِّمة إنتاجٌ إسلاميٌّ عظيمٌ لكنَّ الاستغلال لها هو الانحراف وذلك على قاعدة: كلمة حقٍّ أريد بها باطل.

وأساسُ تدمير المذاهب الأربعة والانفلات خارجها بلا عِقَالٍ ولا ضوابط ما قام به سليمان القانوني الخليفة التركي من إصلاحات ـ زعموا ـ تشريعيَّة خارج قواعد الشرع، وها هنا بدأتِ الطامَّة، فبدأ الاهتمام بتقعيد هذه الدعوة من داخل قواعد الشرع، وهي لعبة أدركها أعداء الإسلام والزنادقة من هذه الأُمَّة وسار فيها المُغفلون النافعون لهم بلا عقلٍ ولا هدايةٍ وهي: تفجير الإسلام من داخله، بل وتفجير الإسلام بالإسلام نفسه كما قال محمد عبده وشيخه الأفغاني.

نعم ساعدهم على هذا تلك الظُّلمات التي وصلَ إليها العلماء المُقلدون لهذه المذاهب، وجهالاتهم بالقرآن والسنَّة وأُصول الفقه، واقتصارهم على حِفْظِ المُتون والانصهار داخلها، والشرُّ لا يُثمر إلاَّ في بيئةِ الجهل، كما هو حال الدَّاعين إلى تحرير المرأة!!، أي من الإسلام، فإنَّه ما كان لجهودهم أن تُثمر إلاَّ بسبب الأوضاع الظالمة والمُظلمة لواقع المرأة في المجتمعات الإسلاميَّة، وهكذا الأمر في الدعوات إلى فتح باب الاجتهاد وتجاوز المذاهب الأربعة المُعتبرة، والمرء لا يقول أبداً إنَّ الحقَّ كُلَّه في هذه المذاهب، ولكن مَن درسَ الفقه حقَّ دراسته، وعَلِمَ أُصول الفقه وطُرقَ الأقدمين في التصحيح والتضعيف والصناعة الحديثيَّة عَلِمَ أنَّ الحقَّ لا يكاد يخرج عن هذه المذاهب، والمرء يقول هذا وقد مرَّ في كلِّ الظروف، ووقفَ على كلِّ الدعوات، وراقبَ ما عليه النَّاس في هذا الباب.

إنَّ هذا التساهل الذي نراه في ردِّ المذاهب الأربعة مِن قِبل الصغار والجهلة وأصحاب الفتاوى الضالَّة تساهلٌ آثمٌ، مَبْنَاهُ على الجهل، والمرء لا يريد أن يتحدّث عن آثاره النفسية من التعامل والغثاثة، ولا على الكِبر والغُرور، ولكن

يكفي أن ترى اليوم واقع الفتوى المُنفلتة عن عِقَالِ الدين والتقوى والعلم والأُصول ولا يقدر أحد أن يقول لهؤلاء لقد خالفتمُ الأئمة الأربعة، لأَنَّه لو قال أحدهم هذا القول لاستُهزئ به ورُمي بالتقليد والجهل، فكيف يضبط هؤلاء وهم يزعمون الاجتهاد وعدم التقليد، بل مِن العيب أن يقول أحدهم قال الشافعي أو قال مالك أو قال أبو حنيفة.

ولذلك من الدين اليوم، بل ومن التجديد للفقه، ومن باب ردِّ جهالات الفتاوى الضالَّة، ولضبط هذا السُّعار السائر تحت اسم الفتوى أن ينشطَ أهل العلم الأتقياء لإحياء معالم المذاهب الأربعة، وبيان أُصولها العلميَّة لأنَّ هذه المذاهب هي المذاهب الوحيدة التي أخذت قدرها من تحقيق قواعدها، وأقوال أصحابها، ومَن تأملَ ما ينقله ابن حزم رحمه الله من أقوال لغير أصحاب هذه المذاهب، وهو أوسع الكُتب في هذا الباب في كتابه «المحلى»، عَلِمَ أنَّ كثيراً من هذه النسبة لا تصح ولم تحقق.

وكذلك من الدين والتقوى أن يَعلمَ المسلمون اليوم أنَّ مخالفة ما اتفقت عليه هذه المذاهب من أقوال ليس بالأمر الهيِّن، ولقد كان أئمة الدين والعلم في زمانهم لا يصدرون إلى هذه المُخالفة إلاَّ بعد جُهْدٍ جَهيدٍ، ومَن تأملَ حالَ ابن تيمية مع مسألة الطلاق الثلاثي في لفظٍ واحدٍ وكيف كان أمره هو فيها قبل غيره مِن المُخالفين لَعَلِمَ أنَّ ما يفعله المُفتون مِن الجُرْأَةِ المُخالفة لا يمتُّ إلى العِلم والتقوى بصِلَةٍ، هذا مع أنَّ الشيخ لم يُسلِّم له في هذا مَن هو على غَرْزِهِ في العِلم كابن رجب، بل من قرأ كلام ابن القيم في «إعلام الموقعين» في هذه المسألة وغيرها مما خُولف فيها عَلِمَ أنَّ الأمر ليس بهذه الغثاثة التي يتعامل بها المُعاصرون في ردِّ المذاهب الأربعة.

وكذلك مِن العلم أن يَعلمَ المسلمون أنَّ الأمراض لا تُعالج بالأمراض، فالجهل لا يُعالج بالتقليد، لأَنَّهما كليهما مرضٌ، والتعصب لا يُعالج بالانفلات لأنَّ

كليهما شرٌّ، فالدعوة إلى ردِّ الاعتبار للمذاهب الأربعة ليست دعوةً للتقليد المُتذهب والتعصب، لكنَّها دعوةٌ للعلم وردِّ الأمر لأهله.

هذه الدعوة إلى ردِّ الاعتبار إلى المذاهب الأربعة ومعرفةِ أُصولها وقواعدها حتى لا يُخرج عن أقوالها إلاَّ بأدلّةٍ قويَّة خاليةٍ عن المُخالفة المُعتبرة لا تخالف ما تقدَّم من الدعوة إلى العودة إلى أقوال الصحابة لِقلَّة الخلاف بينها، فإنَّ الدَّاعي إلى ردم الهُوَّة بين النَّاس لتقليل الخلاف لا بدَّ أن يضع خطوطاً وراءَ أُخرى، كلّ واحدةٍ تُقرِّب ما بَعُد بين النَّاس.

ثم هذا الذي تقدَّم أكثره في غير نوازل العصر، وبعضه يُعمل في ضبط فتوى النوازل والحوادث، ومعرفة قواعد الأقدمين، وإدراكها على بصيرةٍ حتى تصبح مَلكة في النفس تجعل الفتوى في النوازل أقرب إلى الحقِّ، وما جهالات الفتاوى الضالَّة في النوازل إلاَّ بسبب غياب هذه القواعد، وبسبب ما تقدَّم من وضع الشروط والموانع الكثيرة التي تُعيق العمل بالنَّصِّ والفتوى به.

وختام الأمر أن يُعلم أن غِيابَ الفتوى، واتِّباع الهوى، ونِسيان الدار الآخرة، والدخول في هوى السلطان، والخوف من غير الله، والخَشية من ذهاب المنصب أو الطمع فيه، كلّ هذه عوامل شرٍّ لا يصلحها إن تلطخ بها المفتي قواعدُ عِلْمٍ ولا أصولُ فقه ولا بصرٌ بالحقِّ، وهذه هي أُسس الفتاوى الضالَّة اليوم، حيث ترى أنَّ مشاهير الفقهاء هم خَدَمُ سلطة ودولة، ورجال حكومات مُرتدَّة، ولا يتصدى لفتوى النَّاس اليوم إلاَّ هؤلاء المشاهير، لأنَّ النَّاس يعرفونهم دون غيرهم، ولأنَّ أقوالهم تُذاع وتُعلم، ومن خرج عن هذا فهو مُتَّهَمٌ إنْ عُرِفَ، وإلاَّ فهو مَغْمُورٌ مَسْتُورٌ، ولذلك وقع حديث النَّبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ**

انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ. وَلكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ. حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِماً، اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُساً جُهَّالاً، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ. فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[1].

ومِن البلاء في هذا العصر أنْ يَزِيدَ الخلاف فيخرج عنِ المسائل العلميَّة إلى وجود جهالات في مشاهير هؤلاء المُفتين في التوحيد وما يُضادّه، وهذا أصلُ الدين وأُسُّهُ الذي لا يقوم إلاَّ به، ومع ذلك تجدُ الجهل بهذا الأصل، حتى سُمِّي غير المسلم بالمسلم، وصار المُرتد كمُسيلمة بل أشدّ منه يُوصف بأوصاف الدين والتقوى والصلاح، وقالوا للزنديق سيداً، وصار قِتال المرتدين والناكثين كبيرة، ولم يَعُدْ مُوالاة الكفار كفراً، ولا التشريع على خلاف الكتاب والسنَّة رِدَّةً، وخُطِبَ على منابر المسلمين بمدح أكابر المجرمين وأعداء الدين، ودُعِيَ عليها لمن هو أكفر من أئمة العُبيديين بطُول البقاء والنَّصر على أعدائهم[2]، وليس لهم أعداء إلاَّ طائفة الحقِّ والجهاد الشرعي، فيالله كم عاد الدين غريباً كما بدأ، غير أنَّه كان للأولين مِن الغُرباء أنصارٌ، وليس للآخرين ذلك، فطوبى لهم.

قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

هذه صفة الحقِّ في القلوب المُظلمة، فهو ثقيلٌ عليها، فهي لا تحبُّه ولا تتبعه، ولا تحبُّ أتباعه كذلك حسداً وحِقداً كما قال تعالى عن يهود: ﴿**بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾**﴾ [البقرة: ٩٠].

أما المؤمنون فيفرحون به كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ [محمد: ٢]، وقد بكتْ أُمُّ هانئ رضي الله عنها لما زارها الصاحبان الراشدان أبو بكر

[1] «صحيح البخاري»: ١/٥٠/ح١٠٠، واللفظ له. «صحيح مسلم»: ١٦/١٩٢/ح٦٧٤٧.

[2] للشيخ حفظه الله تعالى رسالة نفيسة في هذا الموضوع، والموسومة بـ: «**فتوى خطيرة عظيمة الشأن في حُكم الخطباء والمشايخ الذين دخلوا في نُصرة وتأييد المُبدِّلين لشريعة الرحمن**». طبعتها «النور للإعلام الإسلامي» بالدانمارك عام ١٤١٦ـ١٩٩٥م، وهي متوفرة على موقع: «منبر التوحيد والجهاد» على الشبكة العنكبوتية.

وعمر رضي الله عنهما بعد وفاة رسول الله ﷺ فظنَّا أنَّها تبكي حزناً على رسول الله ﷺ فقالا لها: مَا يُبْكِيكِ؟ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ. فَقَالَتْ: مَا أَبْكِي أَنْ لاَ أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ . وَلكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ. فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ. فَجَعَلاَ يَبْكِيَانِ مَعَهَا»[1].

ومناسبة ذِكر هذا الأمر، وهو كراهية وضيق الكافرين في سياق قيام الدين ووحدة المسلمين فيه وعليه ظاهرٌ لمن تأمله، إذ قد جاء في آياتٍ كثيرةٍ منازعة الكافرين لرسول الله ﷺ حتى يتبعهم في بعض أهوائهم، ويُوافقهم على ما يحسنون له من الأقوال كما قال تعالى: ﴿ **وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾ [المائدة: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾** ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ولذلك فإنَّ تمسُّك المسلم بدينه كما أمر الله يُبغِّض الكافرين فيه، وهو كلَّما ترك بعض دينه مُوافقةً لهم يحصل له الرضا منهم، لأنَّ مَيْلَهُ لهم يعني اتِّباع الهوى والشهوة وبذلك يحصل الفُرقة والاختلاف كما قال تعالى: ﴿ **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ** ﴾ [الأنعام: ١٥]، وبموافقتهم وترك الشرع يُصبح تابعاً صغيراً لهم، وهذا يُبعد عنه النَّصر والتأييد، ويُبعد عنه قِيام الدين.

فهذان أمران لهما نتيجة، **أولاً**: اتِّباع الحقِّ كما أمر الله، وترك مُوافقة الكافرين في شيءٍ من دينهم، **والآخر**: اتحاد المسلمين على هذا الحقِّ، وعدم تفرُّقهم فيه وحوله شِيعاً وأحزاباً، أمَّا النتيجة فهي بُغض الكافرين وكراهيتهم لذلك، ولذلكَ فأنتَ تجد مَن يُسَمَّوْن اليوم بالمُعتدلين إنَّما هم أولئك الذين يتركون أحدَ الأمرَيْن أو كِلَيْهما، فهم إما يُوافقونهم في دينهم، فيُعطونهم بعض الحقِّ

[1] «صحيح مسلم»: ١٦/٩/ح٦٢٧١ .

ويأخذون بعض الباطل كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ [محمد: ٢٥-٢٦]. وقد شرح في غير هذا الموطن أن ما يطلبه الكافرون هو ترك بعض الحقِّ لا كلَّه، كما في هذه الآية والآية المُتقدِّمة من سورة «المائدة»، وقد سمَّى الله مُوافقتهم في ذلك رِدَّةً وكفراً كما ترى.

أو أنَّهم يخرجون مفترقين مختلفين، فيدخل الكافرون من خلال هذا الافتراق بينهم، بل إنَّ حوادث التاريخ تُثبتُ أنَّ بعض مَن خرج مُفترقاً بالعمل لا بالاعتقاد والاتباع قد التحقَ بالكافرين بُغْضاً بالمسلمين مِن إخوانه، لمجرَّد المُنازعة على المناصب والنفوذ بينهم، ولذلك قال النَّبي ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ. وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**»[1].

وهذه القاعدة القرآنيَّة في بيان بُغض الكافرين للحقِّ، وبُغضهم لأهله واتِّباعهم له ووحدتهم عليه تُبيِّن لك ضلالَ المُعاصرين مِن المُفتين الذين يُراعون في فتاويهم أمزجة الكافرين وأهواءَهم في الفتوى، ويحاولون سَتْرَ أو تأويلَ ما يبغضون، وهذا باب شرٍّ قد انتشر ولو شاء المرء أن يجمع هذه الفتاوى القائمة على هذا المعنى والأصل الباطل لخرجَ بمجلدٍ، ولَرأى فيه عجائب من الأقوال، ثم لَعَلِمَ أنَّ الساقطين في هذا الباب ليس لهم شعارٌ واحدٌ بل منهمُ المُقلِّد ومنهمُ المُنتسب للسلف، ومنهم محرم التقليد وغير ذلك من الشعارات التي يتخفى النَّاس حولها، مع أنَّ الكثير من هذه الشعارات اليوم صارت نسباً قبليّاً لا يمت للعلم بصلة، مع سرعة التحول بحسب الطلب.

[1] «صحيح مسلم»: ١٧/ ١٣٠/ح٧٠٥٢.

ثمَّ إنَّ هذه القاعدة القرآنيَّة تُبيِّنُ العلاقة بين الحقِّ والكافرين أنَّها علاقة البُغض، وهي علاقة لا تنشأ بسبب جهل الكافرين بالحقِّ كما يزعم المُعاصرون في زماننا، حيث يظنون أنَّ عداء الكافرين للإسلام بسبب جهلهم به، ولو عَلِمُوهُ على حقيقته لأحبوه ـ زعموا ـ، والله يقول عن قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦﴾ [النمل: ٥٦]. فهم يعلمون طُهْرَ المؤمنين كما يعلمون نجاستهم هُمْ، فهي كراهةٌ وبُغْضٌ مبنيَّان على بصيرةٍ بالحقِّ وعِلْمٍ به لكنَّهم لا يحُبونه ولا يرضونه لاتِّباعهم الشيطان والشهوات.

وقوله تعالى: ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣]. هو موقفُ أهل الحقِّ منه، فهمُ الدُّعاة، وهم أهل الثقة بما معهم، فهم فاعِلون لا مُنْفَعِلُونَ، وداعون لا مَدْعُوِّين، وهذا يقوله الله لرسوله ﷺ وأصحابه وهم في مكّة مُستضعفون، لكنَّهم همُ القُواد وهم أهل اليد العُليا لا كما يريد النَّاس زمن الهوان من ارتقاب أمزجة الكافرين ورصد مشاعرهم وقوانينهم للإفتاء على وجهٍ مُقاربٍ لهم.

هذا الحقُّ الثابت بأركانه وقواعده لا يخضع لقواعد العَرْضِ والطلب، إذ لا يجوز تحريفه ليأتي إليه النَّاس، كما لا يجوز نسخه ليتوافق مع الُمعرضين فيقبلوا عليه، لأنَّ سُنَّة الهداية لها معالمها كما ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾.

والقرآن في هذه السُنَّة الإلهيَّة الماضية يُطَمْئِنُ المؤمنين، كما يُثبِّتهم على الحقِّ، فهو ينزعُ من نفوسهم مُلاحظة ما حولهم من مشاعر وأقوال وأحوال الُمعرضين، فتتوقف الأسئلة عن سببِ الإعراض، كما يتوقف النظر إلى الحقِّ وما فيه من نقصٍ موهومٍ أو قُبْحٍ مُتخيَّلٍ يدفع هؤلاء الُمعرضين لهذه المواقف، وهذا المعنى قد تأكد كثيراً في القرآن المكي، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ٣٥ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ

﴿يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام: ٣٥ ـ ٣٦]، ويقول في نفس السورة وهي «الأنعام»: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣].

فالهداية لها سُننها في إصابة أهلها، وهي مبنيَّة على مشيئة الله القائمة على الحِكمة والعدل، وعلى استعداد القلوب لهذه الهداية، لا كما يزعم المُتكبرون المغرورون بما عندهم أنَّ الحقَّ لا يُعرف إلاَّ مِن خِلالهم وضِمن شُروطهم في الفهم والحُكم كما قال الله عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف: ١١]، ومِن العَجب من هذا المسلم الذي يعلم هذه الآية ويقرأ كلام الله تعالى في هذا الباب ثمَّ يصغِّر من عظمه الله بهدايته، ويُعظِّم من أبعده الله بضلاله، والجهل بهذا الباب هو الذي يقود إلى باب الزندّقة والخروج من الإسلام، لأنَّ هؤلاء وهم يحتقرون أهل الإسلام والديانة، ويُعظِّمون أهل الضلال والكفر، ويُطلقون عليها أوصاف التبجيل والاحترام يذهبون إلى عدم تعظيم الإيمان ومعانيه في القلوب، فيرتدُّ هذا على قلوبهم إنكاراً لحقيقة هذا الدين وأحكامه ومصائر أهله يوم القيامة.

ومَن تأملَ هذا الحال اليوم عَلِمَ مشابهته لحال سلفهم من زنادقة الأمس في تحقيرهم للفُقهاء وأهل الحديث وتعظيمهم للفلاسفة المُلحدين، بل وزعمهم أنَّ عُلُومَ هؤلاء الفلاسفة خيرٌ مِن عُلُومِ الأنبياء وأَرقى منها، وأهلَها التابعين لها أذكى وأعلم من تابعي علوم الأنبياء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ [الشورى: ١٤].

هذا مِن جَريان السُنن الإلهيَّة في الخَلق، وحال النَّاس مع علوم الوحي والنُّبوَّة، وهي سُنَّةٌ ماضيةٌ في السابقين من الأُمم، وقد جرتْ كذلك على هذه الأُمَّة، وهذا المعنى قد ذُكر مِراراً في القرآن الكريم، وذلك أنَّ العلم في نفسه يجمع النفوس على الحقِّ، لأنَّه يهديها لأمرٍ واحدٍ، ويُقَوِّمُ اعْوِجَاجَهَا المانع من اتِّباع الهوى والتفرّق، لكنَّ مانع اتِّباع الحقِّ مع ظهوره هو ما قاله الله هنا: ﴿ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ ﴾، وكما قاله في سورة «يونس»: ﴿ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [يونس: ٩٣]، وقال في سورة «الجاثية»: ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الجاثية: ١٧]، وقال في «البقرة»: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وهذا المعنى في هذه الآيات يدلُّ على أمور منها:-

★ أنَّ الباطل يجمع النَّاس إنْ عرُّوا عنِ العلم وهدي النُّبوة كما قال الله: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ أي على الباطل والشرك قبل قُدُومِ النُّبوَّة، وكذلك فإنَّ الحقَّ من غير بغيٍ يجمع النَّاس كما قال في سورة «يونس»: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْ ﴾ [يونس: ١٩]، فمجرَّد الاجتماع غير محمود في نفسه، إذ لو كان كذلك لما أَرسلَ الله الأنبياء، فبنو إسرائيل قبل موسى كانوا على أمرٍ واحدٍ من الذلِّ والمهانة والخضوع لتألُهِ فرعون عليهم، لكنَّ الله بعث موسى عليه السلام لِيُخرجهم من هذا الأمر، ولذلك فإنَّ الاجتماع المحمود هو ما كان على الحقِّ كما

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. فليس الاجتماع محموداً إلاَّ ما كان على الحقِّ وعلى حَبْلِ الله تعالى.

★ أنْ يتفرَّقَ النَّاس بالعلم وعليه خيرٌ من أن يجتمعوا على الباطل، إذ هذا هو أمرُ الأنبياء حيث يأتون إلى أقوامهم بهَدي النُّبوة وهم على الكُفر كما جاء نوح عليه السلام إلى قومه الذين استمرأوا الشرك والكُفر قروناً، وكما جاء محمد ﷺ إلى قريش وأَمْرُهَا واحدٌ في عبادة الأصنام، فيحصل الافتراق، إذ يتبع قومٌ مهديُّون هذا العِلْمَ، ويُعْرِضْ عنه آخرون فيحصل بينهمُ البغضاء والعداوة، بل والقتال كما قال الله لرسوله ﷺ: «**وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ**»[1] كما تقدَّم في الحديث، والذنب في هذا الافتراق لا يكون على الأنبياء، بل يكون على الذين قال الله فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

★ إنَّ مجرَّد العِلم لا يحقق الاتفاق بذاته، بل لا بدَّ من أخذه على وجهه من غير عُدوانٍ ولا ظُلمٍ ولا بغي، لأنَّ العلم يحقق الاتفاق الذي يحصل به السعادة والنَّجاةَ إنْ أخذه النَّاس على وجهه، فعملوا به وصدروا عنه، فإنْ اتبعَ النَّاس سبيل الطُغيان فلن يحقق العلم لهم وَحدة، بل بالطُغيان يحصل الافتراق والاختلاف، ولذلك كانت مهمَّة النبي ﷺ ليست تلاوة العِلم فقط بل كان فيها تزكية النفوس كما قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، فعِلْمُ النُّبوَّة يحتاج إلى قلوبٍ وأوعيةٍ له تحمله على وجهه من التقوى والاتِّباع والعدل، فإنْ وقعَ هذا العلم في قلوبٍ باغيةٍ تتبعُ الهوى لم يحصل لهم بهذا العلم إلاَّ تفرُّقٌ واختلافٌ واقتتالٌ كما قال تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى

[1] «صحيح مسلم»: ١٧/١٦٦/ح٧١٥٦.

ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فدُّعاة الوعيِّ بظنِّهم أن ما ينقص الأُمَّةَ هو العلم دون إدراكهم لعظيم منزلة التزكية لن يصلوا إلى أهدافهم في إزالة غُربة الدين؛ فنشرُ المعلومات مع غَلبة الهوى واتِّباع كلِّ امرئ لرأيه لم يحققْ النَّصر، وهو الذي قوامه الحقُّ والوحدة عليه.

★ إنَّ أعظمَ الطُغيان في داخل الأُمَّةِ المسلمة الهوى والبغي ، وهو سبب الفساد والضلال والاقتتال والتفرق والظُّلم، ولا قيام للأمَّة ولا لوجودها لتحقيق شهادتها على الخَلق إلا بالعدل بينها، وهو عدلٌ واجبٌ في مسائل العِلم إذ يتقبل المُخالف الحقَّ إن ظهر له، وعدل في مسائل العلم في الحقوق الواجبات، ومهما دعا أهل العلم إلى العلم، ومهما نشروا من علوم خافية، ومهما أبانوا للنَّاس شرور البدع والانحرافات إلاَّ أنَّ صلاح الأُمَّة وقوامها لأداء مهمتها في الخَلق وتحقيق وحدتها لا يكون إلا بردعِ الظالمين والبُغاة، والضرب على أيديهم، ومَن تأمل تاريخ الأنبياء في القرآن الكريم رأى أنَّ أعداءهم همُ الملأ الظلمة، وهي صفةٌ لقومٍ لا يجهلُ النَّاس حقائقهم في كلِّ عصرٍ، إذ يعيشون بالظُّلم، ويكتسبون به، ويتصدَّرُونَ الخَلق بسلاحه، فيَسرِي في النَّاس البُغض والكراهية والحسد والشحناء، كما يَسِيرُ بينهمُ الفساد، لأنَّ غنى الظالمين فساد، كما أنَّ الفقر الحاصل بالظُّلم فساد، وذلك بخلاف الغنى المدوح والفقر الذي يُوجب الصبر المدوح، فالغنى المدوح ما كان من رزقٍ حلالٍ ويُؤدى حقُّ الله فيه، والفقرُ الذي يُوجب الصبر المدوح ما كان من غير إذلالٍ ولا مهانةٍ كصبر الدواب، بل هو صبرٌ على البلاء المقدَّر على المرء ولا يستطيع دفعه كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ

﴿١٥٥﴾ [البقرة: ١٥٥]. أما مَن استُبِيحَ مَالُهُ على وجهِ الإذلال له فصبر فهو صبرُ البهائم الذي لا يرضاه الله للمؤمنين لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. ومادَّته رفض الأنصار لعرض النبي ﷺ في إعطاء غطفان بعض ثمار المدينة في غزوة الخندق تدلُّ على عِظَمِ هذا الأمر في باب الإيمان وعِزَّته.

ولذلك فإنَّ مهمَّة الأنبياء وأتباعهم ردُّ المظالم كما كانت مهمَّة موسى عليه السلام في بني إسرائيل ومع فرعون، كما قال له: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧].

وكما كانت مُهمة شعيب عليه السلام مع قومه حين قالوا له: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ [هود: ٨٧].

وهذا يُنْبيكَ بخطأ جماعات وطوائف من الدُّعاة الذين يُصلحون تصورات النَّاس العقائديَّة ولا يلتفتون إلى حياتهم وواقعهم، فهم مخالفون لهَدي الأنبياء في الدعوة والإصلاح، مع جهلهم بأنَّ العلم آلة يمكن استخدامها من قِبل طوائف الباطل في تفريق النَّاس واحتلالهم، فالله قال عن كتابه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧]. وواقع هؤلاء المُعرضين عن محاربته والضرب على أيدي الظالمين يشهد أنَّهم صاروا آلةً بأيدي الظالمين، ولو امتاز هؤلاء الدُّعاة عن الظالمين ببيان إجرامهم والدعوة إلى مُنابذتهم والضرب على أيديهم لما استطاع هؤلاء الظالمون استغلالهم في تفريق الأُمَّة وإدامة ظُلمهم.

ثمَّ إنَّ الناظر يعلم اليوم أنَّه في بيئة الظُّلم، وهو كل حُكْمٍ وعَمَلٍ على خلاف حُكم الله تعالى، لا يمكن تحقيق الإصلاح المنشود، إذ كل خطوةٍ تخطوها الدعوة يُقابلها انتكاسة، ليس بسبب ذات الدعوة كما يظن بعض النَّاس حيث يُصيبهم

اليأس من الإصلاح، ولكن بسبب خطأ مناهج الدُّعاة، فهم إمَّا مشتغلٌ بردِّ الظُّلم دون علمٍ ولا حتى بالدعوة إلى رد الظلم على بينة وعلم، وإمَّا منشغلٌ بالعِلم دون العمل على ردِّ الظُّلم ومجالدته ومُدافعته، **فالأول** يفقد شرعيَّة عمله، لأنَّ شرعية كلِّ عملٍ في ذاته وفي الأرض إنَّما يكون بالعلم، **والآخر:** لعدم وُضُوح أمره فإنَّه لا يعدو من صناعة مُعاقِينِ عن فاعلية الإصلاح، أو يخرج رجالاً هم أدواتٌ لهذا الظالم لأنه لم يُعلمهم حقائق الافتراق بين الحقِّ والباطل في الواقع، بل يُشغلهم بحروب السابقين أو بقضايا العلم التصوريَّة فقط وحروب النَّاس حولها، إذ يَحمَرّ أَنْفُ المرء منهم إنْ خُولِفَ في مسألة علميَّة تصوريَّة، ولا يهتزّ له قلبٌ بجرائم الظالمين وبَغيهم.

لذلك ولتحقيق فاعلية العلم في بيئةٍ من البيئات لا بدَّ من افتراق النَّاس على أساسه أولاً بين الآخذين به وبين المُعرضين عنه، ثمَّ لا بدَّ من الافتراق على أساس العدل بين ظالمٍ ومجالِدٍ له، وهذا بابٌ ترى جهالات النَّاس فيه كثيرةً، بل إنَّ مِن ضلال أهل العلم وإفسادهم لدين النَّاس دخولهم في دين الظالمين، أو سكوتهم عنهم، فكيف إذا صاروا جنوداً لهم بالكلمة، يُنافحون عنهم ويحاربون دُعاة العدل؛ أي دُعاة إقامة شرع الله تعالى؟.

إنّ هؤلاء الأنجاس من البشر هم أَولى النَّاس دخولاً في قوله تعالى: ﴿ **فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ** ﴾ [آل عمران: ٧]. وهل هناك أعظمُ فتنةً مِن الكُفر بالله ورسوله بسبب هؤلاء الأنجاس؟ ذلك لأنَّ كثيراً مِن النَّاس يخرجون من الدين بسبب ضلال وفساد المُنتسبين للعلم، لأنَّ أول صفات الدُّعاة للحقِّ هو اتصافهم به كما قال الله تعالى عن رسوله ﷺ: ﴿ **وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ** ﴾ [الزمر: ٣٣].

وإنَّ مِن البغي في العلم هو جعله على معنى الانتساب للقبيلة للاستعلاء على الناس والافتخار عليهم كما كان يفعل اليهود مع أهل المدينة كما قال تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ**

كَفَرُوا۟ ﴾ [البقرة: ٨٩]. فهم لا يُعلِّمونه للنَّاس، بل يجعلونه خاصًّاً بهم، فإنْ حصلَ العلم لغيرهم لم يُقرّوا به، وإنْ جاءهم هُدىً من غير قبيلتهم وبيئتهم حسدوا أهله فردُّوه، وهذا واقعٌ في النَّاس قديماً وحديثاً، بخلاف ما كان عليه الصحابة والتابعون، إذ صار العلم إلى الموالي وأبنائهم، فمدح لهم الصحابة والتابعون ما صاروا إليه، وقدَّموهم بالعلم الحادث فيهم، ولكن تحول العلم إلى معنى الانتساب القبلي حيث يحقر إنْ جاء من غير بلادهم أو مُدنهم أو شَعبهم، أو يُشكك به، ويُربط صحيح العلم ببلدٍ دون بلدٍ، أو بقومٍ دون قومٍ فهذا كلُّه من البغيِّ والظُّلم، وهو مِن الأسباب العُظمى للتفريق بين النَّاس ونشرِ النِّزاع بينهم، ومنعِ تحقيق قِيام الدين، ومِن تأملَ الحال اليوم عَلِمَ نصيبَ أهل هذا الزمان مِن البغي، وكم جرَّ مِن الفُرقة والبغضاء بين النَّاس، ومن عجائب الجهل في زماننا أنْ يمدحَ علمُ أقوامٍ على معنى العشيرة أو البلد، بل وعلى معنى الدخول في طوائف الحُكم ويُذمّ علوم غيرهم لأنّه أجنبي عنهم، وهذا الشرُّ الجاهلي هو دين إبليس، وهو آلته في تفريق طوائف المسلمين ونشر البغضاء بينهم واستخدامهم أدوات لباطله وكُفره، بل لم نُعدم أن يُقاتل مُنْتَسِبُو العلم تحت هذه الرايات الجاهليَّة لدخولهم في هذا المعنى من البغي والظُّلم، فكان البغيُ في العلم وسيلة لإكفار المسلمين وتضليلهم، ثمَّ آل الأمر إلى قتالهم.

قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الشورى: ١٤].

هذه سنَّةٌ إلهيَّةٌ أُخرى، وهو أنَّ وجودَ السبب لا يعني وقوعَ عاقبته لُزوماً في الحال، لأنَّ الأمور لها أقدارها، وهذا المعنى تأكدَ كثيراً في كتاب الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿ **وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ** ﴾ [العنكبوت: ٥٣]، وكقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾** ﴾ [النحل: ٦١]، وكقوله: ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن**

﴿ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ ﴾ [فاطر: ٤٥]، وكذلك تأخير إجابة الدعاء كقوله ﷺ: «**يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي**»[1]، ولذلك فإنَّ القَدر حاكمٌ على الوجود، ومَن لم يفهمه ضلَّ قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [هود: ٨]، وكذلك قوله عنهم في إنكار القيامة: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الإسراء: ٥١]، وذلك أن من جهالات الخَلق الوقوف على اللحظة الراهنة وعدم رؤية ما بعدها كما وقفَ المُنافقون على لحظة قُدوم الأحزاب فقالوا: ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٢]، والاستغراق في اللحظة الراهنة يُضعف اليقين على الوعد، ويَقطع مددَ الصبر عنِ القلب، أما أهل الإيمان فإنهم يعيشون بعبرة التاريخ وأحداثه، ويرقبون الوعد القادم من الغيب، فهم في لحظة الابتلاء أعظم إيماناً وثقةً بالله تعالى، وكذلك إنْ جاء النَّصر فإنَّهم في خوفٍ مِن مكر الله الذي لا يأمنه إلاَّ القوم الكافرون، فلا يذهبون غُروراً في لحظة النَّصر، ولا يذوبون يأساً في لحظة الابتلاء، لأنَّهم يعلمون أنَّه لكلِّ أجلٍ كتاب، وصبرُ الله على النَّاس لا يعني نِسيانهم، ولا أنَّهم قد خرجوا عن قُدرة الله وأمره وقَدره، وها هنا حين يتفرق النَّاس في العلم بغياً بينهم إنَّما يجري هذا لحِكمةٍ من الله تعالى، ولذلك لا ينبغي السؤال عن ذلك لأنَّ هذا من محنَة الله للنَّاس كما قال الله عن القتال: ﴿ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ [محمد: ٤]. وهكذا يبتلي الله المؤمنين بالشبهات، وبكثرة الفِرق لا بتحسينات الباطل وزُخرفه لِيَعْلَمَ الله مَن يتبع الرسول وهديه ممن هو صاحب هوى يلتفت كلَّ حينٍ إلى شبهةٍ عارضةٍ تسوقه إلى هواه، أو تُسْقِط عنه التكليف، أو تحققُ له الشهوة، ولذلك

[1] «صحيح البخاري»: ٥/٢٣٣٥/ح٦٣٤٠. «صحيح مسلم»: ١٧/٤٥/ح٦٨٨٣ـ ٦٨٨٤.

فعلى المرءِ أنْ لا تذهب نفسه حسرات وهو يرى جُموع أهل الأهواء تُسيِّر الفِرق الضالَّة، أو تتبع شهوات الجاهليّة، أو تنفلتُ إلى الفتاوى الجاهلة، فهذه محنَة العلم كما يمتحن أهل الإسلام بالأعداء وقِتالهم لهم، فهؤلاء يُقاتلون بالسيف وجهالات الضالين تُرَدُّ بالعلم والدليل. والقرآن يُعَلِّمُ المؤمنين أنَّ الأهواءَ لا تقعُ إلاَّ على أصحاب القلوب المريضة والقاسية كما قال في سورة «الحج»: ﴿ **لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾** ﴾ [الحج: ٥٣].

وهذا الذي حدث في الأُمم السابقة كما قال الله عن بني إسرائيل: ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾** ﴾ [الجاثية: ١٦ ـ ١٧].

وكذلك وقعَ مع النصارى في عيسى كما قال تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ** ... إلى قوله تعالى: **فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾** ﴾ [الزخرف: ٦٣ ـ ٦٥].

فالاختلاف في الدين وبين أهله المُنتسبين إليه قَدر واقعٌ، لكنَّ الواجبَ هو مجاهدة أهل الأهواء بالعلم كما يجب مجاهدة أهل القوَّة بالسلاح.

وقوله تعالى: ﴿ **إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ [الشورى: ١٤]: أي القيامة كما جاء في الآيات وقد تقدَّمت، ففي هذه الدنيا لن تنتهي الشُّبهات التي يردُّها أهل العلم بالقرآن والسنَّة كما لن ينتهي وجود الكافرين الذين يُقاتَلُون إلى يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾** ﴾ [الشورى: ١٤].

هذا الاختلاف في الدِّين سَيُورَّث، وما مِن شبهةٍ تقوم إلاَّ وستجد لها حاملاً ووارثاً، لأنَّ العلم يبدأ جليّاً واضحاً بيِّناً، فيه البصيرة والهُدى، فحين يحصل

الاختلاف في أول الأمر يكون ضعيفاً ويُرَّد، لكن حين يرثه التابعون يشتَدُّ أمره، بل ما كان شبهةً ضعيفةً زمن الأوائل يُصبح قولاً مُعتبراً عند المُتأخرين، وهذا الإرث من الاختلاف يصنع الريبة في الحقِّ كما في هذه الآية وغيرها كقوله في «فصلت» عن بني إسرائيل: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [فصلت: ٤٥]. وهي كذلك في سورة «هود».

والشك في هذه الآيات يحتمل معنى الجهل كذلك، فإنَّ الحقَّ حين يكون وحده لا تُعرض له الشّبه، بلِ النَّاس لا يرثون إلاَّ هو، لكن حين تكثر الشُّبهات التي تنتجها الأقوال المُختلفة يزهدِ النَّاس في العلم فيُقْبِلُونَ على غيره، بل قد تغلب الشُّبهات والأقوال المُنحرفة على وقتٍ أو مكانٍ فلا يَعرف النَّاس سِواها، وهذه الأقوال لا تنسجمُ مع الفِطرة ولا مع الحقِّ الذي يجده النَّاس في نفوسهم فيشكّون بالدين ظانّين أنَّ هذه الأقوال هي دين الرسول الذي جاء به، وهذا الذي وقع، فإنّك تجد الكثير مِن المُرتدين قد خرجوا من الدين لما فيه من اختلاف بين أهله، وكذلك لما يرون من جهالات تُنسب للدين وهي ليست منه، ولذلك كَثُر في زماننا الردّة التي تجري على هذا النوع، فالكثير منهم يقول: لو كان هذا الدين حقّاً ما اختلفَ أهله عليه، ويُتابع القول: أيُّ إسلام تريدون منَّا؟! وبعضهم يستهزئُ بالدين وبتلك الأقوال السخيفة والباطلة التي تُنسب للدين كذباً وليست منه كالمذاهب الرِّدِيَّة والجاهلة، وكذلك الروايات الموضوعة التي تمجُّهَا الفِطرة والعقل السَّوي، ومَن تأملَ كلام بعض المُرتدين الكارهين للدين وهم مِن آباء مسلمين يجد أنَّ كثيراً مما تعلموه مِن آبائهم ليس هو دين الرسول ولا هو القول الحقُّ، وحين يتهمون الدين بالتخلف أو الباطل فإنَّهم يتهمون هذه الأقوال التي هي دينٌ باطلٌ ومَن يُرِدِ الله هدايته من هؤلاء، ولم يكُنْ صاحبَ هوىً حين يعلم الحقَّ الذي جاء به الرسول ﷺ يعود إليه ويستغفر الله من جهالاته، وما يسبُّونه

من الدين الباطل يستحق السبَّ والاستهزاء، ولكنَّ أمثال هؤلاء لا يُعذرون في تعلُّم الحقِّ والاهتداء إليه لأنَّه موجودٌ معروفٌ، فالذين يسبُّون الصوفيَّة وخُرافاتها، أو يردّون دين الجبريّة، أو يستهزئون بالأحاديث المكذوبة أو أباطيل الإسرائيليات هؤلاء لا يعلمون دين الرسول، ولذلك كان هذا الباطل والذي حصل به الافتراق سبباً للشَّكِّ بالدين وخُروج النَّاس منه، حتى إنَّ هؤلاء يظنون أنَّ ما تعيشه الأُمَّة مِن تخلفٍ وجهلٍ هو بسبب الدين، لأنَّ الدين عندهم هو خُرافات مشايخ الجهل من الصوفيّة وغيرهم.

وكذلك كان تخلي أهل العلم عن قضايا الأُمَّة في ظرفٍ من الظروف سبباً في التحاقِ طوائف الأُمَّة بالأديان الباطلة، كأن يلتحق أهل العلم بأهل البغي والظُّلم، وهم بعدَ التحاقهم بهم يُبررون لهم بأنّهم أهل دينٍ وصلاحٍ، وأنَّ الخارج عنهم خارج عن طاعة الله، وأنَّ عدوَّ هؤلاء الطُّغاة والظالمين هو عدوٌّ لله ولدينه، والنَّاس لهم فِطَرٌ لا تنسجمُ مع هذا الباطل، كما أنَّه ليس عندهم عِلْمٌ يحميهم من أكاذيب هؤلاء الضالّين من العلماء، فيسيرون في رِكاب مَن يحمي فِطرهم في تحصيل حقوقهم وردِّ الباطل والطُغيان عنهم تحت شعارات مذاهب الكُفر، ويصير عندهم شكٌّ بهذا الدين لما يقوم في نفوسهم من نَكارةٍ لهذا الدين الباطل الذي يدعو له هؤلاء العلماء من إقرار الباطل والسكوتِ عن الظُّلم بل وتسميتِه ديناً، فالنَّاس يحبّون الحقَّ، ويحبّون مَن يحميه ويُدافع عنه، ويكرهون الظُّلم والبغي، والعوام مِن النَّاس بل وبعض أهل العقل والفِكر إنّما يعرفون الدين الحقَّ من خلال أهله ودُعاته، ومن خلال قِيامه في إصلاح الواقع وردِّ الظُّلم والعُدوان، فإنْ كان أهل دين الرسول من أهل العلم في صفِّ الطُّغاة والظالمين، أو ساكتين عنهم، فإنَّه مِن الصعب أن تشرحَ للعوام الذين لا يقدرون على الدراسة والبحث أن دين الله على الضدِّ من هؤلاء، وأنَّ أتباعه القائمين به ليسوا على شيءٍ من هذا الفساد.

وقد مضى وقتٌ على الأُمَّة في بعض أماكنها وأزمنتها أنْ التحقَ النَّاس بمذاهب الكفر وشعارات الجاهليّة لما تخلّت طوائف المسلمين عن قضايا المسلمين العُظمى كقضيّة فلسطين، أو قضايا الإصلاح السياسي والاقتصادي، وانكفؤوا على أنفسهم بحجّة التربية أو اختلاط الحال أو أنَّ العصر هو عصر مكّة فليس إلا الدعوة وغير ذلك من الشعارات الجاهلة والتي خَسِرَ المسلمون بسببها الكثير، ثم لما انبرى بعض المسلمين لقضايا الأُمَّة لحقتْ بهمُ الأُمَّة وصار للإسلام وُجُودٌ وحُضُورٌ، بل كان هذا الرجوع سبباً لعودة علوم إسلاميّة لحاجة النَّاس إلى فقهٍ يُواكب هذا الإصلاح في حياتهم، ومع ذلك لا يُعدم الباطل من وجود أتباع له، فإنَّ دعوات الانكفاء نحو الذات تحت دعاوى الجهل كالتربية والتصفية ما زالت تجد لها أنصاراً من ضِعاف الهمم، وهؤلاء انكفؤوا أولاً على أنفسهم، لكن لما حمى بهم سُعار العمل ولا بدَّ صاروا مِن جُنود الطُّغاة والظالمين، وأعداءً لأهل الحقِّ والمجاهدين في سبيل الله تعالى، وهكذا هو حالُ الشرِّ في نفوس أهله، فهو إمّا ساكتٌ عن الحقِّ وإما ناطق بالباطل.

قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ [الشورى: ١٥].

هذا هو منهج القرآن ومنهج أهله حين يقع الاختلاف في الخَلق، وهي قواعد العلم والعمل عند الاختلاف، كما أنّها هي عواصم الانحراف عن الحقِّ، وهذه كلمات الله تعالى الهادية، وهي واجبةُ العمل لأنّها من أحكامه وأوامره، وبالاهتداء بها السعادة والنَّجاة، وبمخالفتها الشقاء والعذاب.

★ إنَّ أول ما ينبغي الثبات عليه، هو دوام الدعوة إلى الحقِّ، فلا يُبرر الباطل، ولا يُسكت عنه، ولا يُكتم الحقُّ كما لا يخجل منه كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾ [الأعراف: ٢]، ولذلك

أمرَ الله رسوله هنا بقوله: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ ﴾، ولا يُقال كما قال الجهلة: لِنَتْرُك النَّاس واختياراتهم، أو لِنَدَع النَّاس وأديانهم، أو ما شابه هذه المناهج الضالّة، كما لا يُقال كما يقول الضالون: إنَّ الإسلام يعترف بغيره مِن الأديان، فهذا كذبٌ على القرآن وعلى سنَّة رسول الله ﷺ، بلِ القرآن يُوجب الدعوة إلى الحقِّ، ويُوجِب كشفَ الباطل، ويُوجِب مُعاداته ومُعاداة أهله، كما يُوجب على المؤمنين الرحمة على المُخالفين مِن المُشركين مِن أن يموتوا على ذلك، ويُوجب عليهم إقامة الحجَّة على الخَلق من العالمين، والحقّ إنْ لم يُدْعَ إليه دُعي أهله إلى الباطل، وترك بيانِ الحقِّ وعدم كشف الضلال يُؤدي إلى ضُعف الحقِّ وقُوة الباطل، فالشيطان وكذا جُنده لا يَكِلُّونَ عن دعوتهم، ولا يَسكتون في إلحاق النَّاس بطوائفهم كما قال الله عنه: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الحجر: ٣٩]، وقال عنه كذلك: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣]، فإنْ ظنَّ أنَّه بتركه مُواجهة الشيطان وجُنده سيسكت الشيطان وجُنده عن الدعوة لدينه فهو جاهلٌ بسنن الوجود، وجاهلٌ بما أعلمنا الله تعالى في كتابه عن منهج الشيطان وإصراره على الدعوة إلى باطله، ولذلك فتارك الدعوة إلى الحقِّ إنّما هو تاركٌ لساحة الصِّراع ليخلوَ بها الشيطان وجُنوده، وهو كلّما سكتَ نشطَ الشيطان، وكلّما أخلى موقعاً غَنِمَهُ الشيطان، فهذه سنَّة التدافع التي هي قائمة في كلِّ لحظةٍ وفي كلِّ مكان.

ولذلك لا يُقال كما يقول بعض المُفتين والمشايخ الضالّين: «إنَّ إسلام واحدٍ لا يُغني المسلمين ولا يهزم الكافرين». فهذه كلمات كُفْرٍ في حقيقتها، لأنَّ هذا معناه أن يرضى المُسلم بكفر امرئٍ مِن الخَلْقِ، والرضى بالكُفْرِ كُفْرٌ، ولذلك قال أهل العلم: «لو قال الكافرُ لرجلٍ: «إني أُريد أن أُسْلم» فقال له: «اصبرْ ساعة» فقد

كفر، فكيف بالأمر بإنشاء الكفر؟»[1]، وقالوا في تعليل ذلك لأنّه رضي بأنْ يكفر المرء لحظةً، فكيف ببعض المُفتين الذين يُؤجِلُونهم أياماً وشهوراً!! ولو كان في قلوب هؤلاء القوم معنى الإسلام وكلمة التوحيد وعاقبة قائلها لَعَلِمُوا قيمة إسلام امرئٍ واحدٍ، فإنَّ إسلامه في نفوسهم لا يعني إنقاذه من النَّار خالداً فيها أبداً ليكون من أهل الجنَّة خالداً فيها أبداً، ومَن تأمل حِرْصَ النبي ﷺ في إسلام النَّاس وقصّته مع الفتى اليهودي الذي زاره وهو في سكرات الموت يُغرغر عَلِمَ عظمة الإسلام في قلب الرسول ﷺ، لأنَّه يعلم ﷺ معنى إسلام هذا الفتى، وقد خرج من عنده فرحاً يقول: «**الحمْدُ لله الَّذِي أَنْقَذَهُ بي مِنَ النَّارِ**»[2]، وهو القائل بأبي وأمي ﷺ: «**وَالله لأَنْ يُهْدى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**»[3].

وقصّة دعوة الرسول ﷺ للفتى اليهودي في الغَرْغَرَةِ تُعلمك بُطلان الذين يحرصون على نوعٍ مِن النَّاس دون غيرهم في ضمِّهم لأحزابهم وجماعاتهم، لتُعاملهم في هذا الباب كتُجار الدنيا في تحقيق منافع الدنيا، وهذا الفتى في الغَرغرة لا يرجو منه رسول الله ﷺ شيئاً من الدنيا، فهو لا يرجو منه أن يكون مُقاتلاً ولا أن يثري جماعة المؤمنين بماله ولا بجاهه، ولكن يرجو له النَّجاةَ من النَّار، وبهذا تعرف الفَرقَ بين دين الرسول في دعوته عموم النَّاس للنَّجاة من النَّار والدخول في الطاعات، وبين أحزاب الأهواء التي تحرص على ناس دون غيرهم لما يتحقق من هؤلاء من منافع حزبيّة ودنيويّة.

ثمَّ إن في الدعوة إلى الله تحصيناً للدَّاعي من دعوة غيره من الشياطين وأتباعهم، فبين الدَّاعي إلى الله ودعوة الشيطان مفاوز وخُطوات، إذِ الشيطان هَمُّه أن يُسْكِتَهُ عن قولِ الحقِّ، ويَصرفه عنِ الدعوة إليه، فإنْ سكتَ وسوسَ له بالباطل والشرِّ،

---

1 «إعلام المُوقعين عن ربِّ العالمين»: ٢/١٣٦.

2 «صحيح البخاري»: ١/٤٥٥/ح١٣٣٢. رواية البخاري من دون لفظة «بي». ولكنها مُثبتة في «مسند أحمد»: ٤/١٠٢/ح١٣٠٨٣، ٤/١٩٣/ح١٣٦٨٧-١٣٦٨٨. و«سنن أبي داود»: ٨/٣٥٩/ح٣٠٩٧. وغيرهما.

3 «صحيح البخاري»: ٣/١٠٧٧/ح٢٨٧٥.

ولذلك كان الدَّاعي إلى الله حامياً لنفسه من مُتابعة الشرِّ أو اللحوق به قبل منع غيره.

فهذا هو الأمر الإلهي الهامّ عند حصول الاختلاف، وعند حضور الأهواء، وعند طرح الشُّبهات؛ لأنَّ في الدعوة إلى الحقِّ بقاء الحقِّ وحضوره في مُدافعة الباطل ولولا هذا لَعَمَّ الشرُّ وانتصرَ الباطلُ وخَلاَ الشيطان بالنَّاس كما قال تعالى: ﴿ **فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾** ﴾ [هود: ١١٦-١١٧].

قوله تعالى: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [الشورى: ١٥]. وهذا أمرٌ يتضمن أمرين؛ **أولهما**: الثبات على الحقِّ ومُواصلة الدعوة إليه من غير تبديلٍ ولا تغييرٍ، لا ترده الشَّهوات ولا الشُّبهات، ولا تحرفه عوائق الطريق، ولا الإخفاقات اللحظية، ولا إعراض النَّاس كلِّهم عنِ الحقِّ، لأنَّ هذا هو منهج الأنبياء، فإنْ عَلِمَ المسلمُ أنّه قد جاء أنبياء إلى أقوامهم ثمَّ مضواْ إلى ربِّهم من غير وُجُودِ تابعٍ واحدٍ لهم ليعلِّمهم أنَّ الثَّبات على الحقِّ وعلى غَرْزٍ واحدٍ وسبيلٍ واحدٍ هو الحقّ حتَّى لو لم تتحقق أهداف الدعوة بالتحاق النَّاس بها، لا كما يفعلُ بعض الناس من أنَّ الإخفاقَ في فترةٍ من الزمن يجعلهم ذاهبين إلى سبيلٍ آخرٍ من تقديم التنازلات للأهواء لعلَّ في هذا التنازل تحقيقاً لبعض الأهداف في التحاق بعض، وهذا الدين أمره أمر اتّباع لا مجال لأهواء النَّاس فيه، وهي الأهواء التي يُسميها بعضهم اجتهادات أو تحسينات في الدعوة، وهي في حقيقتها تمييعٌ لأمر الدين، أو لإذهاب معنى التعبّد الإلهي فيه، أو لنزع بعض حقائق منه، وهذه الأهواء تُغَلَّفُ بأغلفة الكذب وزُخرف القول كزعمهم التجديد أو الإبداع أو التزيين.

لقد تأكد أمر الله لرسوله مِراراً بالاتّباع كما قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس: ١٠٩]. وهذا أمرٌ عامٌّ لا يجوز قَصره على أمرِ التوحيد فقط، بل هو أمرٌ إلهيٌّ لرسوله بأن يُبلِّغ رسالة ربِّه في كلِّ ما يُوحى إليه، وأن يُعرض عن مُساومات الجاهليّة في كلِّ أمرٍ من تحسيناتها المُزخرفة للالتقاء في بعض الطريق، وقد جمع الله في هذه الآية الأمر بالاتباع مع الصبر، لأنَّ عُروض الجاهليَّة غَنية بالوعود، وفيها الكثير من إزالة المشقات، كما فيها الزخرف والتزيين، وأساس دعوات الجاهليّة يقوم على وجود القواسم المُشتركة بين ما هم عليه وما يدعو إليه الرسل وأتباعهم، وترك الخصومات حول ما يختلفون حوله، وتتم هذه الدعوات تحت سقف الكلمات المحبوبة شرعاً كالأمر بالاتّفاق ونبذ الخلاف، أو في تحقيق أهدافٍ عامّةٍ لمجتمعٍ من المجتمعات، أو جذب المُخالفين إلى الحقِّ خطوة خطوة، وحقيقة هذه الدعوات هو اتّباع أهواء الجاهليّة، والوقوع في المحذور القرآني: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، فإنْ قال لك قائلٌ: إذا تشددتَ هذا التشدد فلن يقبل بك أحدٌ. فقل له حينئذٍ ما قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩]. فإنْ قِيلَ لك: إلى متى وأنتَ على هذا الحال من غير تطوير ولا سياسة تدبير؟ فقل له: ما قال الله: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس: ١٠٩].

والآخر: أنَّ الاستقامة على الحقِّ تُوجِبُ الالتزام به عملاً، فإنَّ الدَّاعي إلى الله ليس كتاباً يقرأه النَّاس فيتفاعلون مع كلماته فقط، بل الدَّاعي إلى الله واقع هذه الكلمات وحقائقها الوُجوديَّة، ولذلك فإنّ الاستقامة على الدعوة تُوجِبُ هُجران عَمَل الجاهليّة بل وهُجران مجالسها التي يكون فيها الشرّ، أو يكون فيها إظهار معالمها كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام:

٦٨]، وقال سبحانه: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ [النساء: ١٤٠].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [الشورى: ١٥]. بيانٌ جليٌّ من ربِّ العباد أنَّ كلَّ تسميَةٍ مُزيَّنةٍ تُطلق على قولٍ أو عملٍ على خلاف الشرع هي تسميَة باطلة، فتارة يُسمّونها بالفلسفة، وتارةً يُسمّونها بالعلوم الإنسانيّة، وتارةً يُسمّونها بالإبداع الفكري، وأُخرى وأُخرى، وكلّها مِن نوعِ تسميَة الخمر بغير أسمائها، فهذه كلّها أهواء، لأنها عصارات عُقولٍ فاسدةٍ، ورَجِيع نفوسٍ عاصيةٍ، فالحقّ فقط هو ما جاء به الرسول ﷺ، وهو الذي قال الله فيه: ﴿ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩]، وهؤلاء الذين يتخفّوْن تحت هذه الشعارات كحريّة الفكر والإبداع إنّما يريدون الكفر بالله والاستهزاء بدينه وبرسوله وبالمؤمنين، فإن رُوجِعوا في ذلك قالوا: حريّة فكر، مع أنَّ حياتهم وسلوكهم تدلّ على ما هم عليه من الشرِّ والسوء والفساد.

فهذا هو منهج الحقّ عند الأهواء والاختلاف: الدعوة إلى الحقِّ والاستقامة عليه وتجريد الحقِّ ودُعاته من الأغيار وزَبالاتهم.

قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾ [الشورى: ١٥]. أي وأَعَلِنْ يا محمد أنني أُصَدقُ كلَّ كتابٍ أنزله الله قبلي، وفي هذا معانٍ، منها ما تقدم من نفي البغي في العلم حيث يُصبح على معنى الافتخار بالعشيرة التي تنفي فضل غيرها كما قال الله عن بني إسرائيل: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ [البقرة: ٩١]، فالمؤمن يُؤمن بالحقِّ حيث هو حقّ ولا يُبْعِدُهُ إن جاء من غير قومه أو عشيرته أو بلده، وهو يُقِرُّ بأن فضل الله في العلم ليس محصوراً في قومٍ ولا مكانٍ، بل قد توزَّعَ العِلْمُ وصارَ في البلاد، كما إنّه يرحل مِن بلدٍ إلى بلدٍ، وكم مِن بلدةٍ كان فيها الجهل ثم صار

أهلها من أهل العلم والدين، وكذلك العكس، فالعلم فضلٌ إلهيٌّ يعطيه ويبسطه، كما يمنعه ويقبضه.

ثم إنَّ في هذا الإعلان الإلهي في قوله: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ بياناً أنَّ الحقَّ واحدٌ إنْ جاء من الله تعالى، فإنْ حصلَ نسخٌ لأمرٍ فإنَّ المؤمن يُؤمن بالأمرِ الأَول أنّه من عند الله ويأخذُ بالأمر الثاني ويعمل به؛ لأنّه من عند الله تعالى، وهكذا لا يُدعى المرءُ إلى عملٍ هو خيرٌ مما كان فيه إلاّ وأقبلَ عليه، ولا يتعصبْ لِقَوْلِ إمامٍ له، ولا لاجتهادٍ سبقَ أن عَلِمَهُ أو أداه إليه اجتهاده، وهذا وإن كان ليس هو من معنى النسخ اصطلاحاً، لكنّه في معناه في الصيرورة إلى الحقِّ وعدمِ الإقامةِ على أمرٍ ثبت له أمرٌ آخرٌ من الحقّ والعلم، ذلك بأنَّ كثيراً من النَّاس يتعصبون للأقوال بحسب النشأة وطُولِ الأمد، فإنْ جاءهم أمرٌ هو خيرٌ مما هم فيه لم تَطِبْ نفوسهم لهذا الحقِّ حتى مع عِلْمِهِمْ به، لأنَّ الأُلفة مانعٌ من الإقلاع والتغيُّر، لكنّ المؤمن وهو يعلم ويُوقِن أنّه عبدٌ لله تعالى لا يضرّه أن يجاهد هذه الألفة، وأن يجاهد نفسَه لاتباعِ الحقّ، وهذا رسولنا ﷺ يقول: «**مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ ثُمَّ رَأَى أَتْقَى للهِ مِنْهَا، فَلْيَأْتِ التَّقْوَى**»[1].

ثمَّ إنَّ في هذا الإعلان بيان حال المؤمن مع ما أنزل الله، وهو حال التسليم والتصديق، فلا يجعل بينه وبين أمر الله حاجزاً من حواجز النفس أو الواقع أو الأَقْيِسَة، وكلّ شروط النَّاس في إعْمَالِ الآيات والأحاديث هي شروطٌ باطلةٌ حتى لو قال بها سابقون كاشتراط بعضهم موافقة النصِّ للقياس، أو شرط بعضهم للحديث أن لا يخالف أهل بلدة من البلاد، أو أن لا يخالف ما اتفق عليه بعض أهل العلم كالأئمة الأربعة أو غيرهم، أو كما يفعل بعض المُعاصرين من ردِّ النصوص لمخالفتها العقل فيما يزعمون، بل إنَّ بعض الجهلة من أتباع الأحزاب؛ وحال أهلها هؤلاء معها كحال مُقلّدة ومُتعصّبة المذاهب، إذا قيل له:

[1] «صحيح مسلم»: ١١/٩٧/ح٤٢٢٩.

قال الله قال الرسول. اشترط أن يأخذ به قائده أو مُفتيه أو جماعته، وكلّ هذا من أسباب الفرقة، والأخذ بالنصِّ تسليماً حتى لو كرهته نفسه على وجهٍ من الوُجوه كما قال الله عن المؤمنين: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٥١]، بل ولا يجوز لأحدٍ أن يزعمَ أنَّ هناك إجماعاً حقيقيّاً في ترك نصٍّ ثابتٍ لم يأتِهِ ناسخٌ من نصٍّ آخرٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥]. هذا هو الذي قامت به السموات والأرض، وهو إقامة العدل بين النَّاس، لا يمنعك كُرْهُ أحدٍ من أداء الحقِّ له، ولا يمنعكَ حبُّ أحدٍ من أخذِ الحقِّ منه، كما لا يمنعكَ حبُّ أحدٍ من مخالفته في العلم إنْ بانَ لك خطؤه، كما لا يمنعكَ بُغْضُ أحدٍ من مُتابعته إن جاء الحقُّ منه، وهذا أمرٌ لا يستقيمُ الوُجود إلاَّ به، كما لا يتحقق النَّصر على النفس والهوى والشيطان والأعداء إلاَّ بهذا.

والعدل في الأحكام هو إقامة شرع الله لا كما يحبّ النَّاس ويشتهون، فالعدل في الميراث أنَّ للذكر مثل حظ الأُنثيين، فمَن زعمَ غير ذلك أنّه عدلٌ فقد ظلم وكذب، والعدل في القِصاص أن لا يُقتل مسلمٌ بكافرٍ ومَن زعمَ غير ذلك فهو ظالمٌ كذابٌ، والعدل في الرسول أن لا يُقتل حتى لو ارتدّ لأنَّ هذا حُكم الشرع ومَن زعم غير ذلك فهو كاذبٌ ظالمٌ، وهكذا فإنَّ العدل وإنْ اتفقَ النَّاس على استحسانه، وأجمعت الشرائع على حُبّه إلاَّ أنَّ آحاد العدل في الشرائع ليست واحدة، فالعدل الحقّ هو ما شرعه الله لعبيده، لأنَّ هذا هو المحبوب إلى الله، وغيره ظُلْمٌ يكرهه الله وينهى عنه، فحين يقول قائلٌ بحريّة المُعتقد ويقصد جواز رِدَّةِ المسلم ويزعم أنَّ هذا العدل فقد كذب على الله وعلى دينه، وما قاله هو

الجهل والظُّلم، وهذا يَدُلَّكَ على أنَّ الشعارات العامّة لا تصلح قاعدةً لالتقاء النَّاس المُختلفين في الأديان والمذاهب، ثم لا يغرنّكَ دعوى العدل التي يقولها الكافرون، فهي ليست بشيءٍ إنّما هي مجرد شعارات لو تأملتَ ما في داخلها من أفرادٍ لَعَجِبْتَ وعَجِبْتَ وعَلِمْتَ أكاذيبهم، ولذلك فلا يُصلح النَّاس إلا حُكْمُ الله تعالى، وهو الحُكْمُ العدلُ، وهذا ليس مَيْلاً لجانبٍ دون جانبٍ على معاني الجاهليَّة والكُفر كما يصنع أهلها، فالله عزَّ وجلَّ خلقَ الخَلْقَ وجعلهم كلَّهم من أبٍ واحدٍ وأمٍّ واحدةٍ، لا فضل فيه لأحدٍ بسبب جنسه أو لَوْنِهِ أو لُغته على آخرٍ، بلِ المِعيار هو التقوى، وهذا هو الحقّ، وأمّا الباطل فإنّه على الضدِّ من ذلك، إذ لا يُوجد دينٌ من الأديان الجاهليّة في تاريخ البشريّة إلا وهو يمايز النَّاس على معاني الجاهليَّة وقِيَمها.

والمرء لا يُريد أن يخوض في أكاذيب المُعاصرين ودجلهم في دعوى المُساواة، فهي هَوَاء، ووقائعها تصرخ أنَّ أصحابها كذَّابون لا دينَ لهم، إنّما يتخذون هذه الشعارات يتخفون بعظيم الشرِّ وراءها، وواقع العالَم في كلِّ جوانبه يشهدُ على هذا.

وقوله هذا سبحانه دليلٌ على أنَّ المسلم لا يجوز أن يحكمَ بين النَّاس حتى من غير المسلمين إلاَّ بدين الله تعالى، فلا يحكم لهم بدينهم لأنّه حتى لو كان صحيحاً فهو منسوخ فكيف إذا كان ظُلْماً وكَذِباً؟، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ **فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾** ﴾ [المائدة: ٤٢]، وقوله: ﴿ **فَإِن جَآءُوكَ** ﴾ على حالين؛ إمَّا أن لا يكونوا تحت سلطان المسلمين بل هو في دار عهدٍ، وإمّا أن يكونوا ذِمّيين فيأتون للقاضي المسلم ليحكم بينهم في أُمورهم التي تخصّهم، أمّا إنْ كانوا ذمِّيين تحت سلطان المسلمين فأتى أحدهم فِعْلاً غير خاصٍّ به فإنّه يُقام

عليه حُكْم الشرع وُجوباً وليس اختياراً، ولا يجوز للحاكم أن يردَّه إلى حُكْمِ أهله أو قومه.

وكذلك يجب العدل في العلم فحيث ظهر الحقُّ لأحدٍ فلا يجوز إلاَّ أن يُتابع كائناً مَن كان حتى لو كان ظالماً في جِهةٍ أُخرى غير هذه، كما قال الله تعالى في أداء الأمانات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨]، ولذلك يجبُ الفَصْلُ بين ما يخطئ فيه المرء وبين ما يُصيب فيه، فيُؤخذ منه الحقّ ويُردُّ عليه الباطل، ولهذا يُؤخذ العلم الحقُّ من أيِّ أحدٍ، فقد أخذ النَّاس العلم الحقَّ عنِ المُبتدعة في جانبٍ آخرٍ، فأخذوا الحديث عنِ الصادق حتى لو كان مُبتدعاً في بابٍ من أبوابِ العلم، ويُؤخذ عِلْمُ العربية وعِلْمُ أُصول الفقه وغير ذلك عمَن أخطأ في غيرها، فالحقّ حقٌّ، ولذلك أقرَّ الرسول ﷺ اليهود لما أخبروا النَّاس عن عذاب القبر، وضَحِكَ لّما ذكروا صفات الله إعجاباً بقولهم، وهذا ردٌّ عليهم حين قالوا: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٧٣]. فالعدل في العلم والعمل هو منهجُ أهلِ الحقِّ، وسِمَةُ الوارثين للأرض من أهلِ التقوى، أمّا أُولئك الذين لا يرون إلاَّ أنفسهم وجماعاتهم، فينسبون كلَّ حقٍّ لهم، ويقذفون خُصومهم بكلِّ قُنْبُلَةٍ، فهؤلاء تدرسهم سُنن الحقِّ فيَبِيدُونَ ويَنتهون.

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ [الشورى: ١٥]. وهذا تنبيهٌ لهم أنَّ الربَّ للوجود واحدٌ، يقرّ بربوبيته المُتألِهونَ له والخاضعون لأمره وشرعه، ويُنكرها الجاهلون، وإنكارهم لها لا يخرجهم عن العبوديَّة القَدريَّة لهم، فهو خالِقهم ومُطْعِمهُم ومحييهم ومميتُهُمْ، وهذا تفريقٌ بين الإله والربِّ، **فالإلهُ هو المعبود**، فقد يكون حقًّا وقد يكون باطلاً، فالإله الحقّ هو الله تعالى، وغيره آلهة باطلة، **وأمّا الرب فهو الخالق الرازق والمحيي والمميت والقائم على كل نفس بما كسبت**، وهو واحدٌ لا ربَّ سِواه حتى وإنْ نسب الجاهلون هذه الصفات لغيره، بل إنَّ التأليه لغير الله

لا يكون إلاَّ بسبب جهل النَّاس بالربوبيَّة، فهذا الذي يدعو الميِّت إنَّما ينسب له صفات الربوبيّة من القُدرة على المَدد، وكذلك ينسب له صفات الربِّ وهو الحضور والسمع والبصر في كلِّ وقتٍ ومكانٍ، وهذه صفات لا تكون إلاَّ لله وحده، فالتأليه الباطل قد يكون باعتقادٍ باطلٍ أو بعملٍ قلبيٍّ، وليس كل عملٍ قلبيٍّ يُسمى اعتقاداً، لكن لا يشترط إلحاق حُكم الكفر في التأليه العلم بكفر الاعتقاد أو بالشقّ على القلب ليُعلم ما فيه من العمل لأنَّ الظاهر دليلٌ عليه، فهذا شرطٌ يقوله المُبتدعة والقرآن والسنّة يردان عليهم، فالله كفّرَ المستهزئين بالدين في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة: ٦٥]. وصدّقهم الله في هذا، ولكن لم يقبل قولهم عذراً في ردِّ حُكمه عليهم بالتكفير فقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦]، والاستهزاء لا يكون إلاَّ بعملِ القلب من قِلَّةِ الخوف مِن الله وعدم تعظيمه، ولا يشترك فيه الاعتقاد بمعنى المعرفة والإثبات على شيءٍ من المفاهيم الباطلة فكُفْرُ الظاهر إمّا ينشأ باعتقاد كنسْبةِ صفات النقص لله، أو نِسْبَةِ صفات الله الحسنى لغيره، وكذلك ينشأ بعملِ القلب من عدم الخوف أو قِلَّة اليقين.

وذكر قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ في بيان الردِّ على المُخالفين لأنَّ هذا أمرٌ يكاد كلّ مخالفٍ أن يقرَّ به إلاَّ قِلَّة قليلة مِن المُلحدين، وهذا الأمر هو قاعدة الانطلاق لتحقيق ظُهور علم القرآن عليهم، إذ يُقال بأنَّ الربَّ هو مَن له حقَّ التأليه، فكيف يرزق ويشكر غيره، وكيف يخلق ويشرّع غيره، وهكذا.

كما أنَّ ذكره هنا يُبيِّنُ وحدة النَّاس في هذه العبودية، فالمسلم لا يستطيل ولا يفتخر على غيره، فهو إذ يدعوهم إلى الله لا يدعوهم للخضوع له، ولا لامتثال أمره هو، بل يدعوهم ليكونوا مثله عبيداً لله، وهذا منهج الأنبياء، ولو قرأتَ تاريخ خَطِ غير الأنبياء لرأيتَ قيمة هذا المعنى، فإنَّ هذا الخطَ المجرّد الظالم لم

يدخل بلداً، ولم ينتصر على خصمٍ إلاّ وأذلّه وظلمه وسلبه حقوقه، دون أن يُقدّم له شيئاً سِوى الذلِّ والمهانة، بل إنَّ بعض هؤلاء لم يكن له وجودٌ إلاَّ بإفناء شعوبٍ وأُممٍ أخرى، وتاريخ الإسلام يشهد أنَّ الأُمم التي دخلت في الإسلام بِفِعْلِ الدُّعاة إلى الله من الصحابة والتابعين تحولوا إلى قادة، بل صاروا أئمة هذا الدين في العلم والعمل والقيادة، وهذا فارقٌ مُهِمٌ بين خَطِ النُّبُوَّةِ وبين خَطِ أعدائها.

فالدَّاعي إلى الله يقول للمُخالفين هذا الأمر، وهو أننا كُلّنا عبيدٌ لله في الخَلق والإمداد والحياة والموت، ولا فضلَ لنا عليكم، وإنّما ندعوكم لهذا الحقِّ، فإنْ جِئْتُمْ إليه لم يُفَرَّقْ بين أحدٍ وآخرٍ إلاَّ بالتقوى، وهذا مِن أعظمِ العِلْمِ في حياة البشريّة، وهو مِن أعظمِ الإحسان والفضل والعدل، والخطأ في هذا الباب هو الذي يُزَهِّدُ النَّاسَ في الحقِّ، ولذلك تجدُ مَن يدعُو للعلم والحقِّ فقط مع احتفاظه بميزاتٍ وُجوديَّة كالجنسيَّة التي تُوجب حقوقاً ليست للمدعو لا يجد مُصْغِياً على معنى الاحترام، ولذلك كانت جنسيَّة المسلم هي إيمانه والهجرة لدار الإسلام، وبذلك يكون أخاً في الدين وأخاً في الولاء، وضلال بعض المُعاصرين في هذا في التفريق بين أُخوّة الإيمان وأُخوّة الولاء، إذ يقبلون مِن المدعو إن أجابهم أُخوّة الدين ولا يعطونه أُخوة الولاء ضناً[1] بأموالهم وميزانهم، وحسداً للنَّاس مِن أنْ يأكلوا معهم مِن قَصْعَتِهِمْ التي هي عَطاء الله لهم، لا مِن كَدِّهِمْ ولا كَدِّ مُلوكهم.

وهذا الدينُ الباطلُ هو ما يجعل في النَّاس كُرْهَ الحقِّ لسُوءِ أهله والدُّعاة له، بل إنّك لَتَجِدُ أهل الدين الواحد في شقاقٍ بسبب هذا الباب، لأنَّ اجتماع النَّاس لا يكون بالدين الحقِّ وحده، بل بالدين الحقّ والولاء والعُصبة عليه كما قال تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

[1] ضنًا: أي بُخلاً.

قوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ [الشورى: ١٥]، وهذه كقوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٥﴾ [سبأ: ٢٥]، وكقول نوح لقومه: ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ٣٥﴾ [هود: ٣٥]، ذلك لأنَّ قاعدة العدل هي قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ٤١﴾ [النجم: ٣٩-٤١]. وهذه القاعدة مذكورةٌ في صحف الأنبياء السابقين كما قال تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ٣٦ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧...﴾ [النجم: ٣٦-٣٧]. فالمرء لا يُؤخذ إلا بما عمله، ولكن هناك باب رحمة وهو بابٌ زائدٌ عن العدل، لأنَّ الإحسان والرحمة أوسع من العدل والله يقول: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، والإحسان خيرٌ زائدٌ عنِ العدل، وهذا الباب هو لحوق الحسنات للمرء من غير عمله كعمل الابن الصالح لأبيه الصالح، أو كعمل المدعو يُلْحَقْ بعمل الدَّاعي، وهذا العدل في المُساءلة هو دين الأنبياء وعمل أتباعهم، فلا يُؤخذ أحدٌ بجريرَةِ أحدٍ ولو كان أباه أو ابنه، ولذلك قال تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت: ٤٦].

وقوله تعالى هذا لا يعني حريَّة العمل كما يزعم بعضهم ، فإنَّ الآية لا تعفي من المُساءلة، لكنّها تبيِّن قاعدة المسؤوليّة، فإنَّ أصل المُساءلة قائمٌ ولا يسقط، لا في الدنيا ولا في الآخرة، لكنّ المقصود بيان مَن هو الذي يُسأل عن العمل، فتكشف قاعدة العدل، مع بقاء عدم شرعيَّة كلّ عملٍ يعمله المرء.

وجهالات النَّاس من أعداء خَطِ النُّبوَّة في هذا الباب وأحكامهم فيه كثيرة جداً، فكم قُتِلَتْ أُمَمٌ لِفِعْلِ سَفِيهٍ أو مخالفٍ منها، وكم ظُلِمَ أَقْوَامٌ بجريرة غيرهم، ومثل ذلك أن تذمّ بلدة لفعل واحدٍ، أو تُهْجَى قبيلة لجريرة فردٍ منها، وهذا من أقوى الأسباب على حُصول الكراهية والبغضاء، وهما عماد الفُرقة والاختلاف، بل إنَّه ليترك دينٌ أقوام بسبب ظُلمهم للآخرين، ويحضرني في هذا قصة قسيس رافقَ

أحدى حملات الجرائم النصرانيّة ضدَّ شعوب أمريكا الجنوبية وإبادتهم لشعوبها حيث ذكر هذا القسيس قِصَصاً لا تخطر في الخيالات لبشاعتها وقُبحها، فيقول هذا القسيس أنَّه حضر لزعيم قبيلةٍ قتل فيها الرجال والنِّساء والأطفال، بل ولقد شوي على النَّار الأطفال الرضّع وهم أحياء، ولما تقدّم جندي أوروبي نصراني لقتل الزعيم جاءه القسيس ليدعوه إلى دينه قبل أن يموت رجاء نجاته بعد الموت، فلما أخبره بأهميّة الإيمان بالمسيح بعد الموت. فسأله الزعيم: إنْ متُ سيكون فيها هؤلاء الجنود؟ فقال له القسيس: نعم، فقال الزعيم حينها: لا أريد هذه الجنَّة التي يكون فيها هؤلاء، وذلك لِما رأى من وحشيّتهم وإجرامهم وظُلمهم، ولا تظنن أنَّ هذه القبيلة قد قاتلت هذه الحملة، بل ذكر القسيس نفسه أنّهم استقبلوهم خير استقبال، وأكرموهم خير إكرام، ثم لّما انتهى أمرُ التكريم طلبَ زعيم الحملة النصرانيَّة من زعيم القبيلة أن يحضر الذهب الذي عنده، فأحضر له بعضه، فطلب منه أن يحضره كلّه فأحضره، فطلبَ منه الزيادة لَعَلَّهُ يخبئ بعضه فأنكرَ زعيم القبيلة، فأمرَ قائد الحملة بجمع كلِّ أفراد القبيلة وأبادهم عن بَكْرَةِ أبيهم بطُرُق لا يكاد المرءُ يصدّقها، لكنّ راوي القصة هو ذلك القسيس الذي جاء معهم لِيُبَارِكَهُم في قِتالهم وحملتهم هذه.

والقصد أنَّ الظُّلم إنْ أتى مِن أحدٍ كان مانعاً من لحوق النَّاس بدينه أو الإقرار بما معه من العلم والحقِّ، ولذلك أمر الله رسوله أن يقول هذا: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥]، قال بعض أهل العلم معناها: لا خُصومة بيننا وبينكم، وذلك قبل آية السيف التي أوجبتْ جهاد المُشركين، والحقُّ أنَّ هذا بعض معناها لا كُلّه، إذِ المعنى الباقي والذي لا يُنسخ بل هو قائمٌ دائمٌ أن يُقال إنَّ المقصود منها هو ما قاله الله تعالى في موطنٍ آخرٍ، وذلك في قوله: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴾ [الشورى: ٤٨]. وهي

في هذه السورة «الشورى»، وذلك حين يُعرض المُشرك والبِدعي والمُخالف عن الحقِّ، ولا يُسلم للأدلّة البيِّنة من الكتاب والسُّنَّة فإنَّ المرءَ يقول له: قد انقطعتِ الحُجّة بيني وبينك، ومِن سُنن الحُجج العلمية أن تقود العقول إنْ اهتدتْ وأقرّتْ، فإنْ أعرضتْ وأنكرتْ واتبعتِ الهوى فإنَّ الحُجج تنتهي فاعليتها بين المُختلفين، لا لِضُعْفِ الحجج في نفسها، لكن لعدم قابليّة قلبِ المُخالف لها، كشأنِ المطر، فإنَّه روح الأرض وحياتها، لكن لا بدَّ من وُجود استعدادٍ في الأرض لقبول هذه الروح والحياة، فلو كانت صَلْداً فلن يقدر عليها الماء.

والله عزَّ وجلَّ ذَكَرَ هذا الأمر قبل الخاتمة بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا﴾ [الشورى: ١٥]، فلذلك هو خاتمة المقال لمن أصرَّ على عدم قبول دعوة الأنبياء، وهي لا تعني أبداً كذلك انتهاء ما تقدّم من أوامرٍ كالدعوة إلى الحقِّ والعدل في المُعرضين وغير ذلك، ومما تعني أن لا يقفَ الدَّاعي مُتَرَصِّداً كلَّ حجّةٍ باطلةٍ لينشغل بها ويقوم عليها، لأنَّ شأن أَقْيِسَةِ الباطل وشُبهات النفوس أن لا تنقطع، فحين يُعرض المُعرض عن الحقِّ الأَبْلَجِ الجَلِيِّ فكيف له أن يقبل غيره في المسائل التي تحتاج إلى جُهْدٍ واستنباطٍ، فالمُعرض عن أصل الحقِّ لا ينفع معه الجِدال في فروعه، ومنكر الجَلِيَّاتِ لا يجادل في الدقائق، ومَن فَعَلَ هذا فقد ضيَّعَ وقته في غير طائلٍ، ولم يحصل له مقصوده، وفوَّتَ على نفسه الكثير من الخير.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ [الشورى: ١٥]. وهذا مِن عِلْمِ القرآن بإحالةِ الأمر إن لم يُقْضَ بين النَّاس إلى الآخرة، وهو إحالة حقّ لا يستهين به إلاَّ الظالمون لأنفسهم، فلئِن يُؤاخذ المرء في الدنيا بالعقوبة أهون من أن يَلقى الله بها يوم القيامة، ولذلك مدح رسول الله ﷺ ماعِز بن مالكٍ رضي الله عنه لما تابَ من ذنبه وطلبَ إقامة الحدِّ عليه[1]، وهذا يفهمه المؤمنون بلقاء الله تعالى، والأمر ليس كما يستخدمه الزنادقة حين يستهزؤون بهذه الإحالة ليعطوا أحكام الشرع كما

[1] «صحيح مسلم»: ١١/١٦٦/ح٤٣٨٥.

هو شعارهمُ الكُفري: «الدين لله والوطن للجميع»، وذلك لإسقاط أحكام الشريعة في الدنيا وتركها للآخرة التي لا يؤمنون بها.

وإحالة العدل المُطلق إلى يوم القيامة، كما إحالة حلِّ كلّ الخصومات بين النَّاس هناك يُبيِّنُ حِكمةَ الربِّ في وجود الشرِّ في الوجود، إذ بغير الإيمان بالآخرة لا يمكن فهم حِكمة الله في هذا الباب، وهو الباب الذي وَلج منه عامّة المُلحدين والكافرين حيث وقفتْ عقولهم عن إدراك الألم والظُّلم والشرِّ في حياة البشر، فاتهموا الربَّ بما لا يليقُ بصفاته وأفعاله، وهذا من ضِيقِ عقولهم وفساد أحكامهم، ولما سأل الملائكة ربّهم عن حِكمة وُجُودِ هذا الإنسان الذي وُصِفَ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة: ٣٠]. فإنَّ الله رد عليهم بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة: ٣٠]، فهي سوقٌ تمضي إلى مُستقرها ومقصدها وهو يوم الجزاء والحساب، ويمضي النَّاس هناك إلى مُستقرهم الأبدي إمّا إلى جنَّةٍ وإمّا إلى نارٍ.

والأمر ليس بعيدا، لأنَّ كلَّ آتٍ قريب، ويكفي أنْ يعلمَ المرء أنّه إن مات فقد قامت قيامته الصغرى.

قال ابن كثير: «اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مُستقلات كلٌّ منها مُنفصلة عن التي قبلها، حكم برأسها، قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسي، فإنها أيضاً عشرة فصول كهذه»[1].

آية الكرسي عشر كلمات مُستقلات في صفات الربِّ وأفعاله، وهذه عشر كلمات مُستقلات في قوام حياة المؤمنين في الأرض مع الأغيار والمُفترقين والمُخالفين.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ١٦﴾ [الشورى: ١٦]. في هذه الآية يحصِّنُ الله المؤمنين

[1] «تفسير القرآن العظيم» المشهور بـ«تفسير ابن كثير»: ٧/١٧٩ .

من شُبه الكافرين وخاصّة أهل الخُصومة والجِدال منهم، فإنَّ هؤلاء حتى مع حصول الهداية في قلوب المؤمنين واستقرارها إلاَّ أنّهم لا يَكُفُّونَ عن محاولاتهم في ردّ المؤمنين إلى الكُفر، فهم كسيدهم إبليس لا يؤمنون باليأس، ولا ينقطع من قلوبهم رجاء عودة الجاهليّة وانقلاب المؤمنين إليها، ولكن تأتي هذه الآية لتمنع هذا شرعاً عامّاً يردّ كلّ حجّة إلى البُطلان والانقطاع، وقدراً أنَّ مسيرة الإيمان قد استقر أمرها واطمأن أهلها بها فهي ماضيةٌ إلى مستقرها ولا عودة إلى الجاهليّة.

لقد استجاب المؤمنون لربِّهم، وأسلموا قلوبهم له، وبانتْ لهم حُجج الفِطرة أنَّ رسول الله صادقٌ، وأنَّ شرعه هو النُّور والهداية، وبانَ لهم أنَّ حُجَجَ الباطل كالباطل نفسه، وأنّها مدفوعة بالفِطَر، ولا رُوحَ فيها، ولا تُرَوَّجُ إلاَّ على أصحاب الأهواء والشَّهوات وضِعاف النفس، فستمضي المسيرة ولن ترتدّ لِتقفَ مع هذه الشُّبهات ولو لحظة.

وهذه الآية وهي تقطع بأنَّ حجج الباطلة ضعيفة باطلة، قد دُفِعَتِ بالحقِّ والعلم إلاَّ أنّها كذلك تُقرر أنَّ حُجَجَ الباطل لا تُدفع بالعِلم فقط، ولا بإظهار كونها ضعيفة جاهلة، بل إنَّ دحضها الأكبر هو الاستجابة لأمر الله تعالى، والعمل بالحقِّ والذهاب معه إلى أهدافه ومقاصده، فالله جلَّ في عُلاه يُقرر أنَّ حجج المحاجين بالباطل داحضة بعد حصول الاستجابة الإيمانية مِن الأتباع، وهذا من معنى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣، الصف: ٩]. فتمام الهُدى وتمام الحقِّ حصول الظُهور والغَلبة، وهذا ما دعا إليه أتباع إبراهيم الخليل عليه السلام بقولهم: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [الممتحنة: ٥]. فإنَّ مِن الفتنة حصول غلبة الكافرين واستمرارها دون تحقيق نصرٍ للمؤمنين، فهذا يفتن أهل الإيمان بضُعفهم كما يفتن أهل الشرك بغرورهم واستعلائهم، ولذلك يهدي الله قلوبَ أوليائه بهذه الآية إلى أن استجابتكم لله وثباتكم على الحقِّ وعَملكم بأمر الله يحقق ضعف حُجج الباطل ودفعها،

وأغلب الناس يدخلون مع الحقِّ إنْ كان منصوراً كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ [النصر: ١-٢]، وحين يضعف الحقُّ وأهله يكون هذا سبباً لقوّة حُجج الباطل ورَوَاجِهَا على الجهلة والضعفاء، وهذه دعوةٌ ربَّانيَّةٌ للمؤمنين أن يستجيبُوا لله ويلتزموا أمره ليحقق الضُعف في الباطل، فإنْ حصل فيهم ضُعْفٌ ومعصيةٌ، أو حصلَ منهم تردد في الحقِّ كان للباطل صَوْلَة عليهم وعلى الحقِّ.

وفي هذه الآية بيان عِظَمِ مرتبة المُستجيبين له سبحانه وتعالى، فكما أنَّ القرآن وأدلّته حُجج الحقِّ العلميَّة فإنَّ المُهتدين والمُستمسكين بالحقِّ هم حجج الله تعالى سواء، يتحقق بهم قوّة الحقّ وضُعف الباطل، وكلما زاد تمسكهم بالحقِّ كان حجّة الحقِّ بهم أقوى، وهذا بيِّنٌ في سِيَرِ العُلماء عند المحن، فإنَّ كلماتهم الإيمانيّة لحظةَ الابتلاء ومواقفهم في مواقف المُساومة لَتهدي النَّاس إلى قوّةِ الحقِّ وقوّة أدلّته، وضُعف الباطل ودَحْضِ أدلّته، فالمؤمنون آياتُ الربِّ سبحانه وتعالى في صِحَّةِ الحقِّ كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾ [سبأ: ٦]. فالله الغنيّ وهو الحقُّ جلَّ في عُلاه، وقوله الحقُّ، وكلماته الحقّ يستشهد على الحقِّ بعبيده المُستجيبين له، ومَن عَلِمَ هذه المرتبة عَلِمَ فَضْلَ الله تعالى عليه في حصولِ البلاء له، وعَلِمَ فَضْلَ الله تعالى حين أقامه موقف الشهادة على الحقِّ والإيمان، وفِقْهُ هذه الحقيقة يدلّكَ على فقه العلماء الذين أجازوا للمسلم المجاهد أن ينغمس في صفوف الكفار حتى لو لم يَرْجُ النَّجاة لِعِلَّةٍ واحدةٍ وهو إظهار محبة المسلمين للقاء الله تعالى والرغبة في الجِنان، ولقد كانت هذه المواقف من الصحابة وتابعيهم سبباً في هداية النَّاس ودخولهم في دين الله تعالى، ولولا وجود المُنافقين والمُتساقطين في زمنٍ من الأزمان وخاصّةً من أولئك المُنتسبين للعلم الذين يُشككون في مواقف

الإيمان وينفون عنها صفة الشرع والدين لَرَأَيْتَ أثر هذه الأعمال في إسلام النَّاس ودخولهم في الدِّين الحقِّ، لأنَّهم بكلامهم هذا يُشككون النَّاس في الحقِّ ويدفعونهم عنه، فهم كأفاعي الشرِّ وقفتْ على شفيرِ بئرِ الحياة والنُّور تمنعُ النَّاس عن وُرُودِهِ، وتَصُدُّهُمْ عنه، فما أعظمَ مَن أقامه الله دليلاً على الحقِّ، وما أخسَّ وأسفل من قام صاداً عن الحقِّ مانعاً عنه.

وفي هذه الآية بيان مرتبة الصَّادِينَ عنِ الحقِّ والمُعرضين عنه، فهم مع ضلال أدلّتهم إلاَّ أنَّ عليهم غضباً من الله ولهم عذابٌ شديدٌ، والأمر كما هو بيِّنٌ ليس آراء تتضارب ثمَّ يُقال لكلٍّ رأيه واختياره، فعالم الحُجج والأدلّة كعالَم العمل، من أخطأ في العمل فإنَّ له العقوبة، وكذلك مَن تابع أدلّة الباطل وأصرَّ عليها بعد ظهور باطلها، فهو كذلك معاقبٌ، ولا يُقال: له حريّة الرأي والاختيار، فعالَم الفكر لا يقلّ خطورة عن عالَم العمل والسلوك، بل إنَّ عالَم السلوك والعمل هو إفراز عالَم الفكر والرأي فالمرء لا يختار عملاً إلا ما كان مُعَبِّراً عن رأيه وفِكره، ويدلّكَ هذا كذلك على وجود قواعد تحكم عالَم الفكر والرأي كما تُوجد قواعد وشرائع تحكم عالَم العمل والسلوك، فالاحتجاج بحريّة الفِكر أو الإبداع على جواز اختيارِ المرء ما يُريد مِن قِيَمٍ فِكريّةٍ وعقليّةٍ هو اجتماعُ أقوامِ سوءٍ، دافِعُهُمُ الشرُّ، ومقصدهمُ الشرّ، لكنهم يَتَخفّوْنَ بهذه الشعارات التي راجَ سوقها في زمن الجهل وغِياب الحقِّ وغُربته.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى: ١٦ - ١٨].

هذا تحصيلٌ إيمانيٌّ آخرُ يُبيِّنُ الله فيه مرجعيَّة الحقِّ والقِيم والأفكار والآراء، فهو كتابٌ لا يحكي قِصَصاً لِيُسَلَّى بها، ولا أُنزل من أجل تلاوة كلماته وُقُوفاً على

حروفها من غير تدبُّرٍ، بل هو كتاب الحقِّ المُطلق، وهو الكتاب الذي يُبَيِّنُ الله فيه كلّ أسئلة الوجود والإنسان، كما يكشفُ فيه عالَم الغيب الحاضر في الوجود المشهود، والغائب عن الوجود المشهود، فهو كتاب الحقّ، وهو كتاب ميزان الحقّ، لا يُكالُ إلاَّ فيه لأنَّه الحقّ والعدل والصدق، لأنَّه كلمات الله تعالى وعلمه، فهو الذي خلقَ وعلّمَ وهو الذي تكلَّم وبلَّغ، والمُصيب في كلِّ قولٍ هو المُهتدي به، والواصل إلى أهدافه في العدل والنَّجاة هو العامل به، فهو كتابٌ مُفَصَّلٌ لا تغيبُ حقيقة وُجوديَّة عنه حتى يذهبَ إلى غيره، وكلَّما اختصم النَّاس في أمرٍ فوردوا إليه مُسترشدين إلاَّ وقد صدروا عنه مُهتدين، لا يعزبُ عنه حقٌّ كما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلفه.

فهذا كتابُ الحقِّ، وهو إذ يقول الله عنه إنّه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ يعني أنَّ كلَّ حقٍّ في الوجود المشهود والغائب فيه، سواء دقَّ هذا الحق أو عَظُم، وهو كتاب الميزان، إذ يحكم على كلِّ قولٍ بما يستحق، ويُقِيمُ كلّ رأيٍ على وجه العدل والإنصاف، والبشريّة بأسرها لن تهتدي إلى حقٍّ تامٍّ في أمرٍ مِن أمور معاشها، أو في رأيٍ في بابٍ من أبواب العِلم، أو في حُكْمٍ من أحكام التشريع إنْ تخلَّت عن هذا الحقِّ وهذا الميزان، إذ لا منفذ لهم إلى الحقِّ، كما لن يحصل لهمُ العدل والميزان إلاَّ إن أخذوا به، وكلّ زعمٍ أن مجموع البشريَّة لا آحادها فقط يمكن لها أن تُدرك حقّاً تامّاً في مسألة من مسائل الوجود خارج الوحي هو زعمٌ باطلٌ ضالٌّ، قاله بعض المساكين في الماضي حيث زعموا أنَّ علوم الفلاسفة في حِكمتها هي علوم القرآن في نصوصها، كما زعموا أن موازين المَنطق الإنساني هي عينها موازين القرآن الإلهي، فلم يكن أمرهم إلاَّ جهلاً بالقرآن وعُلومه، وتهويناً لأسلوبه، واحتقاراً للعاملين به والتالين له على وجه التعبُّد والتأليه، كما كان يُجمع على ذلك كلّه تعظيم هذه العلوم التي لم تنقذ أهلها، ولم تزدهم إلاَّ فُرقةً، ولم تَهْدِهِمْ إلى هِداية القرآن وأعظمها توحيد الله وقوله هنا: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾.

واليوم يُنفخ بنفس الطُّنْبُورِ السيئ حين يزعم أفراخهم أنَّ علوم القرآن والوحي هي عينها علوم المُعاصرين، وأنَّ شرائعه هي شرائعهم، وأنَّ ما يستحسنه أربابهم وآلهتهم هو عين ما استحسنه القرآن وآياته، فلم يزدْ الأمر إلاَّ هُجْرَاناً للكتاب وإقبالاً على هذه الآلهة التي أُسْبِغَ عليها صِفات الحِكمة والعدل والتشريع الحسن.

هذا الحقُّ الذي يَهدي ويُعلّم ويُرشد، وهذا الميزان الذي يحكم ويقضي ليس كما يقوله بعضهم أنّه كتاب عُمومات، فالحق الهادي لأرشد السُّبل لا يرفع كلمات حسنة ليترك النَّاس يملؤونها من جهة أنفسهم، والميزان العادل لا تكون درجات حكمة عائمة غير دقيقة مُفصّلة لكلِّ كلمةٍ وحركةٍ ورأيٍ، فالحقُّ الذي يهدي المُسترشد هو الحقّ الذي يقودكَ في كلِّ الدروب والمُنحنيَات، لأنَّه يقول لك ابتداءً: ﴿ٱتَّبِعْ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، [النحل: ١٢٣]، فهو يَعلمُ منك الجهل والظُّلم كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢﴾ [الأحزاب: ٧٢]، أي ظلوماً في حُكمه، جهولاً بالحقِّ، فأنزل إليه الحقّ والميزان ليأخذ به بعيداً عن ظُلمه وجهله، ذلك لأنّه لو تُرِكَ لحظةً لنفسه لَتُرِكَ لِهواهُ الذي لا يأتي إلاَّ بالجهل والظُّلم.

إنَّ هذه الكلمة الظالمة، والتي شاعت قديماً بسبب انبهار أهلها بإرث الجاهلين من المُشركين من فلاسفة ومناطقة، ثمَّ لَقفَهَا المُعاصرون لأنَّها تخدم أهواءهم في أن يقولوا الكثيرَ من عند أنفسهم، فيجعلوه ديناً وقرآناً بمجرّد انتسابهم للعلم والإسلام، هو الذي زهّدَ النَّاس في هذا الكتاب، وهو الذي منع إقبال النَّاس عليه تدبّراً أو استنباطاً وتفقُّهاً، وهو الذي أوصل الأُمّة إلى اليأس مِن أن تحققَ أهدافها بهذه العمومات، فرَضِيَتْ بالشعارات الإسلاميَّة ثم ذهبتْ إلى زبالات الآخرين التفصيليَّة لتملأ هذه الشعارات، فإنْ سُئِلَ أحدهم لِمَ هذا؟ قال: القرآن لم يُبَيِّن تفصيلات هذا الأمر فتركه للنَّاس ولاجتهاداتهم.

يقولون هذا في كلِّ الأبواب، وفي كلِّ العلوم، وفي كلِّ مجالات الحياة سواء الفكريَّة أو السياسيَّة أو الاجتماعيَّة أو السلوكيَّة، ولا أدري كيف ينسجم اعتقادهم هذا وهم يقرأون قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الشورى: ١٧]. فَهَبْ أنَّهم اختلفوا في أمرٍ، وكلّ أقوال البشر مختلفة، إذ لا تجد لأحدهم قولاً يُشبه قولَ الآخر فكيف يحتكمون إلى الميزان وهم يعتقدون أنَّ ما اختلفوا فيه قد خلا عن هذا الأمر ولم يأتِ على ذِكره؟

إنَّ الذي يراه المرء المُراقب لفِعْلِ هؤلاء الجهلة بالكتاب هو تصريحهم: هذا أمر دُنيا وسياسة، أو أمرُ فكرٍ ورأيٍ لا أمرَ دينٍ وشريعةٍ، يقول هذه الكلمات أصحاب عمائم ولحى، وقادة أحزاب إسلاميّة، وأسماء تُنسب للفكر الإسلامي بل ويُلحق بها ألقاب التفخيم والتبجيل.

إنّها لمهمةٌ عظيمةٌ مُلقاةٌ على أهل الدين والتقوى والعِلم في إعادة الجادّة لهذا الحقِّ والميزان، وذلك ببيان مَعانيه وحقائقه، والجلوس للنَّاس في مساجدهم ونواديهم، وفي الكُتب وفي الخُطب لتعليم النَّاس هذا القرآن وتفسيره، والردِّ على أباطيل النَّاس بآياته، فالقرآن ليس حمَّال أَوْجُهٍ كما يَنْسِبُونَ إليه، وكما يَنْسِبُونَ هذه الكلمة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ظُلماً وعُدواناً، بل هو كتابٌ مُفصَّلٌ ومحكَّمٌ كما قال الله عنه، لكن الجريمة التي تمارس عليه هو جعله قراطيس يُبْدُون بعضه ويخفون بعضه، ويقولون صدر الآية ويخفون تمامها، كما أنَّهم يذهبون إلى القرآن بتصوراتهم الجاهليَّة والذاتيَّة وهم على يقينٍ منها ثم يبحثون عما يُوافقهم ليّاً وقَلْباً للآيات، يدفعهم الجهل والخوف من إظهار الحقِّ والصَّدع به، والانبهار بعلوم الجاهليين أنَّها الحقّ والسبيل القويم.

وقوله تعالى: ﴿ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الشورى: ١٧]. هو مُنْتَهَى المدح والتعظيم، فهو حقٌّ في نفسه، كما أنّه فيه الصلاحيّة لتقويم غيره، فهو لا يقول الحقَّ فقط، لكنّه يحكم على غيره من الأقوال والآراء بالعدل والإنصاف، والشيء قد يكون حقّاً

في نفسه لكنَّه لا يصلح أن يكون قَيِّماً على غيره بالعدل، كشأنِ المرءِ الصالح في نفسه لكنّه لا يستطيع أن يحكم على الأُمور والنوازل والقضايا، فهو ممدوحٌ من جهةٍ لكنّه ناقصٌ من جهةٍ أُخرى، وتمام المدح أن يكون صالحاً في نفسه قائماً على غيره بالحقِّ والعدل.

وكذلك من معاني الميزان هو التشريع بالحقِّ كقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ [الحديد: ٢٥]، وهذه الآيات هي بعض معاني الآية التي هنا في سورة «الشورى» لا معناها الكُلي، وليس كما قال بعض أهل العلم، فأن يكون الكتاب ميزاناً في نفسه هو أعظم من أن يقرنَ مع الميزان في الإنزال، وهذا هو شأن القرآن فإنّه حقٌّ في نفسه وميزانٌ لغيره.

واقتران أمرِ هذا الكتاب وحقيقته وصفاته مع ذكر الساعة يدلُّ على أمورٍ أهمّها: أنَّ المرء لا يمكن أن يُدرك حقيقة هذا الكتاب وصفته إلاَّ بالإيمان بالله والآخرة كما قال تعالى في سورة «الأنعام»: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾ [الأنعام: ٩٢].

........[1][قال أبو جعفر: أي: ومن كان يؤمن بقيام الساعة والمعاد في الآخرة إلى الله، ويصدق بالثواب والعقاب، فإنه يؤمن بهذا الكتاب الذي أنزلناه إليك، يا محمد، ويصدق به، ويقر بأنَّ الله أنزله، ويحافظ على الصلوات المكتوبات التي أمره الله بإقامتها، لأنه منذر من بلغه وعيد الله على الكفر به وعلى معاصيه، وإنما يجحد به وبما فيه ويكذب، أهل التكذيب بالمعاد، والجحود لقيام الساعة، لأنه لا يرجو من الله إن عمل بما فيه ثواباً، ولا يخاف إن لم يجتنب ما يأمره

[1] سقطٌ بسبب فُقدان ورقة من الأصل، وسنعمل جاهدين بإذن الله تعالى على إيجادها وإكمال النقص.

باجتنابه عقاباً... وإيمان من آمن بالآخرة ولم يؤمن بالنَّبي عليه السلام ولا بكتابه غير معتد به.... هو إيمان لا تُدركُ حقيقةُ الكتاب بدونه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ۝٩١﴾ [الأنعام: ٩١] أي: ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يلعبون، حتى يأتيهم من الله اليقين فسوف يعلمون ألهم العاقبة، أم لعباد الله المتقين؟.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] أي فيما وجب له واستحال عليه وجاز، قال ابن عباس: «ما آمنوا أنه على كل شيء قدير».

وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء][1].

وقول تعالى في نفس السورة: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء: ١٢٣]. ليس بأماني النَّاس، ولا بصُراخهم، ولا حيث أرادوا، ولا مِن حيث أرادوا، بل يجريها جلَّ في عُلاه على معنى الحقِّ والصراط المُستقيم، فهذه الصفات لربِّنا العظيم هي التي يجهلها هؤلاء الكافرون، فيصرّحون بالكفر، ويُلقون كلمات التحدي، فلا يرون شيئاً، فيزداد كفرهم واستهتارهم حتى يأتيهم أمر الله وآياته وعِقابه بغتةً وهم لا يشعرون.

والمؤمن على الضدِّ من ذلك، فلا يغرّه صبر الله عليه، كما لا يغرّه تأجيل الله له، ولذلك إن رأى صبر الله عليه في أمرٍ أتاهُ سارعَ إلى التوبة والإنابة، فيحمد صبر الله أنْ أجّله، ويخاف الساعة كما تخافها كلّ مخلوقات الله تعالى، كما قال

---

[1] المرقوم بين المعكوفتين هو من اجتهاد تلميذ الشيخ، وقد حاول تلميذ الشيخ أن يربط بين الفقرات بما هو مرقوم اجتهاداً منه إن لم نتمكن من إحضار الورقة المفقودة.

رسول الله ﷺ عنها وحالها يوم الجمعة من إشفاقها من هذا اليوم لأنّه تقوم فيه الساعة[1].

وإشفاق المؤمنين منها لِهَوْلِهَا فإنَّ ما فيها من الآيات والحوادث، وما يحصل للنَّاس فيها من الجمع والحشر لَيُفَتِتُ القلوب ويُبْكِيهَا خشيةً، وكيف لا يكون كذلك والله يقول عن الساعة: ﴿ **يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢** ﴾ [الحج: ٢]، وقد كان الحبيب المصطفى ﷺ هو أعلم النَّاس بأمرها، ولذلك كان أشدَّ النَّاس خشيةً منها، وكان يقول: «**كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ، يَسْمَعُ مَتَى يُؤْمَرُ، فَيَنْفُخُ..**»[2]، وكان ﷺ يقول: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**»[3]. فلما سمع الصحابة ﵃ ذلك منه بأبي هو وأمي جعلوا يبكون ولهم حنين.

نعم حقّ للقلوب المؤمنة أن تبكي خشية هذا اليوم وهي تعلم قوله ﷺ: «**يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ** - أي الحساب - **لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ. مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا**»[4].

والإيمان بالآخرة هو آخية هذا الدين ورُكنه الركين بعد الإيمان بالله وبالرسل، وهو مادّة القلوب في الطاعات العظيمة، والمرء لا يكون عظيماً في هذا الدين لا علماً ولا عملاً إلا إنْ كان ذاكراً لها في كلِّ موقفٍ وفي كلِّ عملٍ، فمدد الإيمان بها هو مدد الأولياء في شجاعتهم وكرمهم وثباتهم، وهو مادّة تنزل العلوم والفقه على الله وعلى رسوله ﷺ، وهو مبعث الإرادات للمعالي والقيَم والفِداء

[1] الحديث رواه أحمد في «المسند»: ٤/٤٤٩ح١٥٢٤٤، وابن ماجه في «السنن»: ١/٣٤٤ح١١١٧ وغيرهما.
[2] «مسند أحمد»: ١/٥٣٦ح٣٠٠٩.
[3] «صحيح البخاري»: ٤/١٦٨٩ح٤٥٠٣.
[4] «صحيح مسلم»: ١٧/١٥١ح٧١١٣.

والتضحية، كما أنه مانعُ النقائص والذنوب والدنايا، فالإيمان بالدار الآخرة لا يلتقي مع الجُبن ولا مع البُخل ولا مع الاستهتار، ولذلك فهو وقود المعالي ومانع النقائص.

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى: ١٨]، فهم بعيدون عنِ الحقِّ، ومغرقون في الضلال والجهل والمُكابرة، ومهما حاولوا السَّداد فلن يُصيبوه، ومهما حاولوا اجتناب الشرور فلن تخطئهم، ومع الكفر بالآخرة فلن يُسمى أمرٌ يأتونه خيراً، ولا يجوز نسبته للحَسن، كما ليس له نصيبُ الحسنات، ومن لم يُصِبْ هذا الحقّ فهو أعجز من أن يُدرك حقّاً في الوجود، وهو أبعد من أن يهتدي إلى القِيَم التي تحقق له السعادة والنَّجاة.

إنَّ مجرّد المجادلة بها يعني أنَّ هذا المرء مقلوب العقل، ومنكوس الفطرة، وذاهب كل مذهب في الغِواية والبُعد عن الرشاد، فبهذا الميزان يُقيِّمُ القرآن الأُمم والأفراد، ويُقَيِّمُ الأعمال والأقوال، فلا حَسَنَ إلاَّ مع الإيمان بالدار الآخرة، وكلّ ما خلا عنها فهو باطلٌ خواء.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ [الشورى: ١٩].

لقد تقدّم في السورة بعض صفات الربِّ جلَّ في عُلاه وأفعاله، ومنها قوله: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشورى: ١٢]، وها هنا يُبيِّنُ جلَّ في عُلاه مُوجِبَ هذا الفعلِ وهذا الرزق، وهي صفته الحسنة اللطيف، فإنّه سبحانه وتعالى للطفه بعباده يرزقهم، وهذا كقوله تعالى في سورة «الحج»: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الحج: ٦٣]، وصفة اللطف صفةُ ذاتٍ وصفةُ فِعْلٍ، واللطف في فِعْلِهِ هو الرفق بعبيده واللين معهم، ولذلك هو يرزقهم حتى مع عجزهم، كما يرزق الجنين في بطن أُمه، ويرزق المولود مع عدم قُدرته، وهذا اللطف من غير ضُعْفٍ، ولذلك قال في الفاصلة: ﴿وَهُوَ

﴿ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾، وأما أنَّه اللطيف بصفاته فإنّه سبحانه خفيٌّ عن البشر ولا يرونه إلاَّ يوم القيامة، هذا مع عظمته ونوره الذي لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، واللطف في الأشياء يكون بسبب ضعفها التي تُوجب الرِّقَة والخَفاء، وربُّنا سبحانه وتعالى ليس كمثله شيءٌ، ولذلك قال رادّاً على هذه المعاني عنه: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ ومناسبة ذكر هذه الصفات في هذا السياق لأمور **منها**: إنَّ خفاءَ أمرِ الآخرة عنِ البشر هو مِن لُطفه بهم، ومع أنَّ الساعة آتيةٌ إلا أنّه يرزقهم ويُعطيهم، وكذلك مع أنَّ الكافرين يُنكرون أمر الساعة إلا أنّه لطيفٌ بهم فيحدث لهم من النِّعم التي يعيشون بها من رزقه.

ومنها: أنَّ القرآن يُقرن كثيراً بين علم الله تعالى وكلماته وهديه ونوره، وبين خلقه للخَلق، فالأول للذِكر، والثاني للفِكر، وإدراك القلوب هديَ نوره إنّما يكون بإدراكهم حِكمته وتدبيره لخَلقه، ولذلك تجد في سورة «الروم» أنّ ذِكر الرسل وما أُرسلوا به من البيِّنات قد جاء بين آيتين من بيان خَلقه وقُدرته فقال سبحانه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الروم: ٤٦ ـ ٤٨]، وكان رسول الله ﷺ يجمع بينهما في دعائه فيقول: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ مُجْرِيَ السَّحَابِ وَهَازِمَ الأَحْزَابِ اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ**»[1].

[1] «سنن أبي داود»: ٧/٢٩٤/ح٢٦٣٢.

ومنها: أنَّ اقترانَ العِلْمِ بالخلق هو من تمام المدحِ والحُسن، لأنَّ العلم كمالُ النفس في ذاتها، والخلق قُدرة النفس على غيرها، فهو إذْ كتابه الحقّ والميزان، فكذلك عطاؤه لطف مع تمام القوّة والعزّة.

ومنها: أنّ في قوله: ﴿**يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ**﴾، هو عين حِكمته في: ﴿**يَهْدِى مَن يَشَآءُ**﴾، فهذا يقع لحكمة منها استعداد القلوب للهداية ونكارة بعض القلوب لها، وهذا يُوقعه على معنى الحكمة للابتلاء ولقاعدة الحقّ: ﴿**شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**﴾ [إبراهيم: ٧]، وفي كِلَيْهِمَا: ﴿**لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾**﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ويشتركان؛ أي الرزق والعلم في أمورٍ كثيرةٍ منها أنَّ كِليهما يقعان على طالبهما والساعي إليهما، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**مَنْهُومَانِ لاَ يَشْبَعَانِ: طَالِبِ عِلْمٍ، وَطَالِبُ دُنْيَا**»[1]، ولذلك كان عقب ذلك:ـ

قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى: ٢٠].

وذلك لّما أمر الله رسوله بالعدل في المُخالفين، فيُثْبِتُ لهم حقوقهم مع كُرههم وعدائهم له، يُبَيِّنُ الله سبحانه وتعالى قاعدة العدل في العطاء والرزق، فحيث سعى امرؤ لأمرٍ أدركه، وحيث نوى قصداً أصابه، وهذه قاعدة العدل في الوجود، إذ البغض والحبُّ ليس لهما أثرٌ في منع حقوق النَّاس والإنصاف لهم، وهذه القاعدة إذ يُوجبها الله على نفسه في مواطن من كتابه كذلك يُوجِبها على المؤمنين كما تقدّم قبل قليل، وهي تُبَيِّن افتراقَ الحقوق، فلا يجوز ظُلْمُ الظالم بل يجب الانتصاف منه، ولا يجوز محاباة المُؤمن في تعديه وضُعفه وتقصيره، وهذه الآية وهي تقرر هذه القاعدة فإنّها تُعلم المؤمن أنْ لا يسبق، وأنَّ تركَ أمرِ الدنيا

[1] «سنن الدارمي»: ١/٩٦/ح٣٤٠. وللحاكم في «المُستدرك على الصحيحين»: ١/١٦٩/ح٣١٨: «مَنْهومانِ لا يَشْبَعانِ: مَنْهومٌ في عِلْمٍ لا يَشْبَع، وَمَنْهُومٌ في دُنْيا لا يَشْبَع».
وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ولم أجد له عِلَّة.

للعُصاة فساد لهذه الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ [النساء: ٥]. فالمال وهو حرثٌ من حرثِ الدنيا جعله الله قوام الحياة، وهكذا أسباب الفعل وأركانه من القوَّة لا يجوز للمسلم تركها، لأنَّ تركها يعني ترك الحياة لخصوم الإيمان والنُّبوَّةِ.

وفيها كذلك حصول الزيادة على النيَّة الصالحة لقوله تعالى: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾، فمع الفساد يكون العدل والرحمة، ومع الصلاح تكون الرحمة والإحسان والفضل، وهذا ينبئ كلَّ ناظر أنّه بوقوع الخسارة للمؤمنين في موقعةٍ من المواقع أو في عصرٍ من العصور يعني أنّهم يستحقون أكثر، وأنَّ أفعالهم تُوجِب أشدَّ مما أصابهم، ولكن صرف عنهم الكثير من الشر بسبب إيمانهم، كما أنّهم بالقليل من العمل قد حصل لهم أكثر مما يُوجِبُ عملهم، فعلى الذين ينظرون إلى السماء مُتسائلين: لِمَ هذا؟ أن يستحُوا من الله ومن أنفسهم، لأنَّ ما هُمْ فيه من أنفسهم، إمّا بتقصيرٍ وكسلٍ، وإمّا بضعفٍ وعجزٍ، وعلى المؤمنين أن يحمدوا ربَّهم على هذا البلاء إذ لم يكن أكبر وعلى العطاء لأنَّه أبلغ مما يستحقون وأعظم، لكنَّ النفوس إذ تجهل فإنّها تعمي بصرها عن رؤية المُعادلة، ورؤية الضعف أو المعصية فتتساءل: لِمَ هذا؟ أو تقول: نحن نعمل، ولكن لا نرى النتائج، وهم لا يرون أن ما عليه الأُمة من الضعف والمعصية يُوجِب زوالها وذهابها، ولكن للطف الله بهم يُبقيهم، وأما أفعال العاملين وجهادهم فإنّه والله أضعف مِن أن يُذكر مقابلة قوّةِ الشرِّ وغلبته وسُلطانه، ولكن ما يحصل به مِن البركة يعجزُ القلم عن وَصْفِهِ، والمرءُ يرى أنّه بالفِعل القليل مِن قِلَّةٍ قليلةٍ لا تكاد تُذكر في أعداد الأُمَّة الغافلة العاصية الجاهلة يقع مِن الخير العظيم، ويحل لدين الله مِن النَّصر والتأييد والغَلبة ما يبهر قلوب وعقول المُراقبين من غير المسلمين قبل المسلمين أنفسهم.

إنَّ العاقل المُتفكِّر لا يقول: نحن نعمل ولا نرى النتائج، ولكنّه يقول: الحمد لله الذي يُكرمنا بهذه النتائج العظيمة مع القِلَّة والضُعف والجهل، ذلك بأنَّ الأُمَّة وقد تَاهَتْ في الجهل والضُعف طويلاً، وكان خُصومها يعلمون ويكدّون ويجهدون في تحقيق أهدافهم، فلم تستفقْ إلاَّ على حصونها قد ضُرِبَتْ فانهارتْ، فدخل عليها خَصمها في كلِّ جوانبها، وكان أعظم مَقَاتِلِهَا هو إرادتها وعُلومها، قد حطمها الصوفيَّة والإرجاء وخُرافاتها، لا يسريان في العوام والهامش، ولكن يُعَشِشَانِ تحت العمائم وفي الرعاة، فلمّا حصل الانهيار لم تكنْ الإقامة سريعة، بل كان ثمة نهوضٍ بلا رؤوسٍ، فهي رقصات مذبوح لا غير، وليس العجيب أبداً في حصول هزيمة في معركة، فتلك سنَّة جارية حتى على الأنبياء كما هو معلوم من حديث ابن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُ وخبر أبي سفيان قبل إسلامه أمام هرقل[1]، لكنَّ العجيب أنْ انهارت الأُمَّة، لأنَّها منخورة الأركان من داخلها قبل أن يطحنها عدوها، ومَن رأى حال العلماء والحكماء والقادة في الأُمة عند وطء أعدائها لها عَلِمَ أنَّ القَوْمَةَ ليست قريبة، لأنَّ البدن محطمٌ من داخله، فصار الفارق بين عِلْمِ الأُمة وإرادتها وقُوّتها وبين عِلْمِ أعدائها وإرادتهم وقُوَّتهم كبيراً لا يُحدّ، ولولا بقاء الطائفة المنصورة بالعِلْمِ والجهاد تُعيد نماذج الإيمان القرآني حيناً بعد حينٍ، ولمسةً بعد لمسةٍ فيُبارك الله في هذه اللمسات الحانية، والمواعظ العمليّة، والمواقف الراشدة، لَكان مُسمَّى الإسلام، وأُمَّة الإسلام أثراً بعد عين، مع أنَّ **خصوم هذه الطائفة المنصورة بالعلم والجهاد الذي من داخل الأُمة** أشدُّ مِن خصوم الأُمة الخارجين إلاَّ أنَّ فضلهم على الخصوم يسير كما يسير فضلهم على بقية الأُمة، لأنّه في حالاتٍ كثيرةٍ حيث ينشغل أعداء الأُمَّة بالطائفة المنصورة وإفنائها يتركون لهؤلاء البقاء والوجود، ولو فرغوا من سدِّ الإيمان الجهادي

---

[1] «صحيح البخاري»: ١/٧/ح٧، ٣/١٠٧٥/ح٢٨٧٤، ٤/١٦٥٧/ح٤٣٥٠. «صحيح مسلم»: ١٢/٨٣/ح٤٥٦٢.

والعلمي الذي تشغله هذه الطائفة لالْتَفَتُوا إلى هؤلاء ولن يزيدَ أمرهم في الإزالة قدر فُوَاقَ ناقة.

إنَّ بركات هؤلاء القِلَّة، وأفعالهم العظيمة في معناها والقليلة في عَددها لَتُحقق معنى قوله تعالى: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾. وهو أحد دلائل الحقِّ لمن اهتدى في صواب هذه الطائفة وسدادها للدخول في الصورة القرآنيّة الإيمانيّة.

ومن معاني هذه الآية أنَّ الله قصر العطاء لطالب الدنيا على طلبه فقال: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، وأما وعده لطالب الآخرة فأطلقه فقال: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ ولم يقل: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، مما يدلُّ على أنَّ طالب الآخرة بعمله الصالح موعودٌ بكلِّ فَضْلٍ وعطاءٍ وكرامةٍ في الدنيا والآخرة، وهذا بيِّنٌ في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٢٠].

وكذلك مِن هدي هذه الآية أنَّ طالب الدنيا لا ينال كلَّ مَسعاه بل يصيب بعضه وذلك لقوله: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، هذا إذا كانت «من» هنا تبعيضية ولم تكن بيانية، والأولى عندي أنَّها تبعيضية فإنَّ طالب الدنيا يُريد بدنياه الكثير، ولو نالَ كلَّ ما تمناه لما كان شقياً فيها ولما وقع عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]، وذلك لأنَّ العمل بالباطل أو العمل للدنيا من غير رجاء الآخرة يمنعه من إدراك الحقِّ اللازم لكلِّ خيرٍ، فلذلك يناله ما خلص إليه بعد ردِّ الفساد الكثير مِن عمله، وهذا معنى قوله تعالى في سورة «هود»: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [هود: ١٥]، أي إنّه يدرك من النتائج بالأعمال التي يجريها على وِفْقِ السُّنن، والأعمال لا تُدرك على وجه السُّنن التامّة إلاَّ بموافقة الشريعة لها، وفي ذلك معانٍ باطنة للأعمال لا تُنال إلاَّ بالشرع، فإنَّ أكلَ الطعام لا يُدرك خيره التامَّ إلاَّ بإتيانه الأمر على وجهيْهِ

القَدري والشرعي، فمِن الشرعي التَسْمِية في أول الطعام والحمد في آخره، وتارك الشرعي يفوته فوائد هذا الأمر بفواته سببه.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الشورى: ٢١ ـ ٢٣].

لقد تقدَّمَ وصفُ القرآن، وتقدّم بيان شرع الله، وما وصّى الله به النبيِّين، ثمَّ بيَّنَ حال المُخالفين وواجبَ أهل الإيمان معهم، وفي هذه الآية يُبيِّنُ الله تعالى حال من اتخذ من دون الله أولياء، وحال المُعرضين عنِ الكتاب الحقّ والميزان، فهم مع كلِّ هذا النُّور والهُدى والحقِّ والعدل إلاَّ أنَّهم ذهبوا لغير الله يعبدونهم في اتخاذهم مُشَرِّعِينَ للأديان والأقوال والأحكام الضَّالّة المُظلمة الجاهلة، فهؤلاء المشرِّعون أولاً شُركاء، قد اتخذهمُ المُشركون آلهة يعبدونهم حين جعلوا لهم حقَّ التشريع في إطلاق وصف الحلال والحرام من عند أنفسهم من غير بيِّنَةٍ مِن الله تعالى، وهذا مِن أوضحِ البيَّان على أنَّ المُشَرِّع إلهٌ معبودٌ، والله هو الإله المعبود الحقّ، وهو الذي يُشرِّع للنَّاس الحقّ، وله هذا الحقّ، وأما غيره فَهُم آلهة باطلة، وهذا كلّه داخل في كلمة التوحيد ابتداءً حيث ينطقها المرء، وليست هي من العلوم الزائدة أو الخفيّة، والعامي من المسلمين اليوم يفهم هذا أكثر من دُعاة الجهل والإرجاء الذين لا يجعلون حقَّ التشريع لله، ويجعلونه من أُصول الدين وأركانه، فلو طالبتَ عاميّاً من المسلمين أن يشربَ الخمر لأنَّ جماعةً من النَّاس اتفقوا على حِلِّهَا لَرَدَّ عليكَ بلُغَتِهِ وبلسانه: إنَّ الله حرم الخمر وليس لأحدٍ غيره أن يُحلَّها، وهذا لِما يعلم أنَّ التحليل والتحريم حقٌّ لله لا لغيره.

والتشريع أمرٌ زائدٌ عنِ العمل بل هو أمرٌ زائدٌ عنِ الحُكْمِ والقضاء مع أنّهما من معانيه، والحُكْمُ والقضاءُ أشدُّ من العمل، فتسمية الحلال حراماً كُفْرٌ وردَّةٌ بالإجماع لا يخالف في هذا المعنى إلاَّ جاهلٌ أو زنديقٌ، والجهل في أهل زماننا أنّهم لا يفهمون وقائع هذا التشريع، فهم لا يعلمون أنَّ وضعَ الدساتير على خلاف الشرع تشريعٌ، ولا يعلمون أن إنشاء العقود المُلزمة الأبديّة بين النَّاس تشريعٌ، وهذا هو واقعُ الرِدَّةِ اليوم مِن قِبل طوائفِ الحُكْمِ في عموم البلاد، والطامّة قد كَبُرَتْ بدخول المسلمين في مجالس التشريع التي أَسندتْ هذا الحقَّ للنَّاس واختياراتهم لا لله تعالى وأمره، فكان هذا الفِعل هو أعظم ما أفسد هذا المعنى في أُمَّة الإسلام والعاملين والعائدين إلى الحقِّ.

ومجادلة الرؤوس المُعممة وأدعياء العِلم عن هؤلاء المشرِّعين بعدم إلحاق حُكْمِ الله فيهم تهويناً لشأنِ الشرك الذي وقعوا فيه زاد الشرّ وخلط الحقَّ بالباطل، وهذا أعظم ما يُصيب الحقَّ، وذلك حين تَغيبُ معالمه، وتختلطُ مفاهيمه فيُدْرَسُ الإسلام كما يُدْرُس وشي الثوب كما جاء في الحديث[1]، وما ضاعت الأديان وذهبت حقائقها إلا بهذا الاختلاط، ومَن تدبَّرَ هذا الأمر وتفكَّرَ في سبب وقوع العمائم في هذه الطامّة عَلِمَ أنَّ السبب هو ثقلُ الحقِّ وتوابع هذا العلم والجهر به، فإنَّ عامّة العمائم قد صارت تأكلُ رزقها من هؤلاء المُشركين، كما أنّهم يعلمون أنَّ القول بشركهم يُوجب الجهاد، وهو أبغضُ أمرٍ على نفوس هؤلاء في كلِّ زمنٍ، ولذلك يُطْمَسُ هذا الحقُّ إما بتهوينِ شأنه وذلك بردِّ قواعده كما يفعل بعض الجهلة من نفي توحيد التشريع الذي هو جزءٌ من توحيد الأُلوهيّة، أو بتمييع وقائعه بما يَدَّعِيه هؤلاء المُشركون والمُرتدون مِن حِرصهم على الإسلام

[1] «سنن ابن ماجه»: ٢/١٣٤٤/ح٤١٣٦. «المُستدرك على الصحيحين»: ٤/٥٢٠/ح٨٥١٠، ٤/٥٨٧/ح٨٦٨٣ . وقال الحاكم بعد كل واحد منهما: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

كذباً وزُوراً، أو بقيامهم ببعض أعمال الإسلام درعاً لهم من لحوق وصف الرِدَّة عليهم مع تلبُّسهم به.

والذين يريدون وجه الله ولا يلتفتون إلى أهواء الصَّادين عن سبيل الله لو قرأوا هذه الآية من غير تلبيس أحبار السوء لَعَلِمُوا أنَّ معناها كما وقع على مُشركي قريش في اتخاذهم شركاء شرعوا لهم ديناً غير دين إبراهيم عليه السلام، فإنّه واقع على طواغيتِ الحُكم في زماننا بتشريع دينٍ وأحكامٍ على غير حُكْم الكتاب والسُنَّة.

وقد تقدم أنَّ الدين هو الخضوع والامتثال والطاعة، ولذلك مَن شرَّع شرْعاً فقد أحدث ديناً، ومن دخلَ في طاعة هذا الشرع فقد دانَ بهذا الدين فهو من أهله، وقد صار عبداً لهذا المُشرِّع، وهذا ليس مفهوماً خاصّاً بدين الإسلام الذي جاء به رسول الله ﷺ بل هو دين الإسلام الذي جاءت به كلُّ الرُسل، فكلُّ الأنبياء جاءوا بالشرائع والأحكام، وكانت دعوتهم لأقوامهم أن يدخلوا في هذه الأحكام، وقد تقدّم هذا المعنى في تفسير سورة «العنكبوت»، إذ تبيَّنَ هناك أنَّ بعض الأنبياء كلوط لم يُذكر لهم أمرٌ في القرآن إلاَّ ما تعلَّق بالأحكام، وكان أقوامهم بردِّ أمرِ الأنبياء كُفّاراً، وذلك يدلُّ أنَّ الشرَّ بمعناه النُّسكي قد يغيبُ ولا يوجد في وقتٍ أو مكانٍ لكن يكون الكفر أعمالاً وأقوالاً تتعلَّق بالحُكم والقضاء والتشريع، وهذا كفر طوائف الحُكم اليوم، وهو أغلبُ ما يُقاتل عليه المجاهدون في سبيل الله تعالى، وأقربُ أحوال المجاهدين اليوم لأحوال الأنبياء هو حال موسى عليه السلام مع فرعون، فإنَّ دعوة موسى لفرعون ومَلَئه هو ترك تأْلِيهِ فرعون لنفسه على قومه وبني إسرائيل وكذلك إعتاق بني إسرائيل من ظُلم العبوديّة والسخرة له.

قوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]. لا يدل أبداً أنَّ الله يأذن لأحدٍ بالتشريع، كما لا يأذن لأحدٍ أن يكون إلهاً يُعْبَدُ من دون الله تعالى، والأمر كما قال تعالى في سورة «الحج»: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾ [الحج: ٧١]، وكما قال في سورة «الزخرف»: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥]، وكقوله في سورة «يونس»: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨].

فالشرك كلُّه غير مأذون به، ومَن زعمَ من عُبَّاد القبور والأموال أنَّ شركهم بدعاء الأموات والاستغاثة به قد أذن به الله، أو أنَّ اتخاذهم لموتى المقابر بزعمٍ أنهم أولياء شُفعاء عند الله مأذونٌ به في الشرع فهو كذبٌ على الله تعالى، وهي كفرٌ آخرٌ وأشدُّ من كُفرهم بالله وشِركهم به، ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠]، إذ هذا شأن عمل المُشركين حين ينسبون شِركهم للأنبياء ودين الرسل.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٢١]. تقدّم هذا المعنى في جريان الأقدار على ما سبق في عِلْمِ الله تعالى، فهو الصبور المُنتقم، وأعظم الفصل والحُكم هو يوم القيامة والحساب، وهذا لو فَقِهَهُ هؤلاء لَعلموا أنّه أشدُّ التهديد، فإنَّ تأجيل العقوبة يدلُّ على قوَّة صاحبه وتمكُّنه من أعدائه، ويدل على شدَّتها، وذلك كقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ [الرحمن: ٣١].

ومِن أعظم ما يُصبِّرُ قلوب المؤمنين هو مجيءُ القضاء العادل لا محالة، وهذا مما يُفرحهم يوم القيامة، إذ يرون مُستقرَ هؤلاء المُتكبرين المُعرضين وهم في حالٍ قال الله فيه: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾ [ص: ٣].

قوله: ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [الشورى: ٢١]. فهؤلاء المُشركون، وكذا أتباعهم صفتهم الظُّلم، فهم ظَلَمة إذْ تعدوا على حقِّ الله ونازعوا الربَّ في تألُهِه على خَلقه، وهم ظلمة بتشريعاتهم الظالمة الجاهلة، وأمّا الأتباع فهم ظلمة بعدم أداء حقِّ الله إليه، فهو الذي خلقهم ورزقهم ثم عبدوا سِواه، وهم ظلمة لأنفسهم إذ أوبقوها هذا المَهْيَع، وهُم ظَلَمة بدعواهم الباطل على الله تعالى.

وقوله: ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ ﴾ [الشورى: ٢٢]. فهذه مُقابل ما تقدّم من استعجالهم للساعة، وكذلك قوله عن المؤمنين: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِ ﴾ [الشورى: ٢٢]. مُقابل ما كانوا عليه من الإشفاق والخوف من الساعة كما تقدَّم من قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا ﴾ [الشورى: ١٨]، وهكذا كان عاقبة الخوف مِن الله وعذابه آمناً ونعيماً، وعاقبة الاستهتار والغرور خوفاً وعذاباً وألماً، وذلك أنَّ الله لا يجمع على عبدٍ خوفيْنِ؛ خوفٌ في الدنيا وخوفٌ في الآخرة، فمن خاف الله واتقاه في الدنيا أمَّنه يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧]، ويقول: ﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡ ﴾ [الشورى: ٢]. ذلك بأن إشفاقهم يوم القيامة لا ينفعهم في ردِّ عذاب الله تعالى، وذلك كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴾ [القصص: ٦١].

قوله تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ ﴾ [الشورى: ٢٢]. هو أقل مما لهم عنده، وهذا من أعظم الوعد وأوفاه وأحسنه، فإنَّ الراجي لربِّه والخائف منه يطلب أمراً فيعده الله

أن يُوفيه إيَّاه فإن أتاه أعطاه أعظم مما سأل، وذلك لقوله ﷺ عن الجنَّة: «**فِيهَا مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ..**»[1].

هذا معنى، ومعنى آخر أنَّه يُصبح لهم من الإرادات ما يعلمهم الله إيَّاها يوم القيامة أكثر مما يعلم النَّاس اليوم من أمور، فيسألونه بهذه الإرادات العالمة أموراً فتكون لهم.

قوله تعالى: ﴿ **عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾ [الشورى: ٢٢]. هو الجِوار، والله في هذه الآية قدَّم طلبهم على جواره بقوله: ﴿ **لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾ وذلك تحبباً لهم وإرضاءً لقلوبهم، كما أنّه إعزازاً وإكراماً لهم، وأمّا هم فسؤالهم الجِوار قبل الدار كما قالت الصدِّيقة امرأة فرعون رضي الله عنها: ﴿ **رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ** ﴾ [التحريم: ١١]، ومَن تأملَ أدبَ المؤمنين مع الله في القرآن ورحمته بهم رأى معنى الإيمان وأثره في القلوب والألسنة الشيء الكثير.

وقوله تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾** ﴾ [الشورى: ٢٢]. ذلك لأنَّ نَوَالَهُم الجنَّة أعظم ما أمِلوه في الدنيا، وهو أبلغ مما يستحقون، لأن ما أمِلوه هو النَّجاة من النَّار، وهو حقّهم في الحديث: «**أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ**»[2]، وأمّا دخول الجنَّة فهو فضل الله تعالى وإكرامه وهو الرحيم الكريم الجواد.

وقوله تعالى: ﴿ **قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ** ﴾ [الشورى: ٢٣]. فشأنُ الدعوة إلى الله أن لا يطلب الدَّاعي أجرها إلاَّ من الله تعالى، يقدّمون هذا الأمر في أول دعوتهم، كما قال الله عنهم في سورة «الشعراء» وعلى لسانهم جميعاً: ﴿ **وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾** ﴾ [الشعراء: ١٠٩][3]، وكما قال نوح في

---

[1] «صحيح مسلم»: ١٧/١٣٩/ح٧٠٨٤.

[2] جزء من حديث متفق عليه. «صحيح البخاري»: ٥/٢٢٢٤/ح ٥٩٦٧. أطرافه ٢٨٥٦، ٦٢٦٧، ٦٥٠٠، ٧٣٧٣. «صحيح مسلم»: ١/١٩٦/ح١٠٧، ١/١٩٨/ح١٠٩.

[3] تكررت الآية في سورة «الشعراء» في الآيات: ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠.

سورة «هود»: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]، وكما قال في سورة «يونس»: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٧٢﴾ [يونس: ٧٢]، وكما قال هود في السورة التي باسمه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٥١﴾ [هود: ٥١]. وقد كان من عقل ملكة سبأ في تمييزها بين الملوك وبين الأنبياء أن قالت لقومها: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٣٥﴾ [النمل: ٣٥]، فالدَّاعي إلى الله لا يسأل النَّاس أموالهم، ولا يطلب منهم أجراً على دعوته، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ لاَ نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ**»[1]، وذلك لإبعاد شُبهة التكسُّب بالدعوة فتحجب النَّاس عن قبول دعوتهم، وهذا شأن الدَّاعي والمُعلِّم والمُفتي والقاضي والمحدِّث، لا يجوز لأحدهم أن يطلب أجراً على هذه الكلمات، فإذا كان هذا هو الأصل فإنَّ دخولهم في وظائف ومُرتبات كشأن العاملين في الدنيا هو أعظم فساداً، وهو الذي حصل إذ صار هؤلاء في أعين النَّاس شأنهم شأن غيرهم من أصحاب الوظائف الدنيويّة، لا يقولون الحقَّ مخافةَ انقطاع الرزق والمُرتَّب، ويقفون على ما يقف غيرهم من طلب ما يُسمّونه الحقوق والتحسينات، فيصغر أمرهم في أعين مُستخدميهم وأعين الناظرين إليهم، ثم يحول أمر عملهم إلى فُقدان معنى التديّن والعبادة، ولا تبقى إلاَّ صورة ما عليه غيرهم من الأُجراء وأصحاب الوظائف، وهذا هو واقع هؤلاء اليوم، وهي تبدأ من القول بجواز كفاية هؤلاء عن السؤال لانشغالهم بهذه الوظائف، وهذا معنى صحيح، لكنّها في واقعها ليست على هذا المعنى، بل دخول هذه الأعمال في مسالك وظائف الدنيا بلا فوارق هو ما يجعل حالهم من السوء الذي تقدّم، يمارس عليهم من القيود والشروط والضوابط ما يمارس على غيرهم من

[1] «مسند أحمد»: ٣/٢٢٦/ح ٩٨٠٨.

عُمال الدنيا وأُجراء الأعمال، ولذلك تجد هذه الجُموع من الأئمة والخطباء والقُضاة والمُفتين وكثرتها التي ربما تضخَّمتْ بالعدد ما لم يكنْ في زمنٍ من الأزمان، فكُلّيات الشريعة ومدارس التعليم الشرعي وغير ذلك تدفع الآلاف والآلاف إلى هذه الوظائف ومع أثرهم في سداد هذه الوظائف إلاَّ أنَّ مواقف الشهادة التي حملها أهل العلم من القول بالحقِّ والجهر به تكاد لا تُوجد في هؤلاء المُوظفين، وهي في الأحرار من هذه الوظائف أكثر وأشهر.

ولذلك كان من سبيل أهل العلم الابتعاد عن السلاطين، حتى وهؤلاء على الإسلام، لأنَّ مؤسسة العلم لا يتحقق لها الشهود وقيادة الأُمة والبلاغ إلا بالاستقلال، وهذه المؤسسة لها شروطها القاسية الكامنة فيها وفي أعرافها ومشاعر الأمَّة، فلا يحصل التعديل لواحدٍ من النَّاس ليدخل في زُمرة القبول إلاَّ بعد اختبار وشهادة لرجال هذا العلم، ولهذا كانت كلمتهم لها وزنها، وفتواهم تقود الحياة، ومُراقبتهم تُثِيرُ ذُعْرَ مؤسسة الحُكم والسلطان، وهي مؤسسة شأنها في كلِّ عصور التاريخ والبشريّة أنْ تتقوّلَ وتبغي، كما يسعى أهلها إلى إدخال الجميع في سُلطانهم وسَطوتهم، وإنَّ آخر السدود في ضبط هذا التقوّل والبغي هم العلماء، وما سقطت هذه الأُمّة وتلاشى مفهومها إلاَّ بعد أن سقطت هذه المؤسسة الحامية لها، فلما سقطَ سلطان المسلمين لم تَقُمْ مرّةً أخرى لِغِياب هذا المانع الذي يحمي وُجودها، وما تصوره الإمام الجُويني ودعا إليه عند سقوط السلطان من وجوب قيادة العلماء وتوليهم لزمامها لم يتحقق لغِياب هذه المؤسسة أصلاً، وذلك بأن صارت جزءاً من مؤسسة السلطان قبل ذلك، وهذا أعظم ما وقع وأخطر ما أصاب الأُمة، لأنَّ العلماء هم قاعدة الأُمّة وحُماة وُجُودِها كما كانوا دَوْماً.

إنَّ البحث وإنْ بدأ وسيبدأ دائماً في مسألة الأُجرة على الطاعات، إلاَّ أنَّ حقائق هذه المسألة حين يُصبح لها أُجراء بلا فوارق بينهم وبين غيرهم من أُجراء العمل

للسلطان فتنتهي مهمّتهم الأعظم في الشهادة على الخَلق، وفي أداء كلمة الحقِّ، وفي حماية الأُمّة ومعناها الواقعي والحقيقي.

يبدأ البحث في جواز كفاية هؤلاء عن السؤال، أو في إعطائهم أَجر الحبس على العمل لا على العمل نفسه، ولكنَّ الواقع هو تحوُّل جُموع أهل العلم ووظائفه كلِّهم إلى أُجراء، يُنافسون في الأُجور كما يُنافس غيرهم، وتجري عليهم كلُّ معاني الساعين إلى المال والتجارة بلا فوارق، وحين يصيرون في هذا المقام حالاً في أعين مالك المال والمستأجر فإنَّه يُتقن بعد ذلك تجريدهم من قُوّتهم التي هي الخطر على طُغيانه وتَغوُّلِهِ وتمددِهِ، وهم بما تغزَّل في قلوبهم من الخوف على المال والرزق والمحسِّنات يضبطون أنفسهم بهذه الضوابط التي يحسن إدارتها السلطان وآلته، وهذا كلُّه لا يُوهن كلمة الحقِّ وقولها فحسب، ولكنه يذهبُ إلى أبعد من ذلك ألاَّ وهو القول بالباطل، والإفتاء حسب مُراد السلطان، والخطبة على وِفْقِ شروطه، لأنَّ كلمة الحقِّ تحجب مِن العالِم حين يخاف السجن والقيد والسوط والقتل، وله سعة أن يهرب ويختفي ويستر قوله، فلا يقول الحقَّ ولا يقول الباطل، راضياً أدنى مراتب الإيمان وهو أن يُنكر بقلبه، لكن حين يُصبح حال هؤلاء هو الخوف من ذهاب الرزق، أو ذهاب المُرتَّب والوظيفة، وهي مرتبة خسيسة فإنَّ الشرَّ لا يكون بحجب كلمة الحقِّ بل يكون في قول كلمة الباطل، وتحوُّل هذه الجموع إلى أدواتٍ في يد السلطان، وهذا كلُّه يُقال حتى مع السلطان المسلم فكيف بمن كان مأجوراً مُوظفاً في أعمال الشرع كالفتوى والإمامة والقضاء والفتوى عند سلطانٍ كافرٍ مرتدٍ، جُلُّ هَمِّهِ أن لا يحكم النَّاس عليه بالكفر ولا بالردّة لأنَّ في ذلك ذهاب مُلكه وسلطانه! فهل سيقول هؤلاء كلمة الحقِّ ؟ وأهل الجهاد والعلم والتقوى لا يسألونهم هذا، بل أعظم ما يرجونه منهم أن لا يكونوا مع الباطل ولا قائلين به.

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى: ٢٣]. استثناءٌ منقطعٌ، إذ ليس هذا أجراً يطلبه منهم، فإنَّ المودة في القُربى حقٌّ من حقوق النَّاس فيما بينهم، أي أنا لا أسألكم مُراعاة حقّ القُربى التي بيني وبينكم، وفي هذا معانٍ منها:ـ

★ أنَّ عَداء قريش لرسول الله ﷺ قد تجاوز كلَّ حدود، حتى تلك الحدود التي كانت تجري بينهم على وجه الوجوب والتقدير، فالعرب وقبائلهم عصائب على الحقِّ والباطل فيما بينهم، يَغوي أحدهم إذا غوت قبيلته ويَرشد إن رشدت، ولكنَّ سُعار الغضب من دعوة الحقِّ، ومُواجهة رسول الله ﷺ لدينهم وآبائهم وآلهتهم أخرجهم عن أطوارهم، حتى أقربَ النَّاس إليه كعمه أبي لهبٍ، وهذا ينبئُ أنَّ دعوة الحقِّ شديدة على النفوس حتى يضطر صاحبها إلى مُعاداة أقرب النَّاس إليه، وهذا الذي وقعَ بعد ذلك من القتال في بدرٍ وأُحدٍ وغيرهما حيث واجه الواحد من المهاجرين قبيلته، وواجه أباه وعمه وأخاه، فعلى الداعي والعامل لدين الله أن يصبر في هذا الغرز.

★ هذا دليلٌ على أنَّ رسول الله ﷺ كان يُراعي قرابته، ويُراعي قومه، فهو إذ يطلب منهم ذلك يكون هو أشدَّ التزاماً به ﷺ، وهذا الالتزام منه الواجب كمُراعاة الوالدين كما قال تعالى: ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [لقمان: ١٥]، ومنه المُستحب كمُراعاة البعيد من أقربائه بالصلَة والإحسان، فالدين هو أساس الوِدّ والولاء، لكن ما قام بين النَّاس من علائق الفِطرة كذلك يجب مُراعاته كلٌّ بحسب درجته، فالخُلق الحسن واجبٌ من واجبات الإيمان، لا يتخلى عنه المسلم بسبب سوء الآخر، ولا يتعامل معه العابد لربِّه على وِفق معايِّير تجّار الدنيا، بل هو خُلُقٌ أصيلٌ، نعم هم سيقطعونه ويُعادونه وربما يتبرؤون منه، ولكن يبقى هو على غرز الخُلق الحسن والصلات الحسنة ما استطاع، لا يُسيء إليهم ولا يسبّهم ولا يهينهم.

★ لقد كان رسول الله ﷺ يجد مَن يحميه من قريش، وكذلك بعض أصحابه، وبعضهم لا يجد من يحميه، فكان الأذى في مكّة على هذا المعيار والمقياس، تشتد وطأة قريش على العاري من حماية أهله، وتخف على مَن يجدها، ولمَّا أراد رسول الله ﷺ أن يُرسل عمر رضي الله عنه إلى قريش في صُلح الحديبية ليحمل إليهم رسالته اعتذر الفاروق رضي الله عنه بأنَّه لا يجد فيها من يحميه من كُبرائها وأشار أن يُرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه لعزِّ قرابته هناك، وقد كان، وهذا دليلٌ أنَّ الدَّاعي والعامل لدين الله تعالى يستخدم كلَّ وسائل الحياة الفِطريّة في تنفيذ مُراد الشرع، لأنَّ الدعوة إلى الله والعمل لدين الله تعالى أمرٌ بشريٌّ، وقواعده سُننية قَدريَّة، ولا يسري أمرهما بين النَّاس إلا بهذه السنن، وهذا كلّه من شرع الله تعالى، فموسى عليه السلام وهو رسول الله طلبَ مُعِيناً على الحقِّ معه، واعتذرَ عن بعض ضُعفه الذي يُوجب هذا الطلب كما قال فرعون عنه: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾ [الزخرف: ٥٢].

★ وهذا بابٌ عظيمٌ وهو من أبواب الاجتهاد وإعمال العقل، وذلك بالبحث عن الوسائل والسنَّة القَدريَّة والفِطريَّة التي تحقق صلاح العمل وَجَوْدَتَهُ، ومع أهميّة هذا الباب إلاَّ أنَّ كثيراً من النَّاس لا يُراعونه تحت أبواب الجهل زاعمين التوكل على الله أو ما شابه ذلك، والله يقول: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، فقد أمرهم بالتزود وأخذ سبيل السُنَّة في رحلتهم، واتّباع سُبل السُنَّة القَدريَّة واجبٌ شرعيٌّ، لأنّها هي التي تحقق الأمر الشرعي، وهذا كلّه مشروطٌ بأن تكون الوسيلة شرعيَّة في أصلها غير ممنوعة، وهو بابٌ الأصل فيه الإباحة وليس المنع.

★ ليس في هذه الآية دليلٌ على جواز التجميع على الشرك تحت باب القبيلة والعشيرة، لأنَّ هذا الأمر عُرِضَ على رسول الله ﷺ، وهو أن يجتمعوا عليه مَلِكاً مُطَاعاً غير مردود الأمر فرفضه ﷺ، لكنّه من باب إعمال السنن ودرء العداوة

التي تمنع وصول الحقِّ للنَّاس، فهو يطلب منهم أن يُراعوا قَرابته في عدم إيذائه وهو يدعو إلى الله تعالى، أو يطلب منهم الحماية من الجاهلين وهو يبلّغ رسالة ربِّه، وهذا بابُ خيرٍ، لكن هَبْ أنَّهم اشترطوا عليه شروطاً باطلة لتحقيق سؤاله فهل في دين الله ما يدلّ على جواز قبول هذه الشروط؟ الجواب هو النفي، وقد كان منهم ذلك وهو يرفضُ ﷺ، وقد كانت قُريش تحبُّ أن تنهي هذه الخصومة على وجهٍ يحفظ لها دينها وهَيبتها، كما كان رسول الله ﷺ يحبُّ أن تُنهي قريش خصومتها له بعدم الوقوف ضدَّه في دعوته، لكن لم يَكُنْ هذا لِيحدث لأنَّ ما تحبّه قريش يُصادم دعوة رسول الله ﷺ، فهو إذ يطلبون منه أن لا يسبَّ آلهتهم ولا يعيبَ عبادتهم ولا يحكمَ لآبائهم بالنَّار والعذاب يعني أن يتخلى رسول الله ﷺ عن أركان مُهمّته في دعوته، وتلك مُساومة مرفوضة.

ومناسبة ذِكْرِ هذا الأمر على هذا المعنى في هذا السياق مِن ذِكْرِ خَبر الجنَّة ودخول المؤمنين فيها وكونها بشارة الله لهم في قوله: ﴿ **ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ**... ﴾ [الشورى: ٢٣، ثم قوله: ﴿ **قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ** ﴾ [الشورى: ٢٣]، ثم قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣)** ﴾ [الشورى: ٢٣]. إنَّ المؤمن المُبشر بالجنَّة مُبتلى حتى إنه لا يجد من يُراعي فيه حُرمة القَرابة ووِدها، ولذلك هو يطلبها منهم لِيُعَان على أمره في الطاعات وعمل الحسنات، هذا أمرٌ، وأمرٌ آخرٌ أنَّ الفُرقة في الدين بين المؤمنين والكافرين كما تقدّمت لا تمنع النَّاس من أداء حقوق الفِطرة والقَرابة، فَلْيَسْعَ الدَّاعي إلى الله في تحقيق وسائل تقريب النَّاس وجَذبهم إلى الحقِّ أو عدم مُعاداته، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يجعل من افتراق النَّاس على الحقّ وهُمْ على غيره من الباطل سبيلاً لتحقيق النَّصر للحقِّ، وهذا من سُنن المُدافعة، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ كان له عمه أبو طالب يحميه، وكان هناك خُزاعة تميل إليه بكافرها ومُسلمها، وسنن التاريخ تُعلِّم المسلم أنَّ اختلاف أهل الباطل تحقق سعة للحقِّ أن يصل ويعمل وينتصر،

وحين تجتمع عليك مِلل الأرض فإنَّه مِن الحكمة أن تدفعَ بعضهم ببعض، وتعمل ما استطعتَ في تخفيف الضرر بتذكير بعضهم بصلات القوى أو بتاريخ الصلة حتى يندفعَ بعض الشرِّ فتفرغ لغيره، وكما أنَّ المؤمن يُبشَّر بالجنَّة فكذلك يُبشَّر بتخفيف البلاء عنه في دعوته وصبره عليها، وقد بَشَّرَ الله رسوله ﷺ بالنَّصر كما بشَّره بالحماية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وهذه هنا كذلك بُشرى بأنْ يدفع عنه بعض الشرِّ، وقد كان، فقد كان له من القَرابة من يحميه، بل كانت هذه القَرابة وصِلتها وبلّها ببلالها سبباً لإسلام عمه حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء رضي الله عنه لّما انتصرَ له ضدَّ فرعون هذه الأُمة أبي جهل، وكان عمّه أبو طالب يقول:-

والله، لن يصلوا إليك؛ بجمعهم   حتى أُوسد في التراب، قتيلاً

فهذه كلّها مِن البُشرى المحبوبة للمؤمن، وهو إذ يُبشَّر بالجنَّة عاقبة الصبر والإيمان والعمل الصالح، كذلك يُبشَّر بدفع الله عنه، وحين يشتدُّ الأمر فإنَّ المرءَ يحتاج لهذه البُشرى، فهذا لوط عليه السلام يقول في لحظة الألم والغضب على قومه: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ [هود: ٨٠].

وكذلك أنَّ البشرى بالجنَّة لا تكون إلاَّ لمن أخلصَ ولم يسأل على إيمانه وعمله الصالح ودعوته أجراً من أُجور الدنيا، وأمّا ما يطلبه من تخفيف البلاء عنه بعلائق القُربى والفِطرة فإنّها لا تضر إخلاصه، إذ المشقّة ليست مطلوبة لذاتها، وإن كانت قدراً للإيمان والعمل الصالح لكنْ لا يسعى المرء إليها، فالمرءُ لا ينال الجنَّة إلاَّ بالإخلاص وطلبِ الأجر الأُخروي، وأمّا دفع البلاء، والعمل على تخفيفه، أو طلب الوِد وقُربى القريب فليس يضر إخلاصه في شيءٍ، بل هو ممدوحٌ لمقصده الحسن، وهذا المعنى قاله ﷺ لمن تصدَّق على قريبه، فجُمع له أمران الصدقة

وصِلَّة الرحم، كما في الصحيح[1]: «جاءتْ زينبُ امرأةُ ابنِ مسعودٍ تستأْذِنُ عليه، فقيل: يا رسول اللهِ، هذه زينبُ. فقال: «**أيُّ الزَّيانبِ؟**». فقيل امرأةُ ابنِ مسعودٍ قال: «**نعم، ائذَنوا لها**»، فأُذِنَ لها. قالت: يا نبيَّ اللهِ، إنكَ أمرتَ اليومَ بالصدقةِ، وكان عندي حُلِيٌّ لي فأردتُ أن أتصدَّقَ بها، فزعَم ابنُ مسعودٍ أنّهُ وولدَهُ أحقُّ مَن تصدَّقتُ بهِ عليهم. فقال النبيُّ ﷺ: «**صدَقَ ابنُ مسعودٍ، زوجُكِ وولدُكِ أحَقُّ مَنْ تصدَّقْتِ بِهِ عَلَيْهم**».

فذكر طلب المودة في القُربى لدفع البلاء والشرِّ ليس محبطاً للعمل ولا مُقللاً للأجر، كما أنّه ليس ناقضاً لقوله: ﴿**قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا**﴾، وهذا مناسبٌ لقوله تعالى بعدها: ﴿**وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٢٣**﴾ [الشورى: ٢٣]. وهذه قريباً من قوله تعالى المُتقدم: ﴿**وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠**﴾ [الشورى: ٢٠]، لكنَّ ما تقدم من ذكر حرث الآخرة فيه شرطُ الإخلاص، وهذه الآية: ﴿**يَقْتَرِفْ حَسَنَةً**﴾ فيها شرطُ الحسن هو موافقة الشرع، فلذلك هما شرطان: شرط الإخلاص، ورجاء الدار الآخرة بالعمل، والشرط الآخر أن يكون العمل حسناً في نفسه، أي مشروعاً، والآية الأولى فيها زيادة الكم: ﴿**نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ**﴾، وهذه فيها زيادة في النوع: ﴿**نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا**﴾، فكان في كلِّ آيةٍ من المعنى الخاص الذي يُؤسس لِعِلْمٍ جديدٍ وليس تَكرارًا لمعنىً واحدٍ، والقرآن قط لا يُوجد فيه التَكرار بلا معاني زائدة في كلِّ موطنٍ كما هو قول أئمة التفسير.

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٢٣**﴾ [الشورى: ٢٣]. أبلغ المدح وأعظمه، فهو يغفر التقصير في العمل الصالح وهو لا بدَّ منه من الإنسان، حتى وهو يعمل الطاعات، وهو يشكر ويجزي على ما صلح منه، وهذه الفاصلة القرآنية هي

[1] «صحيح البخاري»: ٢/٥٣١/ح١٤٤٤.

المناسبة لقوله: ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ﴾ [الشورى: ٢٣]، فإنَّ الحسنة من الإنسان تحتاج إلى جابرٍ يُتمّها من رحمة الله، وهي تُؤتى على وجه طلب الجزاء، فالله يغفر التقصير ويُجري على الصحيح.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الشورى: ٢٤].

لَّما مضى ذِكر الكتاب الحقِّ والميزان، وأنَّه من عند الله، وذلك خلال سِيَاق ردِّ أمر الخلاف بين النَّاس إليه، وردِّ حُجج المُنكرين للحقِّ، وبعد أن مضت الآيات في بيان حقِّ الله في الشرع والحُكم والقضاء بين المُتنازعين في كلِّ أمورِ العِلْمِ والعَمَلِ جاءت هذه الآية لتردَّ دعوى المُكذبين بالكتاب، والمُكذبين للرسول ﷺ، وذلك بيان سُنّته وقَدره في الكاذبين عليه من أدعياء النُّبوَّة الكذبة، ومن الزاعمين عليه الباطل والافتراء، وهو شأنٌ لا يكون على هذا المعنى التام إلاَّ بالكذب على الله وعلى رسوله، وإن كان كلُّ كذبٍ مِن أحدٍ على أحدٍ إلاَّ وسُنَّة الله فيه الكشف والفضح.

فالله يردُّ على هؤلاء الزاعمين أنَّ رسول الله يقول من عند نفسه لا ما يُوحى إليه أنَّ سُنّته وقَدره أن يُضلّ كلَّ قائلٍ بالكذب عليه، وأن يسدَّ عليه معاني الخير حتى لا يقول إلاَّ بالباطل الذي يفضحه عند كلِّ ناظرٍ، ذلك لأنَّ قوله: ﴿ فَإِن يَشَإِ ﴾ على معنى الوجوب كقول: ﴿ عَسَىٰ ﴾ في القرآن كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، والنَّاس علموا هذا حتى قالوا: لو أنَّ أحداً بيَّتَ الكذب سحراً على رسول الله ﷺ لأصبحَ النَّاس يقولون: فُلان كذَّابٌ، ومَن تأملَ سيرة الأنبياء وخطَّ النُّبُوَّة عَلِمَ أنّه لم ينجُ كاذبٌ على الله مِن السخرية والاستهزاء لما يأتيه من القبائح، وعلموا كذلك خُذلان الله له حتى لا يمضي أمره إلاَّ إلى الخُسران، وذلك خلاف أنبياء الله ورسله الصادقين، فهم مُوَفقون في أقوالهم وأعمالهم، ولا ينتهي أمرهم إلاَّ إلى النَّصر والتأييد، وهذا من أعظم الفوارق بين الأنبياء

والرسل والصادقين وأدعياء النُّبوَّة الكذبة المُضلين، وهذا المعنى كما في الأنبياء فهو يسري كذلك على كلِّ مَن يقول في الدين، فالصادقون يُلحقون بأئمتهم، والكاذبون يُلحقون بأمثالهم، ولذلك تجد رِفعة الله تعالى لأهل الحقِّ في القلوب، وبُغض الكاذبين حتى مِن أتباعهم.

وفي هذه الآية نذارة من الله لمن اقترفَ هذه الكبيرة، وقد تقدّم أنّها أشدُّ كبائر الوجود، وذلك لعظم إثمها يوم القيامة وعند الموت كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وفي هذه الآية دليلٌ على أنَّ كلَّ ما يقوله رسول الله ﷺ وحيٌ يُوحى، إذ يحكم الله تعالى أنَّه لو أتى بشيءٍ من عند نفسه لأذهبَ الله عنه القرآن وأنساه إيَّاه.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ ﴾ [الشورى: ٢٤]. الواو هنا للابتداء وليست للعطف كما قال ابن جرير رحمه الله تعالى، فهذه سنَّة أُخرى مع الباطل من غير أدعياء النُّبُوَّة الكذبة، إذ أنَّ الباطل من أدعياء النُّبُوَّة الكذبة له حالٌ تقدّم وصفه، أما الباطل من البشر في أقوالهم وأعمالهم فهو زاهقٌ وذاهبٌ، ولا روحَ له، كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

فالباطل ذاهبٌ بحاليه العِلمي والعَملي، أما العِلمي فهو لا يقوم للحقِّ في الجِدال والبحث، ولا تستسيغه الفِطر والعقول السويَّة، وأما الواقعي والعَملي فلقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣]، [الصف: ٩]، وكلُّ هذا داخلٌ في سنن القَدر والمُدافعة، ومجرّد ثبات الحقِّ

في الوجود هو انتصار، لأنَّ الباطل له أنصار أكثر كما قال تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النحل: ٨٣]، ولأنَّ الباطل يُوافق أهواء النَّاس وشهواتهم، ومَن رأى سلطان الباطل وجبروته وإجرامه مع الحقِّ وأهله ثم رأى بقاء الحقِّ ومُدافعته، وإيمان أهله به، وتضحيتهم من أجله عَلِمَ صِدق الحقِّ وقُوَّته في نفسه.

وقوله تعالى: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ أمَّا إحقاق الحقِّ في الواقع فبكلمات الله التكوينيّة القَدريَّة، ومُناه عباده الصالحون، وأما إحقاق الحقِّ في حاله العلمي فبكلماته التشريعيّة، وهي هذا القرآن.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ هذا بيَّن حكمة الله تعالى القائمة على العلم في الاختيار، فإنه سبحانه وتعالى لا يختار لهذا الحقِّ من أنبياء رسل ومن دعاة مبلغين إلاَّ من كانت صدورهم أهلاً لهذا، فذكرت الصدور وهي محطُّ الحقِّ، وكذا هي محطُّ الباطل لِتلائم قوله تعالى: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾.

وفي هذه الآية من قوله: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، يدلُّ المؤمن على أنَّ الدين ليس العمل بالحقِّ فقط، ولا الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الحقِّ فقط، بل الدين الحقُّ لا يكون كذلك إلا بمنازعة الباطل ومحوه، ولذلك سُمِّي رسول الله ﷺ «الماحي»، بل إنَّ الحقَّ لا يستقر له قرار، ولا يتحقق معناه إلاَّ بحربه وجهاده ومُنازعته للباطل، وكلمة التوحيد تبدأ بالنفي، والصالحون يقولون: «التخلية قبل التحلية»، فهذا هو المنهج السنني السديد، وهذا يُبطل دعوى بعض الناس بأنَّ طريق الدعوة فقط في تعليم الحقِّ والدين، وعدم الانشغال بالباطل، فلا يحارب ولا يُثار ولا يُنازع، ظانِّين أنَّه بهذه الطريق يمكن تحقيق الحقِّ في النفوس والواقع.

ثمَّ هذا المعنى القرآني يدل على أنَّ العلاقة بين الحقِّ والباطل هي علاقة مُنازعة، فحيث وُجِدَ أحدهما فهو منازعٌ محاربٌ للآخر، ولا يمكن الجمع بينهما في حالٍ من الأحوال، وهذه سُنَّة من سُنن الوجود، ولذلك أمر الله تعالى رسوله بدفع الباطل ومجاهدته، وبنفي الآلهة الباطلة حتى يستقر معنى الإله الحقّ وتوحيده جلَّ في عُلاه.

وبهذا المعنى يترسَّخ نفي مفهوم إثبات ثُنائيّة الحقّ والباطل، وأنَّ على الأُمم أن تقبل بهما وتعتبر التعدد ظاهرة مدح يسكت عنها الدُّعاة، ويشرعون قبولها في الأرض والمجتمعات، فهما حقّاً مفهومان مُتناقضان، ووجودهما في الأرض وُجودٌ قدريٌّ، لكن حِكمة وجودهما هو الابتلاء والمُدافعة، لا وجود الائتلاف والتوادِّ والمُوافقة، وأهل الحقِّ إنْ تخلو عن هذا المفهوم فإنَّ الباطل لا يستقر على هذا المعنى لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وهو منهجُ إمامهم إبليس، وهو سيِّدُهم وقائدُهم في هذا الباب حين يقول ربُّنا: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

وهذه الآية بُشرى للمؤمنين أنَّ الحقَّ لا بدَّ منصورٌ، فإنْ حدث أن كان له ابتلاءٌ فهو عارضٌ يجريه الله في الأرض لمعاني عظيمة قد ذكر الله الكثير منها في غزوة أُحد في سورة «آل عمران»[1].

وهي كذلك تحدٍّ من الله تعالى لأهل الباطل أنّهم مهزومون، وأنَّ باطلهم سيُمحى ويزهق، وأعظم محو له أن يهدي الله النَّاس إلى الحقِّ، فيذهب عنهم الكفر والشرك ويصيرون مؤمنين، وهذا ما وقع لرسول الله ﷺ، وهو واقعٌ لكلِّ

[1] قد تكلم الشيخ ـ حفظه الله تعالى ـ عن غزوة أُحد بشيءٍ من التفصيل، وبأسلوب فريدٍ مميَّزٍ وشيِّقٍ في كتابه الماتع: «**مع صبغة الله الصمد.. على خُطى التراجعات والتخذيل.. محواً**». يسر الله طباعته قريباً بإذنه تعالى.

من سار على دربه، ولذلك قال سبحانه وتعالى عقب هذه الآية وبعد فاصلة: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشورى: ٢٥].

وهذا بابُ رحمةٍ إلهيَّةٍ عظيمةٍ لعباده إن عصوه وساروا في الباطل حيناً، وذلك بأن يقبلهم إذا عادوا إليه، وهذا مع كونه دالّاً على رحمة الله ومحبته للمغفرة، وأنَّها تسبق غضبه وعذابه، إلا أنَّه كذلك يدلُّ على معنى المُدافعة بين الحقِّ والباطل، فمادَّة المُنازعة بينهما إنَّما هو الإنسان، فإنْ ذهبَ واحدٌ من البشر إلى الباطل فصار من جندِ إبليس والشرِّ يعني أنَّ الباطل قد انتصر في هذا الإنسان، وهذا مما يُفرحه ويحقق له مُراده من الشرِّ، وإنْ اهتدى امرؤٌ وتركَ الباطل، أو تابَ عاصٍ وترك ذنبه يعني أنَّ الحقَّ قد انتصر في هذا الإنسان وهزمَ الشيطان، ولذلك كان فتح هذا الباب من الرحمن الرحيم هو أشدُّ ما يُغْضِبُ ويُؤْلِمُ إبليس وجُنده، وهو أشدُّ ما يُفرح الرحمن سبحانه وتعالى كما قال رسول الله ﷺ: «**لَلهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ، حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلاَةٍ. فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ. وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ. فَأَيِسَ مِنْهَا. فَأَتَى شَجَرَةً. فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا. قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ. فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ. فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا. ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ**»[1].

وأنا أظن أنَّ هذا الحديث فيه إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، فإنَّ هذا العبد الذي قلب اللفظ فرحاً ناسياً يعدله أن يقلب سيئات العبد حسنات فرحاً ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم: ٦٤].

[1] «صحيح مسلم»: ١٧/٥٦/ح٦٩٠٩.

والتوبة من الذنب ومحو السيئات عند الله وفي صحيفة العبد، ومحو الباطل وإحقاق الحقِّ في العلم والقَدر يدلان على حال الباطل، وأنَّ الله يُبغضه، والحقّ أحب إليه، وهو سبحانه وتعالى يُيَسر الحق قَدراً وشرعاً، ويُعين العبد عليه علماً وقدراً وأجراً، وكلُّ ذلك تحبيباً من الله لعباده بالحقِّ، وتبغيضاً للباطل.

وقبول التوبة تعني قبول صاحبها عند الله، والعفو عن السيئات يعني دخوله في القبول سليماً مما اقترفَ من ذنوب وأوساخ، فالعفو هو الإزالة والمحو، كما يقولون: عفت النّار الشيء، فكأنَّ الذنب ذهب ولم يكن، وهذا من تمام رحمة الله تعالى بعبده.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦)﴾ [الشورى: ٢٦].

قال ابن جرير: «ويجيب الذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا بما أمرهم الله به، وانتهوا عما نهاهم عنه لبعضهم دعاء بعض»[1]، فهي فِعل الربِّ وأمره مع دعائهم كما هي معطوفة على فِعله في قوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾، وبهذا رجَّحَ هذا القول ابن كثير[2]، مع أنَّ الأمر محتمل أن يُقال إنَّ قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فهو فِعلهم، فهو وقد دعاهم للتوبة والإنابة فحصل منهم الاستجابة، وهي نعمة من الله تعالى أنْ هداهم لها بالاستجابة له، وحيث حصل منهم الاستجابة كان أن زادهم من فضله كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد: ١٧]، وهذا المعنى قويٌّ ومناسبٌ للسيَاق، وهو أنَّ الافتراء على الله والكذب عليه يمنع من التوبة، على معنى ما قالوه قديماً: «ليس

---

[1] «تفسير القرآن العظيم»، المشهور بـ«تفسير ابن كثير»: ١٨٧/٧. «جامع البيان في تفسير القرآن» المشهور بـ«تفسير الطبري»: ٧١/٢٣.

[2] «جامع البيان في تفسير القرآن» المشهور بـ«تفسير الطبري»: ١٨/٢٥.

للمُبتدع توبة»، فمَن استجابَ لله وأسلمَ أمره له ثم وقع في الذنب فإنَّه يُسارع بالتوبة منه لِعلمه أنَّه ذنب، وأمّا من نسب لله الباطل فهو لا يتوب منه، لا هو ولا من تابعه وقلّده لأنَّه يعتقد أنَّه على الحقِّ، وأصل هذه الجريمة ترك الاستجابة لأمر الله تعالى، كما أنَّ أصلَ حصول التوبة يكون بالاستجابة لأمر الله، فبها يحصل الخير ويزيد الفضل والعطاء الإلهي.

والفضل الموعود مُطلقٌ، فهو فضلٌ في الدنيا وفضلٌ في الآخرة، ومثّله بعضهم على المعنى الأول من قوله تعالى: ﴿ **وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ بأنَّ الفضل هنا هو شفاعتهم في إخوان إخوانهم إذا هم شفعوا في إخوانهم فشفعوا فيهم، وهذا من التفسير ببعض المعنى لا حصراً له، فإنَّ السورة قد ذكرت في موطنين اثنين قد سبقا زيادة الفضل الإلهي عما يأتيه الإنسان من الخير في قوله: ﴿ **نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ** ﴾، وقوله: ﴿ **نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا** ﴾، وقد تقدّم أنَّ الأُولى زيادة في الكم، والثانية زيادة في النوع، وأما هنا فهي الزيادة المُطلقة، فهي خارج ما يأتيه الإنسان ومن غير نوعه، فإنَّ المؤمن يستغفر فيُبارك له في رزقه، وينسأ له في أجله، ومثل قوله ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»[1]، وهما أمران ليسا من نوع عمله، وهذا المُناسب لإطلاق لفظ الفضل هنا.

قوله تعالى: ﴿ ۞ **وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ** (٢٧) ﴾ [الشورى: ٢٧].

تقدم قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ** ﴾ [الشورى: ١٩]، وها هنا بيان حكمة الربِّ في الرزق وسُنَّته فيه، وهذه الآية وآيات غيرها تدلّ على أثر المادة من رزقٍ وفقرٍ وغنىً في قِيَم النَّاس، فكما أنَّ القِيَم والمُثل يضبطان حركة المادة،

[1] «صحيح مسلم»: ١٦/٩٨/ح٦٤٧٦.

فالإيمان والكفر لهما التأثير الأكبر في سلوك النَّاس في أموالهم، وفي موقفهم من الفقر والغنى، فكذلك المادة لها دورٌ في تغيُّر قِيَم النَّاس كما في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الزخرف: ١٨]. فهي علاقةٌ تبادليّةٌ، فكلٌّ منهما يُؤثِّر في الآخر، وإن كان موقف المرء الإيماني هو الأكثر تأثيراً في السلوك البشري.

والله يبسطُ الرزق ابتلاءً كما قال سليمان لَّما رأى عرش مَلكة سبأ عنده: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠]، والبسط هنا أن ينال المرء كلَّ ما تمناه واشتهاه، وهذا ممتنع في الدنيا، فإنّه يُعطى ويمنع، ويُبسط له في أمرٍ كما يُقدر له في آخرٍ، وهذا المعنى هو الذي يحقق الحِكمة التي أرادها الله في منعِ البغي، فإنَّ الظالم الباغي له أجلٌ محدودٌ، ثمَّ ينتهي بغيه ليكون للنَّاس سعة بعد ذلك، أو يكون بغيه محدوداً فيكون للنَّاس سعة في النَّجاة منه، فهذا فرعون مِثالٌ للطُغيان والبغي، وهو مثالُ الغنى والقوة حتى قال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف: ٥١] ومع ذلك كان سلطانه ورزقه محدوداً، وهذا بيِّنٌ في قول الرجل الصالح في مدين لموسى لَّما جاءه وقصَّ عليه القصص فقال له: ﴿لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القصص: ٢٥] أي إنَّ جغرافية مُلك فرعون لا تصل إلى هنا، فليس له سلطان على هذه البلدة لأنّها خارج حدود السياسة.

ولذلك فقوله تعالى هنا: ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾ إنَّما مقصودها الخَلق مِن الإنسان، كلّ الإنسان، فهذه سُنَّة الله تعالى معه، ينزل عليه من الرزق بقدر ما يشاء، لما يعلم

سبحانه وتعالى من خَلق الإنسان وفِطرته كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق: ٦- ٧].

وجاء في الحديث قوله ﷺ: «**فَوَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ. وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا. وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**»[1]، وهذا مع ما قال ﷺ: «**لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**»[2]، فكيف لو كان أمرها أكبر وأعظم!.

ولذلك من رحمته بالمؤمنين أن يجعل رزقهم كفافاً كما هو شأن الأنبياء، وهو خير الرزق وأنفعه للعبد الصالح، فالساعون إلى إكثار المال خدمة للدين - زعموا - آل أمرهم إلى الخصومة والتنافس والاختلاف، وبدل أن يكون المال خادماً للدين صاروا هم خدماً للمال.

وهذه الآية تُبيِّنُ رحمةَ الله بعَبيدِهِ، إذ يجري عليهم من الأقدار ما يحقق خير الإنسان، وكلُّ أقدار الله تعالى هي لخيره، فالله خَلَقَ الليل والنهار نعمةً له، وتذكيراً له كما قال تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص: ٧٣]، فهي منفعةٌ دنيويّةٌ ومنفعةٌ دينيّةٌ، وكقوله تعالى عن نعمة الماء: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٧]، فجعلَ إنزالَ الماءِ وإحياءَ الأرضِ به لمنفعة الإنسان وتذكيراً له بالقيامة والحياة الآخرة.

---

[1] «صحيح البخاري»: ٤/١٤٧٣/ح٣٩٢٧. «صحيح مسلم»: ١٨/٧٦/ح٧٣٧٤.

[2] «سنن الترمذي»: ٧/٢١/ح٢٣٥٧. وقال أبو عيسى: هذا حَدِيثٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ.

ولكنَّ الجاهلين بهذه المعاني يتهمون الربَّ بالشرِّ كما قال اليهود: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، مثلهم مثل كلِّ الجاهلين الذي يَرون تنوّع الأقدار من أصِحّاء ومرضى، ومظلومين وظلمة، وفقراء وأغنياء، ومُستكبرين ومُستضعفين وغير ذلك من تنوّع القَدر الذي يحقق مقصد الوجود والتوازن فيه.

وإدراك معنى هذه الآية يدلك على ضلال الظانّين أنَّ المنع هو أساس الشرِّ، سواء كان هذا المنع في القدر أو الشرع، فلقد مضتْ وإلى يومنا هذا أقوال الزيْفِ التي تزعم أنَّ ظهور بعض المعاصي سببه وُجود المحرمات، فيقولون إنَّ انتشار اللواط في مجتمعٍ من المجتمعات سببه هو الدين المانع من الزنا، ولو فُتح باب الحِلِّ، وجوَّز النَّاس بتشريعاتهم العلاقات المحرّمة كالزنا لانتهتْ هذه الظواهر، وقد صدَّق هذه المقولات بعض المنتكسين وردّدوها، واليوم يستطيع المرء أنَّ يرى أعظم الكبائر من تشريع اللواط بل وانتشاره في الأُمم إنّما هو في المجتمعات التي ألغت كلمة الزنا من كلامها لأنّه صار هو الأصل في العلاقة بين الرجل والمرأة، والزواج هو الشذوذ، بل ومع الحِلِّ المُطلق لكلِّ أنواع الأنكحة إلاَّ أنّك تجد الشذوذ في أمورٍ يخجل المرء من ذِكرها.

ومثله الربا فإنَّهم يزعمون أنّه هو القادر على فتح أبواب الغنى لكلِّ النَّاس، وواقع الأمر أنَّ الحلَّ المُطلق للربا هو الذي يصنع الجوع والمآسي في الأرض.

فهؤلاء الذين تُؤذيهم الحدود بحجّة أنّها هي سبب الشرّ والفساد إنَّما هم أُسُّ الفساد والكذب، وواقع الشرِّ يشهد على هذا، فالمنع بحكمة الإله في الشرع والقدر هو الذي يمنع إطباق الفساد في الأرض، واليوم في زماننا يُشهد على هذا، فالغنى لا يصنع القناعة، بل يزيد السعار، ويهيج النهم حتى الفساد، ولا حدود للقناعة، والإباحة لأمر بإطلاق لا تصنع القناعة، بل تزيد السعار، فهؤلاء الذين يعيبون زواج الأربع صار كلُّ فرجٍ عندهم حلال، فلم يقنعوا بذلك، بل زاد نهمهم وسُعارهم، والشيطان يملي لهم ويُوحي لهم بالشرِّ وهم لا يشبعون.

والقصد أنَّ القيود لا تصنع الانحراف، بل إنّها والمنع يصنعان الاعتدال ويمنعان البغي، لأنَّ الإنسان ليس إناءً معدنياً تضع فيه بمقدار ما يمتلئ ويمتنع عن الأخذ، بل الإنسان نفسٌ نهمةٌ، وشهوةٌ لا حدود لها، ورغبات تفوق الحاجات والقدرات، ولكن من عجائب ضلال البشرية المُعاصرة، وهي نفسها تلك البشرية في كلِّ أزمانها، أنّها وهي تدّعي الرُقي في الوعي، وأنّها تطورت في تصوراتها ومفاهيمها إلا أنّها تزداد ارتكاساً حتى مع كلِّ قِيام أدلّة الحقِّ القرآني في الواقع، فقوله تعالى: ﴿ **سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ** ﴾ [فصلت: ٥٣]. هي في واقع النَّاس اليوم في أرقى صورها، فكلُّ الوقائع تُثبت أنَّ الشرع حقٌّ، ومع ذلك هم يُصرون على الكفر والاستهزاء به، فالعالَم لم يعرف تطور مرض الربا وآثاره كما يراه اليوم، ولم يعرف العالم قط آثار الزنا والخمر وتطور أمراضهما كما يشهد أهل هذا العصر، وهي من أعظم الأدلّة في الآفاق وفي الأنفس على أنَّ القرآن حقٌّ، بل إنَّ آثار المعاصي التي حرمها القرآن هي أعظم في دلالتها على إعجاز القرآن من بعض ما يُقال من الإعجاز العلمي وغيره، ومع كلِّ هذا الحقِّ القائم في الأنفس والآفاق إلا أنّه أضعف الجوانب إظهاراً من الدُّعاة، بل إنَّ بعضهم ذهب يُساير بعض قِيَمِ الجاهليّة في أحكامها الاجتماعيّة والاقتصاديّة ويُؤول أحكام الإسلام لِتُوَافِقَهَا.

قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ (٢٨)** ﴾ [الشورى: ٢٨].

العطاء الإلهي للخَلق بقَدر، وهو كثيرٌ فيهم وعليهم، إنّما يجريه الله على وجه الحِكمة والعِلل الحميدة، هذا ما تقدّم ذكره في الآية السابقة، وفي هذه الآية تأتي سنة إلهية أُخرى في الرزق، وهي سُنّة القبض والبسط، فإنّه سبحانه وتعالى لا يمنع المنعَ المُطلق، كما لا يبسطُ البسطَ المُطلق، بل يقبض على الخَلق بقدرٍ ثم يُرسل عليهم رحمته حتى يحقق فيهم الذِكرى، كما قال تعالى عن ذلك في سورة

«الروم»: ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الروم: ٤٨ ـ ٥٠].

وهذه السُّنَّة، وهي سُنَّة البسط بعد القبض جارية في الخَلق في أُمورٍ كثيرةٍ، ومنها قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ﴾ [يوسف: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقوله تعالى عن لوط: ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [هود: ٨٠]، ولذلك روى عبد الرزاق في تفسيره[1] وابن جرير[2] عن قتادة أنّه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أجْدَبَت الأرض، وقَنِطَ النَّاس، فقال: مُطِرُوا إذَنْ» بمعنى أنَّ الفرج عندَ الشدَّةِ، وهذا من فقهه وعِلمه بربِّه رضي الله عنه.

وكان مما ذكره ابن القيِّم في فوائد غزوة تبوك وقصة الثلاثة الذين خُلّفوا، أنّه لمّا جاء المنع لهم من أزواجهم أنّه قد جاءت التوبة والفرج.

وهذا نبيُّ الله يعقوب لمّا حزن على ابنه، وبكاه حتى عَمِيَ عَلِمَ أنَّ الفرج قد جاء فقال لأبنائه: ﴿ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف: ٨٧].

وصعود الابتلاء لهذه المرتبة فيه حِكَمٌ؛ منها زيادة الدعاء والابتهال، وهذا حالٌ يحبّه الله تعالى، فإنّه جلَّ في عُلاه يحب سماع ابتهال واستغاثة الدَّاعين

---

[1] «تفسير عبد الرزاق الصنعاني»: ٣/١٥٩.
[2] «جامع البيان في تفسير القرآن»: ٢٥/٢٠.

والمُنيبين إليه، وهذا مقصدٌ إلهيٌّ لا يُدرك إلاَّ بأن يَعرفَ المرءُ ربَّه، ويَعلم نفس هذا الربِّ وصفات هذه النفس العليَّة.

ومنها: أنَّ البلاءَ يُكفِّر ذنوب العِباد، فيشتدُّ البلاء ليُطهِّر الله عبيده، كما النَّار الشديدة تُطهِّر أكثر من غيرها، وتُذهب نتن القديم.

ومنها: أنَّ العطاءَ بعد المنعِ يحقق معنى النِّعمة، فتحسها النفس الإنسانيّة على وجهٍ أكملَ وأجملَ، وتذوقها الذوق الملائم لها، وهذا أدعى للحمد، ومن الحمد أن تُوضع موضعها، فإنَّ مَن عانى فَقْدَ شيءٍ ثمَّ حصّله يكون أكثر مُراعاة واحتراماً له.

ومنها: النظر إلى يد الله تعالى وتدبيره للوجود، فإنَّ تقلّبَ الأحوال على وجه لا يد للإنسان فيه تُعلّمه ضُعفه الذي يدلّه على يد الحكيم القدير كما قال الصديق رضي الله عنه: «عرفتُ ربي بفسخ العزائم»، وهذا ما يحقق معاني الإيمان كالصبر والتوكل واليقين.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ﴾ [الشورى: ٢٨]. فإنَّ الغيث وإنْ أصابَ ناحيةً محدودةً إلاَّ أنَّ الرحمة تسري إلى أكثر من هذه الناحية، ولذلك قال: ﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ﴾، فهي تنتشر فيها وفي ما حولها من الأرض.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشورى: ٢٩].

هذه الآية تتكرر وتتأكد كثيراً في القرآن، وفي كلِّ موطنٍ لها حِكمة وذِكرى، فحيناً تُذكر للتنبيه على أمر القُدرة المُطلقة وهو الأغلب، وحيناً تذكر لبيَّان عظمة هذا الأمر وقُدرته على ما هو أدنى، كقوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]، وكقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧]. أي إعادة الخَلق أهون من ابتداء خَلقه، وهو كقوله:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، أو للتنبيه على تسخيرها للإنسان، كما قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣].

فخَلْقُ السموات والأرض من أعظم آيات قُدرته، وهي تدل على حِكمته وتدبيره، وقد ذكرت هذه الآية هنا للدلالة على قُدرته على البعث وجمع الخَلق يوم القيامة، ولذلك قال: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشورى: ٢٩].

وذِكر الجَمْعِ أمرٌ زائدٌ عنِ الخَلق، فإنَّ هناك مَن يخلق ويُوجد، ولكن لا يقدر على خلقه لغلبته عليه، بل إنَّ هناك من يكون سبباً لآخرٍ ومع ذلك يخرج عن سلطانه وقُدرته، ولكن الله عزَّ وجلَّ هو الخالقُ البارئُ، وخَلْقُهُ تحت سلطانه وقُدرته، وليس لهم أن يخرجوا عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الشورى: ٣٠-٣١].

لَمَّا مضى خلق الله وقَدره على الحِكم المُتقدّمة، فلا يقع فعلٌ إلهيٌّ إلاَّ بحكمةٍ بالغةٍ، ولا يكون أمرٌ إلاَّ وهو حال على صفةٍ من صفات الله تعالى فهو الخبير البصير، وهو الولي الحميد، وليس هناك مِن أمرٍ إلاَّ وهو بالتدبير فيه دالٌ على قُدرة الربِّ، كما فيه الذِكرى لأمرٍ عظيمٍ، وأعظم ما يقعر[1] القلوبَ الواعية هو أمر السَّاعة، وما تقدم من أمورِ الإخلاف في الخَلق من بسطٍ وقبضٍ، فهي لا تأتي على معنى العجز، لأنَّ هناك من يمنع بخلاً، أو يمنع عجزاً، ولكن منع الله تعالى وقبضه هو تمام القُدرة وهما محاطان بحكمته البالغة سبحانه، فالكمال ليس بالتمام، لكن الكمال بتحقيق المقصد، والحِكمة ليست في العطاء بلا منع، بل الحِكمة وضع كلِّ شيءٍ في موضعه اللائق به، ولذلك جرى الوجود الخلقي على

---

[1] يقعر القلوب: يجعلها تنخلع.

هذا المعنى الذي تقدم، والآن في هذه الآية يُبَيِّنُ الله سبحانه وتعالى سُنّته في إجراء الأقدار بين البشر، فما تقدّم هو أمرُ الفِعْلِ الإلهي في الخَلقِ والإمدادِ، وهذه الآية هي في أمرِ نُزول الأقدارِ والأموالِ، وما تقدّم فيه بيان القُدرة والحِكمة، وهذه الآية فيها بيان العدل والإحسان، لقد تبيَّنَ أنَّ القبض ليس عجزاً ولا بخلاً، وفي هذه الآية بيان أنَّ أحوالَ البشر وأقدارهم في المصائب ليس ظُلماً ولا عَبثاً، بل هو تمام العدل، وتمام الرحمة، وتمام الإحسان، فالله يقول: إنْ تساءلتم لماذا لا أبسطُ لكم في الرزق كما تحبون؟ فها هي حِكمتي أُعَلِمُكُمْ إيَّاها، وإنْ تساءلتم لماذا هذه الحوادث والابتلاءات والمصائب؟ فهذا هو الجواب: ﴿ **وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠** ﴾، لأنَّ هذه الأمور؛ القبضَ والألمَ والابتلاءَ والمصائبَ هي عوارض إدراك حِكمة الربِّ، وعدم إدراكهم لحكمتها هو ما يدفع للتساؤل أين الكمال في الوجود؟ وإذا كان الربُّ قُدّوساً قديراً فلم هذه «النقائص!!» فيه، والوحي وحده هو الذي يُبَيِّنُ لنا أنَّ الكمال بالمقاصد، كما أنَّ النتائج بالمُقدمات، فسبحان من جلّتْ حكمته وعدله وقُدرته.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠ ﴾. هي على العموم، ولكن بإدراك معناها على الوجه الصحيح، فليس معناها الوحيد هو أنَّ المصائب تُقابل الذنوب التي اقترفها الإنسان، بل هي تُقابل أكثر من ذلك مما يكتسبه الإنسان، ذلك بأنَّ المصائب تأتي على المُؤمن والعابد، وهي عليه أشدُّ كما في الحديث: «**إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِيَاءَ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»[1]، وكلمة «المصائب» هي كلُّ ما يُؤْذِي الإنسان حتى أنَّ الموت مصيبة، كما في قوله تعالى: ﴿ **فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِ** ﴾ [المائدة: ١٠٦]، ولفهم هذا لا بدَّ من إدراك معنى كلمة «الكسب»، فإنَّ

[1] «مسند أحمد»: ٥١٢/٧/ح٢٦٦٧٤.

الحال الذي عليه المرء ومقامه الذي هو فيه هو من كسبه، فكون المرء في مقام إيماني ما، يعني أنه قد كسب هذا المقام، وحين يُبتلى فيصبر، يعني أنه ابتلي بسبب هذا الكسب ليخرج منه إلى مقام هو أعلى منه، وإن لم يصبر فذهب عنه مقامه السابق إلى ما هو أدنى منه، فهو كذلك إنَّما أصابته المُصيبة لكسبه أي مقامه فلم يقدر عليه فزال عنه، فالمصائب تنزل على كلِّ أحدٍ بكسبه حتى لو كانت على جهة الابتلاء والتمحيص، فيوسف الصديق عليه السلام تقع عليه هذه الآية على هذا المعنى، وهو اللائق بالعموم، وكذلك اللائق بما يقع على الصالحين من البلاء لترتفع درجتهم، وإن كان هؤلاء يقع عليهم كذلك من البلاء ما يُكفَّر به عن ذنوبهم لأنَّ «**كلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاء**» كما في الحديث[1].

فالمصائب للإنسان هي حقٌّ، ووُقُوعها على العبيد لأنَّ هذا هو الأَلْيَق بما خُلقوا عليه، فهي لِقَوْمٍ عذابٌ وهي لِقَوْمٍ مغفرةٌ، وهي لِقَوْمٍ عُلُوٌّ وارتفاعٌ، وهذا المعنى قريب من قوله تعالى: ﴿ **لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ** ﴾ [التوبة: ١١٧]. فإنَّ توبته عليهم جلَّ في عُلاه هي عِصمته لنبيِّه وحِفْظُهُ لأصحابه من أنْ يقعوا في الإثم، وهذه توبة أعظم من التوبة بعد الوقوع في الإثم، وإن كان كلٌّ منهما محبوبٌ عند الله تعالى. لأنَّ الله سمى العِصمة والحِفْظَ من الذنب توبة، وهي تكفير الذنوب، وحال هذه التوبة هي حال المصائب، فهي تكفير الذنوب، أي الحِفظ من الذنب وهذه معناها رفع الدرجات.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى: ٣٠]. يُبَيِّنُ المعنى في المصائب على الذنوب، فكيف هي كذلك على معنى رفع الدرجات؟ فالعفو هذا المحو كما تقدم، فيكون معناها أنَّ هناك من الدرجات ما يتجاوزها المرء إلى ما هو أعلى

---

[1] «مسند أحمد»: ٤/٥٣/ح١٢٧٥٧.

منها بعفو الله ورحمته، وهذا بيِّنٌ في آياتٍ كثيرةٍ تقدّم أحوالها في هذه السورة من قوله: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٠]، ومن قوله: ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣]، وقوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٦].

وهذه الآية تدلُّ على أنَّ المصائب قَدرٌ لازمٌ للإنسان، وهي لا محالة ستأتيه، وهذا الأمر قد شُرح في غير هذا الموطن في بيان سنَّة الألم والكَبَد، فالإنسان خُلق في «كَبَد» كما قال تعالى، والكَبَد هو المشقّة، وبنو إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩]، فالألم قدرٌ إلهيٌّ في البشر، ليست حالة خاصّة للهزيمة دون النَّصر، كما قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، ولكنّ الفارق في قيم الإيمان في التعامل مع الألم والابتلاء، كما قال الله عقبها: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

ومما تدلُّ عليه هذه الآية أنَّ المصائب تُنازع إن كان اللهُ قدَّر للمنازعة الأسباب كما قال رسول الله ﷺ: **«مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إِلاَّ أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً»**[1]، وقوله: **«تَدَاوَوْا، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلاَّ وَضَعَ لَهُ دَوَاءً غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ الْهَرَمُ»**[2]، فإذا كانت المصائب من الكسب فمِن العدل أن يكون دفعها من كسب الإنسان وعمله وقُدرته، إلا ما كان غير مقدور الأسباب كالموت كما في الحديث الُمتقدّم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾ [الشورى: ٣١].

يُبيِّنُ الله إحاطة قُدرته ومشيئته للخَلق في تقلبهم في الأعمال، سواء أذنبوا أم أحسنوا، وكذلك إحاطتهم بقُدرته ومشيئته في الأقدار سواء بَسطَ لهم أمراً قُدِّر

[1] «صحيح البخاري»: ٥/٢١٥١/ح٥٦٧٨ .
[2] «سنن أبي داود»: ١٠/٣٣٤/ح٣٨٥٥ .

عليهم، أو كانوا في عفوٍ أو مُصيبةٍ، فإنَّ الله محيطٌ بهم، وكما تقدّم قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشورى: ٢٥]، فإنَّ هذه الآية تُبيِّنُ قُدرته عليهم وإحاطة مشيئته بهم، وهذا تمام المدح، وهو إحاطة العلم والقُدرة والمشيئة، فقد يعلمُ المرءُ ما يفعلُ غيره ولا يقدرُ عليه، وقد يقدرُ عليه وهو لا يعلمُ ما يفعلُ، ولكنَّ الله سبحانه عليمٌ بالإنسان، وقادرٌ عليه.

وحين يبلغُ عجزُ المرءِ عن هذا المقام، فإنّه لن يستطيعَ الفرارَ إلاَّ إلى الله، ولذلك قال: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾ [الشورى: ٣١]. فإن كان حالكم هكذا، لا تملكون لأنفسكم شيئاً، والمصائب قدرٌ لازمٌ لكم فإنَّ دفعها وتحصيل القُدرة لا يكون إلاَّ بأنْ توالوا الربَّ وتستنصروا به، وهذا تأكيدٌ على وجه العِلْمِ التفضيلي لحال الإنسان وتقلبه لما تقدّم من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: ٦]، قوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾ [الشورى: ٩].

ومن دون الله سبحانه وتعالى ما لهم من: ﴿وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾ والله سبحانه وتعالى يحبُّ مَن أحبه، ويتقرب إلى مَن يقترب إليه، وهو كذلك تنفيذ إرادته في العطاء لأوليائه، كما تنفذ إرادته بالنصرة لهم، لأنّه القادر على أعدائهم، والدافع لمصائبهم، لأنَّ المؤمن وهو يتساءل كيف يدفع المصائب عنه فيأتي الجواب بهذا الحقّ: إنَّ المصائب قدرٌ لازمٌ ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ فلا مفرَ لكم منها، فإنْ جاءتكم فالله مولاكم بالصبر عليها، وهو نصيركم في دفعها، ذلك لأنَّ الولاية علاقة النفس، والنصرة علاقة العمل والقوّة، وكمال القُرب وجودهما، فهو لا يدفع عنك بلا حُبٍّ، ولا يُحبُّك بلا قُدرةٍ على إيصال الخير لك ودفع الشرِّ عنك، بل هو سبحانه وتعالى الولي والنصير.

وهو سبحانه وتعالى ينفي الولاية الحق عن غيره، كما ينفي قُدرة تحقيق النَّصر عن غيره، فكل الولايات لها أسبابها الفانية، وهي محدودة تثبت إلى أمدٍ وقُدرةٍ، ثم تفوت، كما قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزخرف: ٦٧]، ويقول: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ [الحج: ٢]، وهذا أعظمُ الولاية والحبِّ، لكن لها قدرها وأمدها ثم تذهبْ، ولكن ولاية الله هي الولاية الحقُّ، ونُصرته هي النافذة، إذ غيره ضعيفٌ وينكشف قبل انكشاف مُتوليه، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحشر: ١٢]. فلا ولاية ولا نُصرة إلاَّ له ومنه سبحانه وتعالى، وفي الغَمرات تبين الحقائق.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الشورى: ٣٢ - ٣٤].

وهذه آيةٌ من آيات الله الدالَّة على قُدرته، وعلى تصرّفه في عَبيده وفي خَلقه، وأنَّ وقائع القَدر إنما تسري على وِفْقِ عمل الإنسان، وأنّ هذه الآيات كما هي دالّة على صفات الربِّ، وكذلك فيها التذكير والتنبيه على ما هو عليه الإنسان من اختيارٍ وفِعْلٍ.

وآية المسير في البحر بالسفن يُذكّر بها القرآن في مواطن، ومنها قوله تعالى في «الإسراء»: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٦٦]. وهي تقترن بضُعف الإنسان واستغاثته لربِّه، فإنَّ الله يقول عقب الآية المُتقدمة في «الإسراء»: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقوله في «الأنعام»:

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٣]، وقوله تعالى في «يونس»: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [يونس: ٢٢ ـ ٢٣].

وهذه الآية على هذا المعنى هي من أعظم الآيات التي تدلُّ على أنَّ الإنسان في حقيقة أمره يعرف ربَّه، ويعرف أنّه المُتصرف في الكون، كما يعلمُ أنّه يجيبُ الدعاء، وحالة لا يخطؤها أحدٌ؛ أي عند الشدائد يتوجهون إلى الله، فيظهر ضُعفهم و مكنونات أنفسهم، لكن هؤلاء ينسون ربَّهم عند الرخاء، فيشكرون غيره، وينصرفون عن أمره إلى شهواتهم وأهوائهم.

وهذه الآيات واضحةٌ جليَّةٌ، لكن هناك حُجُبٌ يصنعها الإنسان من عند نفسه تحولُ بينه وبين التفكر وحصول الإيمان، هذه الحُجب منها الظنون الواهمة أنَّ الإنسان هو صاحب هذا الأمر، فهو كاشف الآلة، وهو صانعٍ السفن، وهو بعلمه وعمله مطوِّع لموانع تسهيل حياته، وهذا الوهم ليس جديداً وإن كان اليوم فتنة النَّاس فيه أعظم، فالسابقون قالوا هذا كما قال قارون: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨]، فكان الردُّ القرآني عليه: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ [القصص: ٧٨]، وهذا الردُّ فيه بيان التقلّب من الكثرة إلى القِلَّة، ومِن العِزَّةِ إلى الذِّلّةِ، فلو كان من عند نفسه كما يقول فلِمَ لَمْ يقدر على الثَّبَاتِ عليه وقد حصل له؟

وهذه السمَة الإنسانيّة الظالمة في نسبة النِّعَمِ للنفس قالها الله عنهم بقوله: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ

سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الزمر: ٤٩ ـ ٥٢].

ويزداد هذا الحجاب كلّما كثرت النِّعم، وتعالت القوّة، مع أنَّ سقوط هؤلاء أشدُّ من غيرهم، وسُنّة سقوط هؤلاء مُتوالية في التاريخ الإنساني، وكلّما طوَّع الإنسان أمراً على وِفْقِ سُنن الله أقام الله في هذا التطويع آياتٍ بيِّناتٍ أنّه ليس مالكاً لهذه السنن، وأنَّ وقوع البلاء في هذا التطويع محتملٌ في أي لحظة كما قال الله في هذه الآية: ﴿ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ﴾ [الشورى: ٣٣]، وقوله: ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ [الشورى: ٣٤]، وهذا الحال مِن التقلّب وعدم إصابة المرء بعد التطويع أمرٌ مضطردٌ، كما هو اليوم في حال الطائرات ومثلها المركبات والسيارات، إذ يقع فيها من الأقدار التي تحول بين الإنسان وبين مُراده منها مما يؤذن لكلِّ متفكّرٍ أنَّ الأمرَ بيد خالِقِ هذه السُّنن، وحال هؤلاء المُتفكرين أنّه كلّما زاد التطويع أوجب زيادة الشكر، لأنَّ زيادة العِلْمَ تُوجِبُ زيادة العبادة والذِكر، لكنَّ جهالة الإنسان تدفعه إلى غير ذلك، وفي أزماننا وقد يسَّر الله للإنسان الكثير من العلوم في إدراك السُّنن، فسهَّلت له حياته، إلاَّ أنَّ هذا رمى الإنسان إلى حضيض الإدراك والتفكر فأوصله إلى تأليه نفسه، وكأنّه هو واضع السُّنن وخالقها، مع أنّه يرى في كلِّ يوم منعاً إلهياً لمقاصده في التعامل مع هذه السُّنن.

الطائرات تسقط، والمركبات تتحطم، والأدوية تنتج أمراضاً غير الأمراض التي تُعالجها، وتبقي حركة الوجود التي قال الله عن بعضها هنا: ﴿ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ ﴾ [الشورى: ٣٣] فوق مقدور الإنسان، فالمطر فوق طاقته، والريَّاح لا تستجيب لأمره، والشمس تجري لمستقرٍ لها وهو مستسلمٌ عاجزٌ، والبراكين تثور فتجحظ عيناه، والزلازل تضرب ضرباتها حيناً على موعدٍ يعلمه فلا يملك إلاَّ الانتظار والترقب، وحيناً تأتيه بلا إيذانٍ سابقٍ فلا يملك إلاَّ أن يَعُدَّ الضحايا ويحسب

الآثار، وهو إذ يُوقف مرضاً بعد طُولِ عَناءٍ بدواءٍ يكتشفه يأتيه آخرٌ لا يصل معه إلى نتيجته حتى يُفاجئه ما هو أدقّ منه وأعجب، وهو كلّما ازداد تعالياً وتعظيماً لنفسه بعجت هذا التعالي والتعظيم جنود إلهية من حيث لا يحتسب، والإنسان هو الإنسان، ممالكه تأتي ثم تبيد ولا تبقى إلاَّ كلمات الله تدعوه بأنْ يتذكر ويُنيب، ولكنْ حقّاً وصدقاً ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [عبس: ١٧].

الله يقول: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرحمن: ٢٤]. والجاحد يقول: أنا خلقتُ هذه السفن، وأنا أُجْرِيهَا بما أعلمُ وبما صنعتُ من أدوات، وينسى أنَّ الله هو الذي هداه لهذا، وهو الذي وضعَ السنن لتكون على معنى التسخير له، فالله الخالق وهو الرازق وهو المُعين.

هذه الآيات بما هدى الله الإنسان لصُنعها، وبما خصَّ من سنن لتعمل فيها لا يهتدي لها إلاَّ هؤلاء الذين قال الله عنهم: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى: ٣٣].

فهذا الصبور في تتبعه لهذه الظواهر، مرتفقاً معها خطوة خطوة حتى يرى في خاتمة التفكر يد الله تعالى القادرة الحكيمة.

وهذا الصبور الذي لم يكن سريع الانقلاب على عقِبَيْهِ حين تتيه نفسه وتدعوه أن يقول كما قال العجول السابق: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٧٨].

وهذا الصبور الذي إذا وقع به البلاء بأنْ سكن الريح وهو في سفينة فلم ييأس بأنَّ رحمة الله آتيةٌ مستجيبةٌ لدعائه ونِدائه.

وهذا الصبور الذي أقام شاكراً لله على هذه النِّعم وهو يرى الشياطين تتخطف النَّاس حوله في دينهم، فتسرقهم النِّعم وُلُوغاً بها أو غفلةً عن ربِّهم وعن شُكره، ولذلك هو الشكور كذلك.

إنّه الصبور على طاعة الله في التفكّر والذكر حتى يصل إلى حال الإحسان، وهو أن يعبد الله في الحالين «التفكُّر والذكر» كأنّه يراه جلَّ في عُلاه، فيحصل له مقام الصبر الجميل، وهو الصبر بلا شكوى، ولا يكون كذلك إلاَّ وهو في صبره يشكر ربّه ولا يشكوه.

وقوله: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ٣٤﴾ [الشورى: ٣٤]، فهذه حقيقةٌ قرآنيّةٌ بأنَّ شأن العبادة كما هو أمرٌ أخرويٌّ يجزي العبد عليها ويجازى على تركها يوم القيامة، إلاَّ أنّها ذات أثرٍ دنيويٍّ، وهذه الحقيقة لا يمكن إدراكها إلاَّ بالوحي من الله تعالى، وهذه الحقيقة تزيد ولا تلغي الحقائق الكونيَّة والسنن، لكنَّ الخَلْقَ لهم ثقة بالسنن الجارية، لأنَّهم يعيشونها، وهي تتعاقب عليهم، لكن أثر الغيب على الشهادة فهذا لا يُدرك إلاَّ بالوحي، والقرآن شاهدٌ على أثر التوحيد والعبادة على عالم الشهادة كقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، ومثلها الآيات التي بيَّنَ الله تدمير الأقوام بسبب شِركهم وكُفرهم ومعاصيهم، وهذا التأثير يمكن إدراك بعضه إذا كانت المعصية تتعلّق بالأشياء المشهودة، فما يقعِ من فسادٍ بسبب الخمر والزنا والربا وأكل الميتة فهذا يمكن إدراك وجهه في عالَم سُنن الشهادة، وهناك من الآثار ما لا تعلم وجه الارتباط بينها إلاَّ على جهة الوحي والتسليم له، والدين لا يأتي بما يُناقض العقل لكن من الدين ما لا يُدركه العقل، وهو من الامتحان الذي ابتلى الله به المؤمنين ليقع منهم التسليم له سبحانه وتعالى، وهذا القسم يقع على معنى وقوع المُعجزات وخَوارق العادات كخَلْقِ عيسى عليه السلام، وخَلْقِ الدابة لقوم ثمود، ومثلها حصول الكرامات.

ومَن تأمَّلَ الحياة البشريّة اليوم عَلِمَ من هذا النوع من الدلائل ما لم يشهده عصرٌ من العصور، فإنَّ طغيان البشريّة في معاصيها قد وصل إلى حدٍّ لم تبلغه من قبل، ويُعادل هذا الطُغيان من العذابِ والبلاءِ والفسادِ ما لم تره الأُمم السابقة

كالأمراض والمصائب والحوادث وغيرها من صنوف البلاء، فهذه الأزمنة مهما حاولوا إسباغَ ألقاب الرُقي والتقدم عليها إلاَّ أنّها بحقٍّ أبلغ ما تكون بلاءً وعذاباً، وأبلغ ما تكون قلقاً وفساداً، ومَن تأملَ أبرز معالمها لَوَجَدَ شيئين اثنين هما: المُستشفيات والسجون.

كما أنَّها تفتنه في مظاهر قوّته إلاَّ أنَّ آيات الله تدوسه مظهرةً حقائق ضُعفه وعجزه وحاجته، لكنّها الغفلة وقِلَّة التدبّر وجهالة الإنسان.

وتأثير الطاعة على وقائع الوجود يدلّ عليه أحاديث كثيرة منها أثر التسمية على الطعام والجِماع، ومنها حمد الله كذلك، ومن ذلك صياح الديكة عند رؤية الملائكة، وسماع الدواب لعذاب القبر وغير ذلك، كلّ هذا من حقائق الوجود التي يجب على المؤمن أن يُصدّقها، سواء أدركَ وجه جريانها أم لم يُدرك.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الشورى: ٣٤]. هو كقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل: ٦١].

وهذه الآية هي بعض معاني الآية التي تقدّمت في قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى: ٣٠]، وعفو الله تعالى في عدم إيقاع العقوبة القَدريّة في الدنيا هو كعفو الله تعالى في وُقوع رحمته بمغفرة الذنوب إنْ تاب العبد منها، وهي جُزْءٌ من مائة جُزْءٍ من رحمة الله تعالى التي ادخرها في الآخرة، وهذا يُعلِّمُ العبد أنَّ المصائب في الخَلق أقل مما يستحقون، ويدلّ كذلك أنَّ النَّعيم فيهم أكثر من المصائب، لكنَّ الإنسان ونِسيانه، وجَزعه وقُنوطه هو ما يدفعه إلى تذكّر المصائب ونِسيان النَّعيم، فإنَّ ما يُعطيه الله للعبد أكثر مما يمنعه، وما ينعم عليه أكثر مما يحرمه.

قوله تعالى: ﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الشورى: ٣٥].

تقدم عند ذكر الأمر الشرعي وجوب الدعوة إليه والتزامه أنَّ الخاتمة فيه كانت قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦)﴾ [الشورى: ١٦]، وها هنا لما ذكرت الآيات الكونيَّة وتقلُّب العباد فيها بين قبضٍ وبسطٍ، وبين إسباغٍ وحجبٍ جاء بعد ذلك كلِّهِ حال المجادلين بالباطل بهذه الآية، فالأوائل يجادلون في آياته التشريعيّة، وها هنا يجادلون في آياته الكونيَّة، وهما جِدالان بالباطل، والجِدال فيهما بالباطل كُفْرٌ بالله تعالى، والإيمان بهما على الوجه المأمور به توحيد لله وعبادة، وقد تبيَّن لك أنَّ الحقَّ في الدين مُضْطَرِدٌ، وجاء على سُنَّةٍ واحدةٍ، فما أمر الله به محمداً ﷺ هو عين ما أمر الله به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى، والاختلاف في الدين ضلالٌ وقولٌ على الله بغير عِلْمٍ، ثم قد تبيَّن لك في هذه الآيات القَدريّة التي تقدمت أنّها تَقبضُ وتَبسطُ، وتُعطي وتَمنعُ، فالآيات القَدريّة تدرك حكمة الله فيها على هذا الوجه، ولو جرت على معنى واحدٍ لحصل الضلال ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]، فالدين له سُنَّته وحقيقته، وهي سُنَّةٌ واحدةٌ وحقيقةٌ واحدةٌ، ولا صلاحَ للبشريَّة إلاَّ بهذا، فإنْ حصل الافتراق فهو البلاء، وهو الاختبار الذي يُوجِبُ المسير إلى المنع لحصول الوحدة والاجتماع، وأما القدر فسُنَّته هي التقلُّب في الأحوال للتفكُّر والاعتبار وللعقوبة كذلك، فليست سُنّة أحدهما تجري على الأخرى، لأنَّ الشرع هو ما يُحبُّ الربُّ، والقَدر يجري على معنى العقوبة حيناً، وهي التي تقع على وجه الغضب والانتقام، كما يمنع بعض القَدر على وجه الرحمة والعفو، فلِكُلِّ أحدٍ منهما موجبٌ ليس للآخر لِزاماً، فقد يتفقان في الإحسان للطائع، وقد يفترقان في ابتلاء الطائع، فمَن أجْرَاهُمَا على معنىً واحدٍ فهو الضالُّ، فلا يسأل مؤمن ربَّه لِمَ وَحَّدتَ الدين وهو يعلم أنَّ الله لا يشرع إلاَّ الحقَّ في توحيده وعبادته، ولا يسأل مؤمنٌ ربَّه لِمَ قلَّبْتَ الخَلْقَ في العطاء والمنع والليل والنهار وهو يعلم معاني هذا التقلّب وحِكمته.

المجادلة في الشرع والدين للنفي والإبطال حتى يتخذ الإنسان إلهاً آخر غير الله يعبده ويشرِّع له شرائع الباطل، ولهذا الجِدال تأويلاته وشُبهه، والمجادلة في القَدر والخَلق لنفيِّ الحِكمة عنه، وتعطيل الاعتبار، وهذا الجِدال له شُبهه وتأويلاته، والمسلم يُسلم للشرع والأنبياء، ويُصدِّق كلَّ ما يأتون به لأنّه الحقُّ؛ سواء أدركَ حقيقته أم لم يُدركه، وكذلك يعتبر في القَدر ويُفكر في حِكمته، فيشكر في البسط، ويصبر ويدعو في القبض، ويُنازع بالشرع الأقدار التي تُؤذيه كما قال بعضهم: «نازعت أقدار الحقِّ بالحقِّ للحقِّ»[1]، وكما قال الفاروق: «نفر من قدر الله إلى قدره»[2]. وهو بعض معاني قوله ﷺ في دعائه: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**»[3]، وبهذين الحالين يتحقق معنى العبودية الواعية، وهي العبودية القائمة على التسليم والاجتهاد، وعلى التصديق والتفكر، وعلى الاتباعِ والفاعلية، فالقدر لا يُسلم له بإطلاق كما يُسلم للشرع، والصبر فيه ليس صبراً بلا مُنازعة، وآيات الله الكونيّة تكون في النظر فيما هو قائم ﴿ **وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ** ﴾ [الشورى: ٢٩]. وفي إدراك ما هو مخبأ ومخفي من السنن للإبداع والصنع الذي ييسر سبل الحياة ﴿ **وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ (٣٢)** ﴾ [الشورى: ٣٢]، فالأول قدرٌ يُنظر فيه ويُعتبر، وفي الثاني قدرٌ يعلمه الإنسان على ما جرت سُنّة الله في الوجود، وكِلاهما من عطاء الله تعالى فالله يقول: ﴿ **وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)** ﴾ [الصافات: ٩٦]، فهو قدرٌ تكتشفه لتُنازعه وتعملَ فيه على وجه ما ذلل لك منه، وأما الآيات الشرعية فهي على معنىً واحدٍ، ووَفْقُ جريانٍ لا يتغيَّر كما قال تعالى: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ**

---

[1] هو قولٌ لعبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى، وقد سُئل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه رب البرية، فأجاب عليه. انظر: «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»: ٨/٥٤٧.

[2] «طريق الهجرتين وباب السعادتين»: ١/٥٨. وذكره أيضاً الشاشي - أبو سعيد الهيثم بن كليب *الشاشي*)ت ٣٣٥ هـ في «مسنده»:

[3] «صحيح مسلم»: ٤/١٧٠/ح١٠٤٢.

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]. يسمعها المؤمن ويُسلم لها قَلْباً وعَمَلاً وعِلْماً، وحين تخفى عليه يجتهد في إدراكها ليعود في كلِّ رحلةٍ له إلى التسليم والعمل والاتباع.

وباختراق الشرع يكون الضلال والعذاب والمصائب، وفي تنوّع الأقدار يكون الادّكار والاعتبار والتفكّر والتسخير على الوجه الحسن، فكيف تضرب أمثال كلّ واحد للآخر!!، وكيف يجري هؤلاء القوم قواعد كلِّ علمٍ على آخرٍ وبينهما كلُّ هذا الاختلاف، فيزعمون أنَّ اختلاف الأديان نعمة، وأنَّ اختلاف شرائع البشر تنوّعٌ ممدوحٌ، ويجعلونه من ضلالهم على معنى تنوّع القدر والوجود.

لقد تنوّع البشر لمعنى ربَّانيٍّ جليلٍ، وهو قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وتنوّعت أديان النَّاس لِتقعَ حِكمة التدافع والابتلاء كما في الحديث: «لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ... وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ»[1]، وليقع الولاء والبراء ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨]، فاختلافُ الخَلق في ألوانهم وقبائلهم وألسنتهم يصنعُ القُرب والتعارف والاجتماع، واختلاف الخَلق في الأديان هو باب تحقيق الشرع في إعمال الأحكام الإلهية في كلٍّ منهما كما قال ذو القرنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: ٨٧ ـ ٨٨]، ويوم القيامة يكون اجتماع النَّاس، كلِّ النَّاس في صعيدٍ واحدٍ، ولكن يمضي النَّاس إلى مُستقرهم على ما قال الله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى: ٧]، وهو قِسمةٌ على أساس الدين كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران: ١٠٦ ـ ١٠٧].

---

[1] «صحيح مسلم»: ١٧/١٦٦/ح٧١٥٦.

قبول التنوُّع في الأديان على معنى ما يُردده الزنادقة ويُتابعهم على ذلك جهلة المسلمين من أصحاب عمائم ومُدَّعي فكر أين يقود الأمة، وإلى أي مستقرٍ يسير بها؟.

إنَّ أساس هذه الدعوة هو الالتقاء على غير كلمة الله، ونبذ التجمع والاحتكام للشريعة، وإنّما تحت شعارات جاهليّة شيطانيّة كالمُواطنة التي لا تُفرّق بين مؤمنٍ وكافرٍ، لكنّها تُفرّق بين جنسٍ وجنسٍ، وبين لقبٍ ولقبٍ، وبين مَن وُلِدَ في أرضٍ وَبين مَن وُلِدَ في أخرى، وبين من وُلِدَ مِن رَحِمٍ دون رَحِمٍ، وبين من وُلِدَ مَن مني رجلٍ دون رجلٍ، وبين مَن نطقَ بلسانٍ دون لسانٍ، وكأن هذه المعاني عند هؤلاء الضالّين هي أجلُّ من التفرّق على الله، والله تعالى يقول: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ [الحج: ١٩].

لقد ضاقتْ صُدورهم أن يكون الاختلاف على الله، وعلى رسوله، وعلى شرعه القويم، فذهبوا كدوابّ الأرض يفرّقون على معانٍ لا خيار للمرء فيها، وليس فيها أي معنى من معاني القيم والفضيلة، بل هي لا تزيد عما قاله حبيب ربِّ العالمين وحبيب المؤمنين رسول الله ﷺ: «**دَعُوهَا، فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ**»[1]، ولكنَّهم يُوالون عليها، ويُقاتلون على خُبثها، ويُسمّون قتلى هذه الخبيثة المُنتنة شهداء!!، ويُعادون أعداءها ولو كانوا من الأولياء الصالحين، وهو شرٌّ فُتِحَ وكان النَّاس يعلمون قُبحه وكُفره وضلاله ونتنه، لكن ما زال يسري في العُروق، ويفتل له بالحبل والغرب حتى تشربه القلوب والعقول، ولم يعدْ في جهلة النَّاس لكنَّه دخل تحت العمائم، وصار ديناً يُتَّبع، فسبحان ربي كيف تمسخ الفِطر فيُعاب التفرُّق على أساس الدين الذي خُلِقَ الإنسان من أجله، وهو أعظم قيَم الوجود، ومن أجله أُرسل الأنبياء وأُقيمت سوق الجنَّة وسوق النَّار، ومن أجله أحلَّ الله الدماء

[1] «صحيح البخاري»: ١٢٩٦/٣/ح٣٤٤٢.

والأموال، ثم لا يُعاب أن تُقام الدول ويُنصب الولاء على ما لا قيمة فيه، وما لا إرادة للمرء في اختياره، فيَبْغِي النَّاس بهذه الرايات الخبيثة بعضهم على بعض، ويستطيلون على آخرين بهذه المعاني الجاهليَّة الضالَّة.

ثم يزداد العجب حين يرتدّ المسلمون على أعقابهم، تاركين ما يحملون من قِيَمٍ، هي مصدر خيريتهم كما قال تعالى: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وهي مصدر عِزِّهم وحَمْدِهِمْ لربِّهم ﴿ **ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا** ﴾ [المائدة: ٣]. إلى معاني جاهليَّة، فرّقتهم على أساس الجبال والأنهار، وعلى أساس العائلات والألسن، والعرب وإن كانوا في جاهليتهم يتعصّبون عصابات على أساس القبيلة إلاَّ أنّهم اليوم أخسُّ وأرذلُ من جاهليتهم الأُولى، حيث صارت هذه القبائل بل والشعوب تذوب في اسم عائلة واحدةٍ تُسمى الدولة بها، ثم يرقص أصحاب العمائم واللحى على أهازيجها ومدائحها.

لقد أجازوا تفرُّق الأديان لأنَّ قِيَمَ الأديان عندهم لا معالم لها عندهم في حَسْمِ أمر الحقِّ، فدعوا النَّاس واختياراتهم كما يقولون، لأنّه ليس هناك دينٌ أولى من دين، وليس هناك دينٌ يملك حجّة الإثبات أمام دينٍ آخرٍ، كما وتحققت أعظم المصائب وهي غِياب ما قاله تعالى في دحض حجج الباطل: ﴿ **مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ** ﴾ [الشورى: ١٦]، فضعف المُستجيبون، وضعفت إرادتهم، وارتكستْ معالم الدين فيهم إلى مجرّد دعوى القبول بهم كَلَوْنٍ من ألوان الاختلاف الموجود، وآخرون انماثت إرادتهم إلى تدينهم الذاتي، لا الدين الذي وعد الله بإظهاره على الدين كلِّه، أما معالم الاتفاق على حدود أرضيَّة أو جبال وأنهار، أو عائلات ولغات فهي عندهم جلية وأقوى من معالم الدين الحقِّ.

إنَّ هذا الإطار الجامع لمعنى الدين، وحقائقه في الإنسان والوجود إن ذهبتْ صار الدين مُستباحاً لقيَم الجاهليَّة، والبدعة والضلال في هذا الباب شرٌّ من البدع

الفرعيّة في السلوك والعمل، وهي حقّاً من مسختْ معنى الدين وجعلته تابعاً ضعيفاً، ومسخاً يتلون بالأهواء ومعالم الجاهليّة، وهذه بحصولها تنهي فعالية الدين في الحياة ليكون مأسوراً لقوالب الشرِّ وقِوى الجاهليَّة، ويتحول المسلم إلى مجرّد آلة لغيره، يُقاتل تحت شعارات الجاهليّة الهاضمة والمُستعلية على قيَمِ الإسلام، فيصير الدين مأجوراً كحال المُفتين والخطباء والأئمة في جيوش الكُفر، وهو نفس الحال الذي أصاب الأديان السابقة فأحالتها عن حقيقتها العزيزة إلى كونها إحدى ألبسة الجاهلية ترتديها على وِفْقِ الحاجة والمصلحة.

إنَّ هذا التكييف الجديد للدين هو أساس القول على الله بغير عِلْمٍ، لأنَّ حقائق الدين ترفض الخنوع، ومن سِمتها العِزَّة والترفّع عن الاستخدام الذليل، وهي عصيّة على التطويع، لكن هيكلة الدين على هذا الوضع هو الذي يدفع فتاوى الضلال للتسيد والانتشار، وكلّها مسخٌ له لِيتلاءم مع قِيم الجاهليّة وسيادتها، وهذه الفتاوى وإنْ بدت في آحادها على وجه الاجتهاد إلاَّ أنَّ مبعثها ودافعها ليس إصابة مُراد الله ولا حُكمه، ولكن تحقيق مُلاءمة الدين المسخ لاستعلاء الشرِّ والشيطان.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾ [الشورى: ٣٥]. أي ليس لهم مهربٌ ولا ملجأ من العذاب، وفي هذا الموطن لم يذكرْ الله تعالى ما ذكره عند ذكر الآيات الشرعية من دَحْضِ الحُجّة، هناك يقوم أهل العلم كما يقوم أهل الجهاد بدحض حُجّتهم، وأمّا هنا فإنَّ الآيات القَدريّة هي الحاكمة عليهم بما تقدّم من العذاب بسبب الذنوب من قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ [الشورى: ٣٤] فالآيات الكونية فيها الكفاية للعذاب وبيان ضُعفهم وعجزهم، ولذلك لم يذكر إلاَّ العذاب والعقوبة.

قوله تعالى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشورى: ٣٦-٣٧].

هي الدنيا وفتنتها، والغُرور بها أُسُّ انصراف النَّاس عن الحقِّ؛ أي شهوات يصبغها النَّاس لباس الأفكار والظنون لِيُجَمِّلُوها ويدفعوا عن أنفسهم تهمة السفاهة، وتمضي اللعبة على الجميع من الجميع، وهم على وعيٍ في الابتداء ثم تسري الكذبة كما تسري الإشاعة إلى مُسمَّى الحقيقة، كما يصنع العابد مِن وهمه الحجري والشجري، وحين تمضي زهرة الدنيا تذهب معها الأكاذيب، سواء ذهبت بمصائب الدنيا أو ذهبت بالموت، فكلُّ ذلك يعري الظنون والأوهام، فيأكل العابد وثنه، ويبتلع المُشرِّع الجاهل شريعته، ويَنْفَضُّ التابع لا لِيؤمن ولكن ليعود إلى وهْمٍ آخرٍ إلاَّ أن تأتيه الهداية، فكلّهم أكلة الأوثان في الغمرات؛ فيها تذوب كلُّ شعاراتهم وولاءاتهم وأوهامهم وشرائعهم ومعاقد عصائبهم، ولا يبقى إلاَّ الحقيقة؛ ولاية الله ووعده.

كلُّ ما عندكم هنا غير الدين فهو دنيا، وهي ملعونة على لسان رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إلاَّ ذِكْرَ اللهِ وَمَا وَالاَهُ، وَعَالِماً أَوْ مُتَعَلماً**»[1]، فخذوها متاعاً للعب واللهو والتسلية، كما قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ** ﴾ [محمد: ٣٦]، فلا يذهب منها شيءٌ معكم إلى عالَم الآخرة، لأنّها هباءٌ، وهناك ميزان الحقّ ﴿ **وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾** ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

[1] «سنن الترمذي»: ٧/٢٣/ح٢٣٥٩ . قال أبو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. «سنن الدارمي»: ١/٩٤/ح٣٢٦ . «سنن ابن ماجه»: ٢/١٣٧٧/ح٤٢٠٢ .

مع المؤمن يرحل معه في قلبه توكله فهو خيرٌ وأبقى، فلا يتخلى عن صاحبه في غمرات الدنيا اليسيرة، ولا في أعظم الغمرات في القبر وما بعد القبر، حتى يجنيه نعيماً هناك في الفردوس.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الشورى: ٣٦]. في هذه السورة، وفي «القصص»: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٠ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٦١﴾ [القصص: ٦٠ ـ ٦١]. وحين يسأل المؤمن عن هذا القَدر في إعطاء الكافر نعيماً دُنيويّاً كما سأل عمر الفاروق رسول الله ﷺ مُتعجِّباً أن يكون على هذا الحال من الكفاف وهو رسول الله وحبيبه ومُصطفاه، وهناك حيث فارس والروم يتنعَّمون في الدنيا، فيأتيه الجواب: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ**»[1]، فليس يحسد ويغبط هؤلاء على شيءٍ منها، وهي كما جاء في الحديث: «**لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**»[2].

فالمُعاندون ما لهم من محيص من عذاب الله، وما يأخذونه في الدنيا إنّما هو ﴿مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وليس بشيءٍ في عين الله تعالى.

وأما المؤمنون، المُصدّقون بوعد الله، المُتوكّلون عليه في أمرهم كلِّه فهؤلاء لهم الوعد، وهو خير وأبقى ولا زوال له.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٣٦﴾ [الشورى: ٣٦]. تأتي عند ذِكر القَدر الذي يتقلّب فيه الخَلق، في مسيرهم في البحر على السفن، وفيما يخلق الله فيما يعلم ولا يعلم

[1] «صحيح البخاري»: ٤/١٨٦٦/ح٤٩١٣. أطرافه ٨٩، ٢٤٦٨، ٤٩١٤، ٤٩١٥، ٥١٩١، ٥٢١٨، ٥٨٤٣، ٧٢٥٦، ٧٢٦٣.

[2] «سنن الترمذي»: ٧/٢١/ح٢٣٥٧. وقال أبو عيسى: هذا حَدِيثٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ.

عبيده، وعند المصائب والمَلمَّات، وعند قبض الرزق ومنعه، وعند حبس الغيث، فهم لا يقنطون من رحمة الله، بل عِماد صبرهم الذي يرجون به قضاء حوائجهم لأنَّه سلاحهم وعُدّتهم، إنَّما هو التوكُّل على الله، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣].

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ [الشورى: ٣٧]، قد ذكر الله الكبائر في ثلاثة مواطن في القرآن؛ هذا الموطن وقوله في سورة «النساء»: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [النساء: ٣١]، وقوله في سورة «النجم»: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [النجم: ٣١ـ٣٢].

وفي كلِّ موطنٍ تختصُّ معانٍ، ومن ذلك أنَّ آية «النساء» جعلت اجتنابَ الكبائر شرطاً لمغفرة الصغائر، وفي سورة «النجم» جعلتْ نعمةَ المُجازاة بالحسنة لمن اجتنبَ كبائر الإثم والفواحش، وهذه المعاني قد كثُر كلام أهل العلم عليها، وكذا الكلام عن المعاصي وأنَّ منها الصغائر ومنها الكبائر.

وابتداءً فإنَّ في الذنوب صغائر وكبائر، كما قال الله تعالى، والآيات التي تقدمت تشهد لهذا، إذ مجرَّد ذكر كلمة ﴿ كَبَآئِرَ ﴾ يدلّ على وُجُودِ صغائر وهي اللمم كما في سورة «النجم»، لأنّه بالضرورة يعلم النَّاس أنَّه لا يكون كبيرة إلاَّ مقارنة بغيرها مما هو أصغر منها، وضابط الكبيرة هي كلُّ ما توعّد اللهُ عليها النَّارَ، أو لعن فاعلَها، أو أوجبَ عليها الحدَّ، كما أنَّ هناك أحاديث تُبيِّنُ المعاصي التي تُسمّى الكبائر، أو المقتلة، أو المُوبقات، بل هناك أحاديث فيها لفظ «**أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ**»[1].

---

[1] «**إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ**..». «صحيح البخاري»: ٥/٢٢٢٨/ح٥٩٧٣.

أما إنَّ الصغائر تُكفَّر بالأعمال الصالحة إذا اجتنبت الكبائر فالآية في «النساء» تشهد لها، وكذلك حديث سلمان رضي الله عنه عند أحمد[1] قال: «قال لي النبي ﷺ: «**أتدري ما يوم الجمعة؟**». قلتُ: هو اليوم الذي جمعَ الله فيه أباكم، قال: «**لكني أدري ما يوم الجمعة، لا يتطهر الرجل فيُحسن طهوره ثم يأتي الجمعة فينصت حتى يقضي الإمام صلاته إلا كان كفارة له ما بينه وبين الجمعة المُقبلة ما اجتنب المقتلة**». والحديث الآخر الذي في الصحيح: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ. وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ. وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ. مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ. إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ**»[2]، وحديث: «**مَا مِنِ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلاَةٌ مَكْتُوبَةٌ. فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا. إِلاَّ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ. مَا لَمْ تُؤْتَ كَبِيرَةٌ. وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ**»[3].

ولكن يبقى السؤال: هل كلُّ كبيرة يقترفها العبد تمنع تكفير الصغائر حتى لو كانت من غير جنسها؟ أم إنَّ الكبيرة تمنع غُفران الصغائر التي من جنسها فقط؟، يعني هل أكل الربا وهو كبيرةٌ يمنع من مغفرة النظرة، أم أنَّ ما يمنع تكفير النظرة هو الكبيرة من جنسها وهو الزنا؟.

فالآية والحديثان يدخلان بظاهرهما على العموم، وهي أنّ كلَّ كبيرة يقترفها المرء ولا يتوب منها تمنع الحسنات من تكفير الصغائر؛ أي تقييد قوله تعالى: ﴿إِنَّ

«**أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ ـ ثَلاَثًا ـ أَوْ قَوْلُ الزُّورِ**». فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ». «صحيح البخاري»: ٢٥٣٥/٦/ح٦٩١٩ . أطرافه ٢٦٥٤، ٥٩٧٦، ٦٢٧٣، ٦٢٧٤ .

«**إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ اسْتِطَالَةَ الْمَرْءِ فِي عَرْضِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَمِنَ الْكَبَائِرِ السَّبَّتَانِ بِالسَّبَّةِ**». «سنن أبي داود»: ٢٢٢/١٣/ح٤٨٧٣ .

[1] «مُسند أحمد»: ٦١٢/٦/ح٢٣٣٣٣ .

[2] «صحيح مسلم»: ٩٥/٣/ح٥٠٥ .

[3] «صحيح مسلم»: ٩١/٣/ح٤٩٦ .

﴿ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ١١٤]. بهذا الأمر، وإنْ كان المعنى الآخر هو الأقرب، لأنَّ الكبائر كما تقدّم لا تكون كذلك إلاَّ بمقارنة غيرها بها، أي بمقارنة مَن هو مِن جنسها، ومن غير هذا التنبيه وقعَ مَن وقعَ في جعلِ الكبيرة الوحيدة هي الشرك كما يفسّر بعضهم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨/١١٦]، وهذا تفسيرٌ غير صحيح، فإنَّ الشرك كبيرةٌ كما في الحديث: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**»[1]. فذكر منها الشرك بالله، وكذلك حديث: «**أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ**»[2]. وذكر الشرك بالله، وهو كبيرة لما هو أكبر منه من جنسه، وهو الشرك الأصغر، لقوله ﷺ: «**إِنَّ أَخْوَفَ ما أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكَ الأَصْغَرَ**»، قال: ومَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يا رسولَ الله؟ قالَ: «**الرِّياءُ، يقولُ الله عزَّ وجلَّ إذا جَزَى النَّاسَ أَعْمَالَهُمْ: اذْهَبُوا إلى الذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ في الدُّنيا فانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً؟**»[3]، فيكون معنى الآية: إنْ تجتنبوا كبائر ما تُنهون عنه نكفّر عنكم صغائر هذه الكبائر، والله أعلم.

وأمَّا المعنى الذي تقدّم في سورة «النجم»، وهو أنَّ الله اشترطَ اجتناب الكبائر كيما تذهب الحسنات، كما القاعدة القرآنية: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ١١٤]. وهذه لها أدلّتها من الكتاب والسُنَّة، منها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ ﴾ [الحجرات: ٢]. فجعل الله سبحانه وتعالى معصيةَ رفعِ الصوتِ فوق صوت النَّبي ﷺ والنداء عليه باسمه المجرّد، أو بما يُنادي بعضهم بعضاً سبباً

---

[1] «صحيح البخاري»: ٣/١٠١٧/ح٢٧٠٧. ٦/٢٥١٥/ح٦٨٥٧. طرفاه ٢٧٦٦، ٥٧٦٤. «صحيح مسلم»: ٢/٧٠/ح٢٢٢.

[2] «صحيح البخاري»: ٢/٢٣٩/ح٢٦٠٢. ٥/٢٢٢٩/ح٥٩٧٦. أطرافه ٢٦٥٤، ٦٢٧٣، ٦٢٧٤، ٦٩١٩. ٥/٢٢٣٠/ح٥٩٧٧. طرفاه ٢٦٥٣، ٦٨٧١. «صحيح مسلم»: ٢/٦٩/ح٢١٩، ٢٢١.

[3] «مُسند أحمد»: ٦/٥٩٦/ح٢٣٢٤٦. ٦/٥٩٧/ح٢٣٢٥١.

وقال عنه الهيثمي في «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد»: ١/٢٩٢/٣٧٥: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

لحبوط الأعمال الصالحة، فكانت هذه الكبيرة سبباً في حِرمان الحُسنى، وهي الحسنات، وهي بعض معانيها، ومن المعلوم أنَّ هذه المعصية ليست شِرْكاً، فدلّ أنَّ غير الشرك محبطٌ للعمل كذلك.

وفي الحديث قوله ﷺ: «**مَنْ تَرَكَ صَلاَةَ العَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ**»[1]. وهذا ليس لأنَّ ترك الصلاة كُفْرٌ، فلو كان كذلك لما اختصّت بذلك صلاة العصر، ولكن لمعنىً زائدٍ في صلاة العصر دون غيرها كان تركها محبطاً للعمل.

ويشهد لهذا أحاديث أُخرى، لكن هذا الإحباط لا يكون لكلِّ الأعمال كما يحبط الكفر جميع الأعمال بل يحبط بعضها.

ومنها أنَّ الوعد الإلهي بالجنَّة «وهو بعض معاني الحسنى» لا يُصيب إلاَّ مَن اجتنب الكبائر، وإلاَّ فهو في المشيئة إن شاء عذبه، وإن شاء غفرَ له.

فائدة: قصر ابن حزم معنى «اللمم» في الآية في سورة «النجم» على ما حدّث المرء به نفسه، وهَمَّ به، ولم يفعله، لحديث: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ**»[2]. وهو خطأ منه، فإنَّ الصغائر واللمم هي أعمال دون الكبائر يقترفها المرء لأحاديث عِدَّة منها حديث أنس في الصحيح أنه قال: «قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ. قَالَ: وَحَضَرَتِ الصَّلاَةُ فَصَلَّى مَعَ رَسُولِ اللهِ . فَلَمَّا قَضَى الصَّلاَةَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْ فِيَّ كِتَابَ اللهِ. قَالَ: «**هَلْ حَضَرْتَ الصَّلاَةَ مَعَنَا؟**» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ «**قَدْ غُفِرَ لَكَ**»[3]. فهذا فِعْلٌ ليس من الكبائر كُفِّرَ بالصلاة، وليس مجرّد أنّه هَمَّ بما لم يفعله، ويُبَيِّنه حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلاً أَصَابَ مِنِ امْرَأَةٍ قُبْلَةً. فَأَتَى النَّبِيَّ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ. قَالَ فَنَزَلَتْ: ﴿ **وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ**

[1] «صحيح البخاري»: ١/٢٠٣/ح٥٤٦. ١/٢١٤/ح٥٨٧ .
[2] «صحيح مسلم»: ٢/١٢٠/ح٢٩٠ .
[3] «صحيح مسلم»: ١٧/٩١/ح٦٩٥٥، ٦٩٥٦ .

﴿ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ [هود: ١١٤]. قَالَ: فَقَالَ الرَّجُلُ: أَلِيَ هذِهِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لِمَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ أُمَّتِي**»[1]. هذا مع أنَّ الصغائر تُكَفَّر بغير الحسنات، فإنها تُكفَّر بالمصائب وبغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧﴾ [الشورى: ٣٧].

وهذا من إرشاد الله للمؤمنين بأنْ لا تكون مواقفهم في الحياة وَفْقَ ما يجدون في نفوسهم، ولا وَفْقَ معاييرها، فإنَّ العبودية التامَّة أنْ لا ينتقم المرءُ لنفسه، بل يكون فِعله كلُّه لله، فإنْ وقع عليه شيءٌ من أفعال البشر يُؤذيه هو فإنّه يعفو ويغفر، وهذا شأن رسول الله ﷺ فإنَّه ما انتقمَ لنفسه قط، والمرء يغضب، لأنّه إنسانٌ مركّبٌ على نفسٍ تتأثر بما تسمع وترى وتجابه، لكنَّ الحكمة التامَّة أنْ لا يُتابع المرء هذه المعاني إن حصلت، بل يملك نفسه حتى وهي في اشتعالها، ذلك لأنَّ الغضب ريحٌ والعقل نورٌ، فإذا هبتْ ريَّاحُ الغضب أطفأت نور العقل، كما قال ابن الجوزي، وهذا الغضب الذي لا يُتابعون أنفسهم عليه هو الغضب المشروع، أن يكون بسبب باطل لحِقَ بهم، ولذلك هم يغفرونه، ولو كان غضباً لباطلٍ لما كان لهم إلاَّ أن يستغفروا هم لهذا الذنب، كما أنَّ هذا الغضب لا يكون لأمرٍ دينيٍّ، فهذا غضبٌ مشروعٌ محبوبٌ لله تعالى، يُتابعه المرء وينتصف للدين من مسببه، فحقُّ الله تعالى يُؤدّى ولا يسقطه المرء من جهة نفسه، وهذا الإرشاد الإلهي إنّما يحقق ما تقدّم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ٣٣﴾ [الشورى: ٣٣]، فهؤلاء همُ الصابرون، وهم في رُقِيِّهم النفسي، وقِيَمِهم في الوجود، وحركة أفعالهم التي تسير على وَفْقِ الحقِّ والإحسان هم من جاء وصفهم في إدراك حِكَمِ الوجود وحركته ووقائعه، ذلك لأنَّ الغضب هو أحد مُعوِّقات الحِكمة والنظر، بل هو أعظم معوِّقٍ للعدل ونورِ البصيرة، ثم إنَّ مَن

[1] «صحيح البخاري»: ١/١٩٦/ح٥٢٠، ٤/١٧٢٧/ح٤٥٦٩. «صحيح مسلم»: ١٧/٦٩/ح٦٩٥٠.

أخلى حركته عن نفسه وما تشتهي وتفاعلها بالغضب والحبّ هو الذي يرقى بأنْ يرى أنَّ حركة الوجود مربوطة بحبِّ الله وبُغضه، ولو تأملتَ واقِعَ المُدافعة بين منهج الأنبياء في تكييف الحياة بأحكامها وأقدارها وَفْقَ إرادة الله وشرعه وبين منهج غيرهم لوجدتَ أنَّ أُسَّ منهج أعداء الأنبياء ورافضي سبيلهم يقوم على جعل هذا التكييف على وَفْقِ الإنسان ورغباته، وهذا اليوم يصرَّح به علانية، وطائفة أعداء الإسلام مع اختلاف ألوانها إلاَّ أنَّها تجتمع في هذا المعنى؛ أي رفض التشريع على مُراد الله بالحبِّ والبُغْضِ، ورفض تفسير حركة الوجود على وَفْقِ الحسنة والسيئة، وربطها باستحسان الإنسان وإرادته، ولذلك فإنَّ من مُستحبات الإيمان التي تحمي أُصوله وواجباته هو ترك الغضب للنفس والترفع عن حظوظها، وهذه الآية تُبَيِّن الترك للمنهي، والترك عند الأُصوليين فعل على الصحيح.

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الشورى: ٣٨].

وهذه فعلٌ منهم يُقابل ترك المنهي، وأدلّها الاستجابة لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، والاستجابة تكون بالقلب والعمل واللسان وهذا تمامها، وذلك بترك معارضتها، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وكما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥]، فهذه موانع ثلاثة للاستجابة، وهو **الترك**، وحرج **القلب**، وترك **التسليم**، ويردّها ما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [النور: ٥١]. وهذا الفعل واجب من واجبات الإيمان بل هو شرط من شروطه.

وقوله: ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الشورى: ٣٨]. لقد وُضعت الشورى هنا بين الصلاة والنفقة، وهذه السورة كما تقدّم مكيّة، فالزكاة لم تُفرض إلاَّ في المدينة كما هو معلومٌ بخلاف الصلاة، وبدليل الاقتران «وهو من أضعف الأدلّة كما هو معلوم في الأصول» تكون الشورى واجبةٌ في هذه الآية، لكن الآية لا تُفيد الوجوب إلاَّ مع قوله تعالى في سورة «آل عمران»: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقول من قال: إنَّها من أجل تطييب القلوب، وليست مُستحبة مردودٌ، لأنَّه الظنُّ، ولا يُردُّ الحُكم الشرعي بحكمته، فالشورى واجبةً، وعلى الصحيح أنَّها مُلزمة للأمير وبسط هذا الحُكم له مكانٌ آخرٌ.

وذكر الشورى عقب الصلاة مع النفقة يدلُّ على اللَّبِنَاتِ الأُولى في مكَّة لتكوين المفهوم الجماعي للأُمَّة، فالمُستجيبون للإيمان ليسوا أفراداً في مجتمعٍ آخرٍ غير مؤمن يذوبون فيه، أو يكونون جزءاً منه ومن تشكيلته وتَنَوُّعِه، بل هم فئةٌ من دون النَّاس، لهم أمرٌ، ومعلومٌ أنَّ الشورى لا تكون في الأمور الشرعيَّة لأنَّ هذه تقدَّم الحُكم فيها بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ [الشورى: ٣٨]. فحالهم معها التسليم والأداء والامتثال، لكن هذه الفئة لها أمرٌ من حياتها وشؤونها، وهي في هذا الأمر مُتعاضدة ووِحْدَة واحدة، ولا يقضي المرء فيها إلاَّ مِن خلال هذا التجمُّع الذي صار منه وإليه، وهذا جزءٌ من هجر المجتمع الجاهلي، وكذلك نفيٌ لعلائقه، إلى بناء مجتمعٍ آخرٍ تبنى لَبِنَاتُه تحت النَّار والألم والعذاب، ولا يُقال إنَّ الجماعة لا تكون إلاَّ بعد التمكين كما يقوله بعضهم، ولا يُقال إنَّ بناء الجماعة التي تحضّر للتمكين غير شرعي، وذلك بأنَّ كلمة الشورى تعني بناءً له قواعده وله تشكيلته، والخطاب القرآني هو خطاب جماعي لِوَحْدةٍ واحدةٍ ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾، وليس لأفراد لا رابط بينهم.

وعلى الرغم أنَّ حركة الدَّاعي واختياراته ومواقفه أساسها الاتباع، كما قال تعالى: ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [الأحزاب: ٢]. إلاَّ أنَّ تطبيق هذه الاختيارات

والمواقف هو فِعْلٌ بشريٌّ، يُسدد فيه فاعله ويُقارب، كأمر الله عباده بالجهاد، فهذا حُكْمٌ شرعيٌّ لا اختيارَ للمرء فيه، وهو موقفه في الحياة، بل هو حياته كلّها، لكنَّ تطبيقَ هذا الحُكْمِ والتسديد فيه لتحصيل مقاصده هو فِعْلٌ بشريٌّ وإبداعٌ إنسانيٌّ، ينتجه على جهة عقله وعلومه وتسديده، وهذا أمرٌ في كلِّ الشريعة وأحكامها، وهي لا تحقق على الوجه الأصوب إلاَّ باجتماع العقول والاسترشاد بها وهذا هو واقع الشورى، فالأحكام ثابتة، والمواقف شرعيَّة ولكنَّ تطبيقها وإدارتها هو باب الشورى فيها، هذا مع أنَّ أمرَ الشورى أوسع من ذلك، إذ أنَّه يشمل شؤون الحياة وتنظيمها ما هو مجال إنساني بحت فيه الأمر العام، أو هو على جهة الإباحة في أصله.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الشورى: ٣٩].

جعلَ بعض أهل العلم معنى هذه الآية لمنع التعارض بينها وبين ما تقدم من قوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشورى: ٣٧]. القُدرة على الانتصار، أي عندهم قوَّة الانتصار ممن ظلمهم وإن كانوا يعفون عنهم، وهذا الذي قالوه وجهٌ، لكن في حقيقة الأمر أن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ هو متضمّنٌ هذا المعنى، إذ لا يمدح المرء على دفع غضبه إلاَّ إذا كان قادراً على إمضائه، فإن كان عاجزاً فإنَّه لا يُقال له: غافر، وهذه الآية تأسيسٌ لمعنى آخرٍ غير الآية المُتقدمة، فقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾، هو مدحٌ لقومٍ لا يسكتون على الضيم إذا جاء على وجه الإذلال، فهذا بغيٌ يجب ردّه، والسكوت عنه ذلّةٌ ونقصٌ، ولا إيمان ومدح في الذلّة والنقص، حتى لو كان النقص عجزاً لا كسلاً، لقوله ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ**»[1]، فالضُعف لا مدحَ فيه، فكيف يكون الصَّغار والذلّة مدحاً!!

---

[1] «صحيح مسلم»: ١٦/١٨٤/ح٦٧٢٥.

ولذلك فهؤلاء يردون الباغي عليهم، ولا يقبلون بغيه، ويردون عُدوانه منعاً للظُّلم، وردّ الظُّلم واجبٌ في الشرع عن ال (غير) مع القُدرة، فكيف إذا كان الظُّلم على النفس؟!

فالبغي لا يُقرُّ بل يُدفع، والباغي لا يُقرُّ بل يُنتصر منه، وليس هذا من العفو الممدوح، إذ العفو الممدوح هو عند انقلاب الحال وذهاب البغي وزمنه وواقعه، فإنْ قدر المرء على ظالمه عفا عنه، فقريش لمّا قدمت باغية في بدر وأُحد رُدَّ بغيها وُجُوباً، فلما قدر عليها النبي ﷺ في فتح مكّة عفا عنها، فهذا حالٌ وهذا حالٌ.

ولذلك فقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ هي بفعل الانتصار حقيقة لا بقوّة الانتصار فقط.

وهذه الآية هي أول الغيث في وُجوب الانتصار من قريش وبغيها، وأول الشرع في دفع المؤمنين لردِّ عُدوانها وظُلمها، وقد يسأل سائل: كيف يُوَفَّقُ بين هذه الآية وآية كفِّ اليد ومنع القتال وهما مكيّتان؟

الجواب: إنَّ ردَّ الباغي لمن قدر عليه أمرٌ يختلف عن حُكم الجهاد، فالجهاد بمعناه القرآني والسُنّي هو القتال في سبيل الله تعالى، أي هو فِعْلٌ له تعلُّقٌ بالدين والدعوة إليه، والخُصومة فيه على الدين، وردُّ البغي أمرٌ آخرٌ، وهو كلُّ ظُلم يقترفه الخصم على خصمه، وهذا لم يكن ممنوعاً في مكّة ولا في أيِّ وقتٍ، ولكنَّ المُستضعفين من المسلمين في مكّة لم يكن لهمُ القُدرة على ردِّه، وهذا المانع، وليس المانع الشرعي كما هو الشأن في الجهاد، وهذا المعنى من ردِّ البغي كان يقع من الصحابة في مكّة لمن قدر عليه وعلى دفعه، وفي قصّة إسلام الفاروق عند ابن إسحق هذا المعنى إذ فيها: «وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم». قال ابنه عبد الله: «وطَلِحَ، فقعد وقاموا على رأسه وهو

يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم، أو تركتموها لنا»[1].

ومثلها ما وقع للزبير من قول سعيد بن المسيَّب: «أَوَّلُ مَنْ سَلَّ سَيْفاً فِي اللهِ تَعَالى الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوّامِ، بَيْنَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ قَايِلٌ إِذْ سَمِعَ نَعْيَ قَتْلِ رسولِ اللهِ فَتَجَرَّدَ بِالسَّيْفِ صَلْباً، فَلَقَّهُ النَّبِيُّ ﷺ كَفَّهُ كَفَّهُ، فقَالَ: «**مَا لَكَ يَا زُبَيْرُ؟**» قَالَ: سَمِعْتُ أَنَّكَ قُتِلْتَ، قَالَ: «**فَمَا أَرَدْتَ أَنْ تَصْنَعَ؟**» قَالَ: أَرَدْتُ وَاللهِ أَنْ أَسْتَعْرِضَ أَهْلَ مكّة، فَدَعَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِخَيْرٍ»[2]، وكان الزبير ابن اثنتي عشرة سنة.

وردُّ البغي مما يمدح، وهو مِن العدل والإحسان، وليس تركه خيراً لهذه الآية، فإنَّ الصفات المذكورة هنا سِيقت على وجهِ المدح، ولقوله ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ**»[3]، وحديث السفينة في قوله ﷺ: «**مَثَلُ القائمِ على حُدودِ اللهِ والواقعِ فيها كمَثَلِ قومٍ استهَموا على سَفِينةٍ...**» وفيه: «**فإن يَترُكوهم وما أرادوا هَلَكوا جميعاً، وإن أخَذوا على أيديهم نَجَوا ونجوا جميعاً**»[4]، وقوله ﷺ: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ**»[5].

قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾ [الشورى: ٤٠].

فهذه قاعدةُ العدل، فإنَّ المظلوم إنْ قدر على ظالمه يجيز لنفسه في العادة أنْ يتجاوز الحدَّ في القِصاص والحدِّ، وهي سِمَةٌ إنسانيةٌ غالبةٌ في العرب وغيرهم، والقرآن يُقرر أنَّ هذا ظُلْمٌ وعُدوانٌ كظُلم المُبتدئ به سواء، وهو محرم، فالسيئة

---

1 «السيرة النَّبويَّة» لابن هشام: ١٢٧/٢،

2 «جامع المسانيد والمراسيل»: ٣٥٢/١٢/ح١٩٥٢٨.

3 «صحيح مسلم»: ١٩/٢/ح١٤٠.

4 «صحيح مسلم»: ٨٨٢/٢/ح٢٤٥٠.

5 «سنن الترمذي»: ٣٢٦/٦/ح٢١٩٣. «سنن أبي داود»: ٤٨٩/١١/ح٤٣٣٤. «مُسند أحمد»: ١٤/١/ح٣١.

بالسيئة ولا زيادة، وتسمية الثانية سيئة مع أنها العدل من باب المُقابلة، أي هي مما تُسيء للواقعة عليه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩]، وقوله تعالى: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ﴾ [آل عمران: ١٢٠]. كما كانتِ الأُولى سيئة لسوء فاعلها بها، وهي تنبيهٌ لما بعدها بأنَّ غيرها خيرٌ منها، كما قال تعالى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقوله: ﴿ فَمَنْ عَفَا ﴾ تدل على أنَّ المظلوم قادرٌ على إنفاذ مُراده في ظالمه لكنه اختارَ العفو، وهذا لا يعني أنَّ المظلوم العاجز لا أجر له، بل له الأجر بصبره واحتسابه، وهو مكافأ يوم القيامة ونافذ الحق فيه، لكن لا مَرتبة له في مقام العفو، لأنه ليس من أهله، إلاَّ أن يعفو عن حقه من ظالمه يوم القيامة، وهذا فِعْلُ الصالحين في مَن ظلمهم من المسلمين، فإنهم لو قدروا في الدنيا لعفوا، ويستغفرون لظالميهم من أن يُعاقبوا يوم القيامة.

وقوله: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ ﴾ مرتبتان؛ **أولاهما**: العفو عن السيئة وعدم ردها، **والثانية**: وهي الإحسان والفضل: إصلاح أثر السيئة وذلك بإزالة أثرها من القلب، فقد يسقط حقه المادي مع بقاء العتب والملامة وأثرها السيئ في القلب، وكذلك بإصلاح الحال بينك وبين ظالمك، كما قال تعالى لأبي بكر في حادثة الإفك: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النور: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقوله تعالى: ﴿ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠]. فيها القصاص والمثلية والثمنية والعدل، وهي من أبواب الفقه المُتعددة التي تدخل في عامة مسائل الحقوق والكفارات والحدود والعقوبات.

قوله تعالى: ﴿ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠]. تربيةٌ قرآنيةٌ في وضع قيمة الحَسنة مُقابل الحقوق، بل وتعظيمها أكثر منها، فإنَّ الإيمان بالله والدار الآخرة هي أساس حركة المُسلم واختياره، وهذه لا تُوضع في مُقابل التبرع فقط، أي في باب الإحسان، بل هي عِلَّة الأحكام في ما هو أعظم من ذلك، كقوله تعالى في حُرمة الربا: ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقوله في ربا الدين: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٨٠ ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، فذكرُ الدار الآخرة والأجر الإلهي ليس داخلاً في باب الفضل والصدق فقط، بل هو علاج خطرات النَّفس فيما ترى لها من حقوق قد جعلها الله حراماً كالربا، فتارك الربا لا يترك هذا المال الذي يُنازع فيه إلاَّ وهو يرجو الدار الآخرة. فلا يُقال لا دخلَ للآخرة في ما هو حقوق بين النَّاس، فيجعلونها محصورة في التبرع والفضل، بل هي أصل في إقامة الحقوق وأصل في التحريم كذلك.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ ﴾ [الشورى: ٤٠]. تنبيهٌ لمن تجاوز العدل، فإنَّ السيئة بالسيئة عدلٌ، فإنْ زادتْ صارتْ ظُلماً، وصار صاحبها في مقام الأول قبل القصاص منه، فهو محجوجٌ مُطالبٌ بما كان يُطالب به من قبل.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ ﴾ لِتعلمَ كيف الخطاب القرآني في بنائه لشخصية المؤمنين، فقد رأيتَ في هذه الآية ثلاثة ألفاظ تحكم صيغة الأحكام القرآنية السيئة والأجر والحب الإلهيين، فليست هي موادُ جامدةٌ، بل أحكام إلهية تَبني نفوساً قبل أن تحقق واقعاً من العدل، ولذلك فالخطاب القرآني لا ينفعل معه في أحكامه إلاَّ المؤمنون به، وإلاَّ فكيف يستجيبُ المرءُ في عدم الظُّلم لقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ ﴾ دون أن يكون هذا الحب حقيقة في قلب مُستمعه.

فهذا هو أساس بِناء الأحكام في الفئة المُؤمنة، وهي الفئة التي تقوم على صناعة المجتمع وحِمايته وإدارته، لا أن يكون الشرع الإلهي مطروحاً لأقوامٍ تحكمهم الشهوات أو هم في عريٍ عن هذه الألفاظ القرآنية.

وهذه الأحكام الربَّانيَّة في الانتصاف من الظالم أحكامٌ مكِّية، وهي على الضدِّ من أحكامٍ تنتشر في أذهان البعض من أنَّ الفترة المكية لا يجوز الانتصاف فيها من الظالم أبداً، بل يجب كف الأيدي، وهذا كما تقدم خلط بين أحكام الجهاد، وأحكام دفع الصائل، ورد الباغي والظالم، فالذين يُوجبون على المسلمين الاستسلام للظلمة حتى لو سلبوا أموالهم وجلدوا أبشارهم بحجة الفترة المكِّية ـ زعموا ـ هم جهلة بأحكام الشرع، فإنه مع استقرار الأحكام ونفاذها إلى أمرٍ معلومٍ من الجهاد، إلاَّ أنه لو سايرنا هؤلاء فيما يقولون فإنَّ الشرعٍ لا يُوجب هذا الكف المُذل ولا القبول بالصغار ولا طأطأة الرأس إهانةً وخزياً، فهذا دين يبرأ الله ورسوله والمؤمنون منه، بل هو دين لا يقبله إلاَّ الجُبناء على هذا المعنى، وفرق بين من لا يقدر على دفع الظالم والباغي والصائل لعجزه، فهذا معذورٌ عند الله والمؤمنين وبين من يُشرِّع للنَّاس الجُبن والذِّلَّة ويُوجب هذا الشرع الباطل عليهم، بل يُؤثِم ويجرم مَن يخالفه، فلا الفترة المكية تقبله، ولا المدنية، ولا هو مِن قِيَم الحياة أبداً في حالٍ من الأحوال.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الشورى: ٤١ ـ ٤٢].

وهذا حُكْمٌ في النَّاس في تقييم أفعالِ النَّاس، إذ كانت الآيات السابقة تخاطب المظلوم وتُبيِّنُ له الأحكام في حقِّهِ، وهذه الآية تُبيِّنُ موقفَ المؤمنين مِن وُقُوعِ الأذى والسيئة في النَّاس، فعلى مَن رأى سوءاً مِن أحدٍ أن لا يُسارع إلى اتهام الفاعل، أو منعه أو الضرب على يديه حتى يعلم الوجه الذي جعله يفعل هذا، فإن كان على ما قال الله من أنه ينتصر بعد ظُلْمٍ وقع عليه فليس لأحدٍ عليه

سبيل، فمَن قَتَلَ قاتلاً فلا يُسمى قاتلاً بظلم، ولا قاتلاً لنفسٍ معصومةٍ، ومَن أخذ مالاً مِن حرزٍ سارق سرق ماله فلا يُسمى سارقاً، وعلى هذا أجاز رسول الله ﷺ لهند بنت عُتبة أن تأخذ من مال زوجها أبي سفيان ما يكفيها وولدها بالمعروف وقد مُنِعَتْ حقها منه[1]، ومنه أخذ أهل العلم جواز استيفاء صاحب الحقِّ حقه بنفسه إن جحده بشروطٍ معروفةٍ في كُتب الفقه.

وهكذا يُعان المظلوم والمُنتصر على ظالمه، وهذا في كلِّ الحقوق سواء ما علمه النَّاس بفطرهم أو شَرَعه الله مِن حقوقٍ كضيافة الضيف وكِفاية الجائع، ولذلك وجبَ قتال مانع الزكاة، وجاز قِتال مانع طعام الضيف الواجب، وأجاز من أجاز من العلماء جواز قتال الفقير للغني إن كان جائعاً فسأله فمنعه حتى ما كان من غير الزكاة كما قال ابن حزم في «المِلل».

والعجب من أهل الفتوى اليوم لا يلتفتون إلى المظالم والجرائم المبتدأة، بل يسكتون عنها، ويزعم كثيرٌ منهم أنَّ هذا السكوت مِن الحِكمة، وبعضهم يتخذ ذلك لأنه أخذ الإيمان كما في الحديث، لكنهم يصرخون ويرفعون عقائرهم بالزعيق إن سمعوا أنَّ مظلوماً قد انتصفَ من ظالمه، خاصة إن كان هذا المظلوم لا سلطان له ولا تمكين، ويُتابعون في أعمالهم هذه ما يُشيعه المجرمون من أخبار عما يقع عليهم من المظلومين على وجه التعظيم والإنكار، وإذا أجازوا لأنفسهم السكوت في الأُولى فَلِمَ لَمْ يجيزوا لأنفسهم السكوت في الثانية إن كانوا كما يقولون قد اختاروا أضعف الإيمان، أو أنهم أصحاب حِكمة؟ إنه الظُّلم الذي يُوبقون أنفسهم فيه، والانسياق وراء المجرمين، وقُربهم منهم، واستجابتهم لأمرهم، فلو فزع إليهم مظلومٌ لشفاعةٍ فقط عند ظالمٍ ممكَّنٍ لاعتذروا وسكتوا، لكن حين يضغط الظالم على ذيولهم ليصرخوا له ضدَّ خصومه لما ترددوا له،

---

[1] انظره في «صحيح البخاري»: ٢٠٥٢/٥/ح٥٣٦٤. أطرافه ٢٢١١، ٢٤٦٠، ٣٨٢٥، ٥٣٥٩، ٥٣٧٠، ٦٦٤١، ٧١٦١، ٧١٨٠.

ولَرأيتهم يتدافعون زرافات ووِحْدَاناً لموائد هؤلاء الظَّلمة ولتجمعاتهم ليقولوا قولهم ويصرخوا بما يحبون.

كم من أهل الإيمان والدعوة والجهاد في سجون الظالمين، ولا نقول المُرتدين حتى لا يغضبوا، وكم جُلِدَتْ أبشارهم هناك، وكم انْتُهِكَتْ أعراضهم في سَرَادِيبِهَا ومِن جَلاَدِيهِ، فهل رأيتَ جُمُوعَ العمائم وهي تعلمُ ذلك قد قالت حقاً يدفع الظُّلم عنهم؟!.

لكن انظر إليهم عندما ينتصف المظلوم ولو بكلمة ماذا يكون شأنهم.

إنَّ أموال المسلمين تُسرق، ودينهم يحارب، والفاحشة يشرَّع لها ويُدْعَى لها، والمظالم هي الأصل من هؤلاء ثمَّ يُوجبون عليك السكوت فقط، ولكن أن تراهم أعدل الخَلق، وأفضل سلاطين الوجود، فهل هذا هو الدين الذي قُعِدَّتْ قواعده في أيامه الأولى في مكة المكرمة مع دعوة التوحيد والإيمان؟.

الله يقول: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١﴾ ومَن خالفه فجعل عليهم الحرج، أو منعهم، أو حملهم الإثم فهو الآثم المُخالف لكتاب الله تعالى.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢]. فيأخذون أموالهم وحقوقهم، ويجلدون أبشارهم، ويسلبونهم إنسانيتهم، ويحاربونهم لدينهم، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٤٢﴾ [الشورى: ٤٢]، وهؤلاء عليهم سبيل الحرج والإثم والدفع.

ومن العدل الإلهي العظيم أنَّ الظُّلم ممنوع، وفاعِله محجوجٌ ومدفوعٌ حتى لو أوقعه على غير المؤمن قوله تعالى: ﴿يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ فكلُّ ظُلْمٍ في الأرض لا يُقر حتى لو كان من مسلمٍ على كافرٍ، أو من كافرٍ على كافرٍ، ومثله البغي فإنَّ الله أطلقه وقال: ﴿وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ فكل بغيٍّ في الأرض محجوجٌ ومدفوعٌ، وللواقع عليهم أن ينتصفوا من فاعله.

والظُّلم في النَّاس له صُوره الكثيرة، وكذلك البغي في الأرض، وأعظم البغيِّ اليوم هو إفساد الأرض وتدمير سُننها الكونية التي جعلها الله لحياة النَّاس، فما يفعله المجرمون من تدمير الأرض وإهلاك الحرث والنسل والزرع والبحار بما يفعلون من صناعات وتفجيرات نووية وتجارب هي من أعظم البغي في الأرض بغير الحق، وواقع هذه الآية اليوم هو الأوضح والأجلى في التاريخ البشري، فقد سمموا البحار والأنهار، وقضوا على ما خُلق فيهما من خيرات، ودمروا جدار الأرض ومحيطها حتى نفذت إليها الأشعة المُهلكة فانتشر التصحر والأمراض الجِلدية كسرطان الجلد، وتغيَّرت بفِعْلِ تفجيراتهم النووية جينات البشر والحيوانات والنباتات فغيَّروا خَلْقَ الله تعالى.

وهكذا من أجل سلطانهم وتحصيل غلبتهم بغوا في الأرض فأفسدوها وأفسدوا قدرها القائم على حكمة الله في التسخير والتيسير، وهم بهذا لا يقتلون واحداً ولا عشرات بل يقتلون البشرية والأرض، وهذا غَيْضٌ مِن فَيْضِ جرائمهم، فلقد عَتَوْا حتى دخلوا في محاولات تغييرات الخِلقة الإلهية، وهم يظنون أنَّ هذا من العلم، وليس هو إلاَّ الإفساد وتغيِّير الفِطرة التي هي كما قال تعالى عنها: ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤﴾ [التين: ٤].

هذا مع ما في صناعاتهم التي أدخلوها على الأطعمة وغيرها من مفاسد جعلتهم أثرياء من جهة، ولكنها جعلت حياة البشرية فساداً عميماً.

وأنت ترى مفاسد التشريع التي نشرت الأمراض الخبيثة التي لم تكن في الأُمم السابقة، ومثلها مفاسد إفساد الخَلق وقدره الحكيم بالصناعات والتفجيرات وغيرها، فالتقت حلقتا البطان كما يقولون، وهذا كله من الظُّلم والبغي الذي يجب أن يُرد ويُنتصف من فاعليه ويُضرب على أيديهم، ومن غير ذلك فإنَّ البشرية إلى زوالٍ وهلاكٍ، والأمر أنه كلما ازداد النَّاس غرورا بما عندهم من العلم، كما قال تعالى عن أسلافهم: ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [غافر: ٨٣].

كلما ازداد الفساد والضلال، فغرورهم منعهم من الاستماع إلى كلام الوحي، فشرعوا لأنفسهم شرائع الضلال، فأحلوا الربا وجعلوه قوام الحياة، وأحلوا الزنا وجعلوه خيراً من الزواج، وشرعوا اللواط وجرَّموا من يمنعه ويستقذره، وصارت الخمر أحب إليهم من العسل واللبن، ثمَّ لِغُرورهم بما عندهم من العلم في السنن ذهبوا إلى اتخاذها سُلَّماً للغنى والفحش فيه، وسبيلاً للقوى وقهر الأُمم، ونسوا أنَّ حالهم هو حال الجالس على رأس غصن شجرة وينشر عند أصله، ولن يقضي إلاَّ على نفسه حين يبلغ آخره، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

والقصد أنَّ البغيَّ في الأرض أعم مِن ظُلم النَّاس وهو بابٌ واسعٌ في الوجود، ولفظٌ من ألفاظ العموم يدخل فيه أمورٌ كثيرةٌ.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٣].

هذه قاعدةٌ قرآنيةٌ تأكدتْ في مواطنَ أُخرى من كتاب الله تعالى كما في سورة «آل عمران» من قوله تعالى: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقول لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: ١٧]، وهي مرتبةُ الإحسان والفضل، فإنَّ الآخذ لحقه منتصفٌ قد ذهب عنه الفضل ونال ما يُريد، وأما الصابر الذي يعفو عن ظُلمه أو على من أساء إليه فهو الراجي أداء حقه يوم القيامة عفواً من الله تعالى، فإنَّ الله عفو يحب العفو، وهذا حكمٌ مستقرٌ لا ناسخ له، وقد كان رسول الله ﷺ إمام هذه المرتبة في كلِّ أحواله، ففي مكة قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى

رَسُول اللهِ. يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**»[١]، وفي المدينة حيث المَنعة والتمكين يقول أنس بن مالك الأنصاري رضي الله عنه: «كنتُ أمشي معَ النبيِّ ﷺ وعليهِ بُردٌ نَجْرانيٌّ غَليظُ الحاشيةِ، فأدركَهُ أعرابيٌّ فجذَبَهُ جَذبةً شديدةً حتى نَظرتُ إلى صَفحةِ عاتق النَّبيِّ ﷺ قد أثَّرَتْ بِهِ حاشية الرِّداءِ مِن شدَّةِ جذبتهِ ثمَّ قال: مُرْ لي مِن مال اللهِ الذي عندَك. فالتفَتَ إليه فضحِكَ ثمَّ أمرَ لهُ بعَطاء»[٢].

والصبر مجرداً مقامٌ محمودٌ ومرتبةٌ عظيمةٌ، ويزداد حسنها ومقام صاحبها بالعفو، وهذا يدل على القُدرة كما تقدم، ولذلك تأكد تسمية هذا المقام بقوله: ﴿**لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾**﴾ [الشورى: ٤٣]. زيادة عما في سورة «آل عمران»، فإنَّ فيها الصبر والتقوى، والتقوى هو اجتناب الظُّلم، ولا تمنع من العفو، فالصابر المُنتصف من ظالمه قد اتقى ربَّه، ولذلك قال: ﴿**مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾**﴾، ولكن العفو أعظم وأحسن فقال: ﴿**لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ**﴾ لأنه كما قال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ. إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**»[٣]، وأما في آية لقمان فلم يذكر العفو لأنَّ الباب باب أمرٍ بمعروفٍ ونهيٍ عن مُنكرٍ، وهذا قد يقع من المُقابلين أمورٌ متعددةٌ منها الإعراض وعدم السماع فهذه ليس فيها الصبر، إذ لا مقام للعفو هنا، ولذلك كان الصبر فقد بالثبات على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لو أعرض المُقابلون.

---

[1] «صحيح مسلم»: ١٢/١١٨/ح٤٦٠١ .

[2] «صحيح البخاري»: ٣/١١٤٨/ح٣٠٨٠ .

[3] «صحيح البخاري»: ٥/٢٢٦٧/ح٦١١٤ . «صحيح مسلم»: ١٦/١٣٩/ح٦٥٩٥ .

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الشورى: ٤٤ ـ ٤٦].

كانت الآيات السابقة تتحدث عن صفاتِ مَن أجَّل الله لهمُ الأجر والمثوبة بقوله: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الشورى: ٣٦]، وهذه الآيات تتحدث عمن أخَّر لهمُ العذاب ممن جرَتْ عليهم أقدارُ الله بالضلال، فكما أنَّ إرادة الله نافذة في الوجود وحركته فكذلك هي نافذة في الهداية والضلال، وكلٌّ له حِكمته، فهؤلاء الضالّون الجاحدون قد وقع عليهم حِرمان إلهي من الهداية بسبب ما فيهم من الشرِّ، وهذا الأمر الإلهي يُبيِّنُ أنَّ الُمعرضين محرومون، مع أنَّهم لجهلهم يظنُّون أنَّهم في بحبوحةٍ مِن التحللِ مِن الأمر الإلهي والخروج منه، والحقّ أنَّهم مطرودون لقساوة قلوبهم، ولذلك فإنَّ العالمين بربِّهم يستغيثون به أن لا يطردهم وأن يقبلهم في الصالحين، لخوفهم من حِرمان الهداية والتوفيق والدخول في نعمة العبوديَّة لله تعالى، وهؤلاء الضالُّون إنْ حقَّت عليهم كلمة الله بالإبعاد والطرد فإنَّه لا ولاية لهم تردّهم من هذا، بل أولياؤهم من دون الله لا يزيدونهم إلاَّ ضلالاً ورَهقاً، ولذلك فالضلال نقمةٌ وإبعادٌ، وفرح الضالين بما هم عليه إنما هو من شَقاوتهم وظُلمهم لأنفسهم.

وهؤلاء مُؤجلون بما معهم اليوم، كما قال تعالى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الشورى: ٣٦]. حتى تأتيهم لحظة الحقيقة: ﴿ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الشورى: ٤٤]، والأمر في آية «الفرقان» يبدأ قبل أن يروها، كما قال تعالى: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الفرقان: ١٢]، فهي إذ تراهم هي يبدأ عذابهم بسماع تحطمها وصُراخ لهيبها، وهذا

الطلب بالعودة يبدأ ويزيد ويتكرر، ففي سورة «الأنعام» قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧]، وفي سورة «فاطر» يصرخون بهذا وهم في النَّار يُعذبون: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧]، وفي سورة «السجدة» يبدأ هذا الطلب قبل رُؤية العذاب بل بمجرَّد الوقوع عند الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢]، وفي «إبراهيم» يقولون هذا لمَّا يأتيهم العذاب فيرونه: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

والله العليم بعباده يُبيِّنُ للمؤمنين أنَّ هذا كلُّه كذبٌ فقد قال في «الأنعام» عَقِبَ الآية المتقدمة: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨]، وهذا قد وقع من أمثالهم في الدنيا، كما قال الله عن آل فرعون: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: ١٣٤ ـ ١٣٥].

لكنَّ السبل مقطوعة، ولا عودة، فلا حياة أُخرى يعودون إليها، فقد تمت عليهم حجَّة الله، وبلغت مداها، ولا عذر لهم في أمر حتى يعذرهم الله فيُعيدهم. وبعد اليأس يقتصر طلبهم أن يخفف عنهم يوماً منها، كما في «غافر»: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر: ٤٩ ـ ٥٠]، كما يكون منهم فيها طلب الموت ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيكون جوابه: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٧]. بل كما قال تعالى في

«فاطر»: ﴿ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر: ٣٦]. فيا الله كم قست قلوب الكافرين والغافلين عن هذه الآيات التي تتصدع منها القلوب، ووالله لولا حجب الغيب لما رأيتَ النَّاس بهذه الغفلة والنِسيان، ولكان أمرهم، كما قال رسول الله ﷺ: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ**»[1].

وحين الوقوف عليها وقبل دخولها يصف الله تعالى حالهم بهذا الوصف الدقيق ﴿ خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ [الشورى: ٤٥]، فقد طأطأوا رؤوسهم ذلّة، ومالت أعناقهم على صدورهم خزياً وندامةً، هذه الرؤوس الباغية العاتية، والتي كانت تأبى قبول الحقِّ، ولا السجود لله، ولا الاستجابة لنداء الأنبياء ووعظهم، لكنّهم هناك﴿ خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ فلا وليَّ لهم ينصرهم، ولا سلطان عندهم يحميهم، وليس أمام أحدهم إلاّ النَّار تِلقاء وجهه.

هذا الخشوع ليس للهيبة، ولا للتعظيم بل هو مِن الذلِّ الذي كتبه الله عليهم يوم القيامة حين يُعاينون ما كَذَّبوا به، وهو الذلُّ الذي يعتري قلوبهم لَمَّا يعلمون أنَّ ما هو أمامهم من النَّار هو مستقرهم، وأنتَ رأيتَ مِن قبلُ قوله تعالى: ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ ﴾ [الشورى: ٢٢]، فقد بدتْ لهم أعمالهم السيئة، فوقع في قلوبهم خوف الجزاء، والآن بدتْ لهمُ النَّار والجزاء فوقع الذلّ في قلوبهم وبدتْ آثاره على أجسامهم، وثم الوصف الإلهي لهم بحركة عيونهم التي تسترقُ النظر تحت، ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾، في خفاءٍ واستراق، فالذلّ يضغط عليهم لحني رؤوسهم خشوعاً، والخوف من الآتي يدفعهم لمعرفة المُستقر الجديد، فهما عذابان.

[1] «مُسند أحمد»: ٢١٩/٦/ح٢١١٣٣. «سنن الترمذي»: ١٣/٧/ح٢٣٤٩. «السنن الكبرى»: ١٨٠/١٠/ح١٣٥٠٠. «سنن ابن ماجه»: ١٤٠٢/٢/ح٤٢٨١. «المستدرك على الصحيحين»: ٥٥٤/٢/ح٣٩٣٢. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه

في هذا المشهد المُخزي والمُذل للكافرين الظالمين يكون إعلان المؤمنين: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الشورى: ٤٥]، وهذا إعلانُ الردِّ على أنَّ ما كان يقع عليهم مِن ظُلْمٍ قد ذهب وانتهى أمره، فلم يَدُمْ، وكان يسيراً في ألمه، مقطوعَ الزمن في وقته، لكنَّ الخسارة التامَّة التي لا خسارة مثلها هي خسارة يوم القيامة.

لقد مضتْ بعض الخسارة للمؤمنين، فقد ظُلموا وصبروا، وقد جاءهم ما يسوؤهم من المصائب والبلاء، لكنّهم آلوا إلى نعيمٍ وربحٍ دائمٍ مقيمٍ، لكن هؤلاء الذين ظنّوا أنّهم في مُتع الدنيا في بقاءٍ ودوامٍ قد رأوا أنّها مُتعٌ زائلةٌ: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الشورى: ٣٦].

وهي خسارة يَوْمَذَاكَ بما فاتهم من النَّعيم العظيم، وهي خسارة بما أَوْبَقُوا أنفسهم في العذاب، ولذلك فإنَّ قول المؤمنين هذا إنّما يكون منهم لِما يرون من النَّعيم الذي هُمْ فيه، وحين يُدركُ المرءُ هذا الحال والنِّعمة والعطاء فإنّه ينظر إلى مَن فاته ويقول: قد خَسِرَ حيث لم يحضر، ثم لمّا يطلّع عليه في النَّار يعلم أنّها ليست خسارة بالفوات فقط لكنّها خسارة بالعذاب كذلك، ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الشورى: ٤٥]، وهي مُفسَّرة في سورة «المائدة» بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة: ٣٧]، وبقوله في سورة «السجدة»: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [السجدة: ٢٠].

لقد صدق ربُّنا وهو أعلم بما خَلق من العذاب ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾ [البقرة: ١٧٥].

ويومها لا ينجدهم وليٌّ، ولا ينصرهم، ولا يدفع عنهم، فكلُّ الأولياء سوى ربنا قد فزعوا إلى أنفسهم، ونسوا أولياءهم بل تبرأوا منهم، ولعن بعضهم بعضاً، كما في آياتٍ قرآنيّةٍ معلومةٍ.

وكما ترى فإنَّ هذه الآية تُعادل حال الدنيا، فإنَّ حال الدنيا قال الله فيه كما تقدّم: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [الشورى: ٤٤]، فمَن عري عن هداية الله لم يهتدِ أبداً، ومَن عري عن ولاية الله فلا ناصر له يوم القيامة، فقابلت ولاية لله بالهداية ولايته بالنُّصرة، وقابل ضلال الله للعبد في الدنيا ضلاله في الآخرة: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الشورى: ٤٦]، فكان الحالُّ هو الحال، وقد أفرد الولي في الهداية، فقال: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ ﴾ [الشورى: ٤٤]، لأنَّ هادياً واحداً يكفي، بل لا يكون المرء مهديّاً إلاَّ إنْ كان له هادٍ واحدٌ، فإنْ تعددوا ضلَّ واضطربَ، وجمع الله الأولياء في الآخرة، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الشورى: ٤٦]، لأنَّ دفع العذاب والأذى لا يكون بواحدٍ إلاَّ إن كان فيه الكِفاية، فكيف إنْ تعددوا؟ أفيه الخير لهم؟!، كلا إذ لا يُوجد أحدٌ، والأمر كما قال تعالى في «الشعراء»: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٩٧-١٠٤].

قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشورى: ٤٧-٤٨].

هذا هو حبلُ النَّجاة من العذاب، وهذا هو الذي يحقق السبيل لحصول الملجأ والأمان؛ إنّه الاستجابة لله سبحانه وتعالى، وذلك بأنّ يدخل النَّاس فيما دخل به المؤمنون كما تقدّم من قوله: ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [الشورى: ٢٦]، وهو يدعوهم إلى التوبة، وهو هنا يدعوهم لهذا حتى يحصل لهمُ النَّجاة يوم خُلُوِّ النَّاس من أوليائهم، ولا يبقى يومها إلاَّ ولاية الله، فلا عاصمَ من أمر الله يومئذٍ إلاَّ مَن رَحِمَ، ولا ملجأ من الله يومها إلاَّ إليه، فهذا يومٌ له شأنه، وهو إنْ جاء لا يستطيع أن يرد مجيئه أحدٌ، ولا مفر فيه لأحدٍ، بل ولا يستطيع أحدٌ أن يُنكر مما فيه من المشقّة. فهو يوم:-

- لا مرد له من الله.
- ما لكم من ملجأ.
- وما لكم من نكير.

وقد تقدّمت قُدرة الله التي يُعاينُها النَّاس على هذه الحقائق الغائبة، فقد رأوا أنَّ المصائب إنْ وقعت فلا يملكون الردّ لها، وقد يتيقنون حين تسكن الريح وهم في سفنهم أو تشتدّ الريح فلا أحد ينجدهم، ولا يملكون إلا الاستسلام لهذه الأقدار، ويومها لا يصرخون إلاَّ بالاستغاثة طلباً للسلامة.

لقد تبيَّنَ لكم حقيقة قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى: ٣١]. وأنتم هنا، فكيف والحال أشدّ وأعظم يوم القيامة؟! ولذلك فليس لكم إلاَّ أنْ تستجيبوا لأمره فِراراً من عذاب ذلك اليوم، وأمّا إنْ كانت الأُخرى فما عليك يا محمد إلاَّ البلاغ، وحُزنك عليهم لن ينفعهم ولن يُغيِّر قلوبهم المُنكرة الجاحدة.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [الشورى: ٤٨]، وهذا كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٥]، وقد تقدّم أنَّ هذه دعوة الله في قوله: ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُمْ ﴾ فهو صاحب

الدعوة والرسول مُبلِّغٌ لها، فليس هو بالمانع لهم من الضلال، وليس هو بمن يحصي عليهم أعمالهم.

والدُّعاة إلى الله على سنن الرسول ﷺ هم في مقامه في هذا، لا يملكون أمر النَّاس وهِدايتهم، ووقائع الأرض من حال النَّاس مع الدين ليس لهم فيها شيء، بل هم مُبلِّغون عاملون لدين الله تعالى على وجه الاتباع والامتثال، وكلُّ بِدع الدُّعاة وتنازلاتهم، وكلُّ أغلاطهم ومخالفاتهم مردّها إلى عدم فَهْمِ هذا الأمر، فلو أنَّهم اتبعوا أمرَ الله، وصبروا عليه، ولم يلتفتوا إلى ما تلتفتُ إليه الأحزاب الجاهليّة مِنْ هَمِّ التجميع والتكثير حتى على حساب القِيَمِ والمبادئ، وكذلك لم يلتفتوا إلى تقلُّبِ النَّاس في الدعوة لّما غيَّروا كلَّ يومٍ خِطابهم، ولَمَّا بدَّلُوا كلَّ يومٍ فتواهم، ولّما خلعوا كلَّ يومٍ ديناً بحجَّة تقريب النَّاس للإسلام، لّما تنازلوا لضغوط الجاهليَّة حتى يسهِّلوا السبيل ـ زعموا ـ لبلوغ الدعوة مقصدها، فإنَّ هذه دعوة الله، وهي دعوة غاليةٌ، يجريها الله في كتابه ترغيباً لهم وتخويفاً، ثم يُعلن لهم في مواطن عِدَّة أنَّ الله غنيٌّ عنكم، وأنَّكم إن شكرتم شكرتم لأنفسكم، وإن كفرتم فإنّما تجنون على أنفسكم، ويعلم الأنبياء مقامهم في هذا الأمر، وهو مقام التبليغ والأداء والصبر حتى يحكم الله، وأنتَ تسمع من الدُّعاة في كلِّ منعطفٍ عن سبب التغيير والانقلاب هو ما يزعمون مِن أنَّ الساحة سُرقت منهم، أو أنَّ الإقبال ضعيفٌ، حتى قال بعضهم: إنَّ الخطاب الديني المجرّد والقاصر على العبوديّة والدار الآخرة لا يحقق إقبال النَّاس، وهو خطاب لا يَسْتَهْوِي النَّاس ولا يجذبهم، فمِن أجل ذلك ذهبوا لِبُطُونِ النَّاس وشهواتِهِم، وذهبوا كما تذهب أحزاب الجاهليَّة يخاطبون النَّاس خِطاب البهائم حتى يُقبلوا على موائدهم، وهذا وإنْ حقق لهمُ التجميع الآني لكنَّه التجميع الذي لا يصمد في الغمرات والمحن، ولا يحقق الشخصيَّة القرآنيَّة المُهتدية.

إنَّ الدَّاعي إلى الله لا يعرف بضاعةً دنيويّةً تخضع لقوانين العَرض والطَلب، كما أنّه ليس صاحبها، إنّما هي بضاعةٌ غاليةٌ، وهي بضاعةٌ ربَّانيَّةٌ، وليس له إلاَّ أنْ يُبلِّغ ويُؤدِّي الرسالة، ولو تأملتَ ما يزعم هؤلاء المُبدِّلُون لمنهج الأنبياء ودعواهم الحرص على الدعوة لرأيتَ أنَّ الأمر ليس كذلك، بل هي في الحقيقة غلبة الشهوات، فإنَّهم لشدَّة نَهَمِهِمْ في البحث عنِ الأتباع يتنازلون، ولحبِّ المناصب يلتقون مع الجاهليَّة في بعض عُروضها، وأمّا زعمهم تحقيق الفاعليَّة في الدعوة، فهذا من جهلهم بحقيقتها، فإنَّ الوسيلة في الوجود تتلاءم مع الحقيقة، فحين يعلم الدُّعاة حقيقة هذا الدين وأن أركانه هي تحقيق التعبُّد والاتباع وذِكرى الدار الآخرة فإنَّهم يعلمون أنَّ منهج الأنبياء هو المُلائم قَدراً وشرعاً لهذه الحقيقة، لكن حين يُصبح الدين وسيلةً وسُلَّماً لتحقيق ما تحقق الوسائل الأُخرى فإنّه حينئذٍ تصبح وسيلته هي نفس وسائل الأحزاب والدعوات الجاهليَّة.

فهذه الحقيقة القرآنيَّة التي تتأكد في القرآن مِراراً ﴿**إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ**﴾ [الشورى: ٤٨] ﴿**فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ**﴾ [فاطر: ٨]، ﴿**۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ**﴾ [البقرة: ٢٧٢]، تُعلِّم الدُّعاة عظمة ما يدعون إليه وعِزَّته، وثبات قيمته وقيَمه، وحينها يقولون ما قال موسى عليه السلام لقومه: ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾**﴾ [إبراهيم: ٧ - ٨].

لقد كان مطلب الدُّعاة أن يكون الحُكم لله وحده، وأن يدخل النَّاس جميعاً تحت شرعه كما هم داخلون تحت قَدره، فلما طالَ الوقت عليهم بدأوا يتنازلون شيئاً فشيئاً حتى صار أعظم مطالبهم أن يكونوا جزءاً من نسيج الجاهليَّة، وتحت قوانينها وسُلطانها ومِظلتها، فنثرتْ لهمُ الجاهليَّة بعض الشهوات، وكلَّما ذكَّرهم أهل الحقِّ بفسادِ ما هم فيه رَمَوْهُمْ أنَّ مطالبهم هذه تفقدهم المكاسب، وأوهموا أنفسهم وأتباعهم أنَّ هذه المكاسب هي مكاسب الدعوة، وليس الأمر كذلك،

بل هي مكاسبهم، ولو عادوا لهَدي الأنبياء لَوَقَعَ عليهمُ البلاء ووجبَ لهم مقام الصبر وهم لا يريدون ذلك، وشكواهم مِن طُول الحال في الأولى لم يدفعهم إلى شكوى طول الحال في الثانية، بل كما قال تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ [الحديد: ١٦]، ولم يحققوا إلاَّ عطايا ما سمحت به الجاهليّة.

نعم إنْ قُدِّمت للنَّاس الشهوات أقبلوا، وإن فاتتهم ذهبوا عنكم، لكنّهم حينئذ لا يكونون عبيداً لله، ولا هم أولئك الذين يريدهم الله، ولا هم أتباع الرسل حقّاً، فهذا الإنسان يعلمه الله تعالى، وهو يتعامل مع أقدار الله على هذا الأمر، كما قال ربُّنا: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ [الشورى: ٤٨]، فهو مجرّد الفرح، لا الشكر، ولا الإنابة، ولا العبوديّة، يجري بهذه النِّعمة على ما تحبّه نفسه، فيفرح بها فرح العاصي كما جاء في موطنٍ آخرٍ حقيقة هذا الفرح الذي يُبغضه الله تعالى، كما قال عنِ المُعذبين يوم القيامة: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [غافر: ٧٥]، وهم سيعرضون إن أصابتهم المصائب بأعمالهم ويكفرون ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ [الشورى: ٤٨].

هذه هي حقيقة الإنسان في النَّعماء والضراء، وحقيقته في العطاء والمنع إلا ما قال الله عنهم في سورة «هود»: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: ١١]، ومن قال عنهم في سورة «المعارج»: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج: ٢٢ ـ ٢٣].

فهذه هي حقائقُ الخَلق، ولذلك فمُتابعتهم مؤذِّنة بالخسارة، كما قال الله في «هود» عقب الآية المُتقدّمة: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢]، أي لمثل هذه النفوس تترك بعض ما أُمر إليك استجابةً لهم؟! والمُساومة دائماً كما تَقدَّم كثيراً على «بعض» لا على «كل».

وهنا يقول له: فإنْ أعرضوا فإنَّ إعراضهم يتلاءم مع ما رُكِّبُوا عليه إلاَّ مَن جاهدَ نفسه في الله واتبعَ أمره، وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ أي مُنْكِرٌ أنّه هو سبب السيئة، بل من جهالات الضلال أنّهم يتساءلون مُستنكرين لِمَ هذا؟ ويتهمون الله بالظُّلم، ويكفرون مُتناسين أنّهم بأيديهم وقع بهم ما وقع.

وفي سورة «الروم» قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الروم: ٣٦] أي ييأسون من رحمة الله، وذلك بسبب جهلهم أنّه بسبب معاصيهم وقع بهمُ البلاء، ويجهلون أنّهم لو تابوا لَرُفِعَ عنهمُ العذاب، بل بوقوع البلاء لا يتوبون بل يتمادون فيما هم فيه مع قُنُوط أنَّ ما أصابهم لا يُرفع، وهذا سببه في الآيتين من سورة «الروم» و«الشورى» أنّهم لا يربطون ما يقع بهم من السيئات وبين أعمالهم.

وقال بعض أهل العلم أنَّ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ أي جاحدٌ للنِّعم التي أتته مِن قبلُ، وهو قول، والذي تقدّم أولى منه في المعنى لما تحقق من معنى زائدٍ عن معنى سورة «العنكبوت».

قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: ٤٩ ـ ٥٠].

جريان إرادة الله في خَلقه لأنَّ السموات والأرض مُلكه، هو الذي خلقها مِن عَدَمٍ، فتصرّفه فيها تصرّف المَلك في مُلكه، فلا يُسْأَلُ عمّا فَعَلَ، ولا لِمَ يجري إرادته فيها، ومطلع السورة كان فيها: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وها هنا يُبَيِّنُ الله تعالى أنّه ملكهما، فما تقدّم مِن ذكر إرادته فيهما، هو واقعٌ بين هذين الأمرين، أنَّهما له، وأنّه ملكهما سبحانه وتعالى، وهما سماوات وأرضين، في كلِّ واحدٍ منهما خَلْقٌ وإرادةٌ، وهو في الأرض يجري خلقَ الإنسان على هذا

التنوّع الثنائي المُتكامل، فهو يخلق ما يشاء، وقُدرته نافذة في ما يريد، فخَلَقَ الذكر والأنثى، وهو يهبُ لهذا الإنسان بتزاوجه إناثاً ويهبُ ذكوراً حسب مشيئته.

ومن آياته في الخَلق أن يهبَ للبعض إناثاً دون الذكور، كما يهبُ للبعض ذكوراً دون الإناث، كذلك يهبُ للبعض إناثاً وذكوراً، كما قال: ﴿ **أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا** ﴾ [الشورى: ٥٠]، ومن مشيئته أنْ لا يهبَ بعضهم ولداً أبداً بل يجعله عقيماً.

فهذا خَلقُهُ مُركبٌ على الثُنائية، كما قال تعالى: ﴿ **وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾** ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وعنِ الثمرات قال: ﴿ **وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ** ﴾ [الرعد: ٣]، وقال عن العموم: ﴿ **وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا** ﴾ [الزخرف: ١٢]، وذلك لدوام الخَلق، وبيان القُدرة الإلهيّة، وهي ثُنائية في وحدة، فمادة كلِّ شيءٍ واحدة، وفي وحدتها يكون تنوّعها، وهذا دليلٌ على وحدة الخَالق وعلى قُدرته، فالخَلق وحدة في تنوُّع، وتنوُّع في وحدةٍ، ولذلك قال سبحانه في الفاصلة: ﴿ **إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾** ﴾، فهو يعطي بحسب عِلمه، وهو العلم الذي يحقق دوام الخَلق ووُجوده حتى مُنتهاه، وما يقع إنّما هو بقُدرته سبحانه وتعالى.

وهذا الاختلاف أمرٌ قدريٌّ، وهو فِعْلُ الربِّ يجريه ليذكَّر النَّاس بأنَّ ما يقع في وجودهم له مُدَبِّرٌ حكيمٌ، فالنَّاس لا يخلقون أولادهم، ولا يختارون أجناسهم، وأصل أولادهم منهم، لكنّهم لا يستطيعون إيجاد ما يحبّون، بل هم مُستسلمون لإرادة الله فيما يخلقُ منهم، حتى هذا الذي يقولونه اليوم مِن أن ما يحدد نوع المولود هو نوع الحيوان المنوي المُلقِّح للبويضة وهو حقٌّ، فيُقال لهم مَن الذي قدَّر هذا الحيوان على هذه الخِلقة؟ ومَن الذي قدّر أن يكون هذا الحيوان دون غيره المُلقِّح؟ كلُّ هذا يؤذّن المُتأمل أنَّ إرادة الله هي الجارية في الخَلق لا إرادتهم، بل إنَّ إرادتهم فيما يستطيعون لا تكون إلاَّ بإرادة الله تعالى.

وتنوُّع الخَلْقِ يدلُّ على القُدرة، وهذا بخلاف تنوُّع الشرائع فإنَّه يدلُّ على الاضطراب، فإنَّ مَن يُغَيِّرُ اختياره للأصلح مِن الآراء هو الذي كان جاهلاً أمراً ثم بانَ له فيما يزعم فغيَّر حُكمه وشَرعه، وهذا يكون في الإنسان وضُعفه وجهله، وأمَّا الله سبحانه وتعالى فهو العليم الذي لا يتجدد له العِلم، بل هو عالم الغيب والشهادة.

ومقدَّمة ذِكر مُلك الله للسموات والأرض تكون لما تقدَّم من ذِكر تصرفه فيهما وقُدرته، وكذلك يكون لذكر ما يتعلَّق بشرعه وحال النَّاس معه، ففي سورة «التوبة» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾ [التوبة: ١١٦]، وفي سورة «الفتح»: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾ [الفتح: ١٤].

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٥١].

كما ترى يَتَبَيَّنُ لكَ في هذا الأمر حقيقة بِناء السورة القرآنيَّة، حيث يجري ذِكر القَدر والخَلق، ثم يجري ذِكر الشرع والرسل والأحكام، ذلك لأنَّ موجب الإلهيَّة إنَّما هو ربوبيَّة الله سبحانه وتعالى، وكذلك إدراك النَّاس لقُدرة الله وحِكمته في خَلقه يهديهم لإدراك عِلْمِ الله وحِكمته في شرعه، وعامَّة البشر يُقرُّون بربوبيَّة الله، ولا يُنازع فيها إلا شُذّاذٌ مِن الخَلق، فيجعل الله إقرارهم بهذا سبيلاً لإقرارهم بألوهيته، كما يجعل خُضوعهم القَدري لخَلقه وإرادته الكونيَّة هادياً لهم لخُضوعهم لشرعه وإرادته الشرعيَّة، وكذلك فإنَّ العقل المُهتدي لرؤية الحِكمة في الخَلق قادرٌ أن يبصر ويهتدي إلى حِكمة الله في الشرع، بل إنَّ إدراك حكمة الشرع إنَّما تكون بالتفكر في الخَلق، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى

﴿ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصلت: ٥٣]، فكان الخَلق وحِكمته سبباً للاهتداء إلى شرع الله وحُكمه.

ولقد تقدَّم وحيُ الله وذِكره في مطلع السورة بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣﴾ [الشورى: ٣]، وبيَّن فيه سببه، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، وفي هذه الآية يُبيِّنُ الله وسيلة الوحي فهي: -

⊙ أنْ يُكلِّمه الله وَحْياً بأنْ يُلقي في قلبه عِلْماً وأَمْراً، كما قال رسول الله ﷺ: «**نَفَثَ رُوحُ الْقُدُسِ فِي رَوْعِي أَنَّ نَفْساً لَنْ تَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا، وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا..**»[1].

⊙ أنْ يُكلِّمه مِن وراء حجاب، كما كلَّم الله موسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقد طلب موسى أن يرى ربَّه فلم يُعْطَ، كما قال تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

⊙ أنْ يُرسل إليه أمينَ الوحي جبريل عليه السلام فيُبلغه عن ربِّه.

وهو إذ يُوحي للرسل فإنَّه سبحانه عليٌّ حكيمٌ، كما تقدّم أنَّه عليٌّ عظيم، وهذه السورة قد حفلت بأسماء الله تعالى كما ترى ففيها من أسمائه سبحانه: -

العزيز، الحكيم، العلي، العظيم، الغفور، الرحيم، الحفيظ، الولي، النصير، القدير، المحيي، السميع، البصير، الفاطر، الباسط، القابض، الهادي، اللطيف، الرازق، القوي، الغفور، الشكور، العليم، الخبير، البصير، الحميد، الملك، الخالق، هذا وغير ذلك من الإخبار عنه سبحانه وتعالى.

---

[1] «معجم الطبراني الكبير»: ٨/١٦٦/ح٧٦٩٤.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

أي بما تقدَّم إليكَ من مقامات الوحي أوحينا إليك هذا الكتاب، وهو الحياة للخَلْقِ، فكما أنَّ الروح تُحيي البدن، فكذلك هذا القرآن يُحيي القلوب، فهو روحٌ وحياةٌ لها ولأصحابها، فالبشريَّة لا حياة فيها من دونه كما قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»[1]، والذي تقدَّم في وصفه هو النذارة لهم من العذاب، وهذه صفة القرآن وحاله مع المُستجيبين له، فهو في أول الأمر يُنذر الجميع، والذين يستجيبون له فلهمُ الحياة به وبشرعه وبنوره، وهو رحمة لهم.

وهذا الكتاب ما كنتَ تدري به ولا عن الإيمان الذي فيه، بل جاء في «القصص» أنَّه لم يكن يأمل ولا يرجو أن يُلقى إليه، فقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، وفي «يوسف» بيان حال رسول الله ﷺ قبل الوحي، فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف: ٣].

وهذه الآيات دالَّة على صِدق الرسول ﷺ، فلو كَتَمَ شيئاً لَكتمها، وهي دالَّةٌ أنّه عبدٌ لله تعالى لا يعلم إلاَّ ما علّمه، ومَن كان على الضدِّ مِن هذا فإنّه يكتم ما يُقال عنه حتى لو كان قد مضى وذهبَ، ولذلك فأنْ يُقال فيه هذا القول ويُؤْمَرَ بتبليغه فيَفْعَل يدلُّ على مدى صِدقه ﷺ وصِدْق عُبوديته، والأمر كما قال تعالى في ما تقدَّم من السورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤].

[1] «صحيح البخاري»: ٥/٢٣٥٣/ح٦٤٠٧.

وهذا الروح الذي يُحيي القلوب والخَلق يذهبُ بهم في سُبل الهُدى والنُّور، فإنّه لا يُحييهم فقط بل يُرشدهم إلى أَقْوَمِ السبل، فقال: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وكما أنَّ القرآن هادٍ ونور، فكذلك محمد ﷺ هادٍ إلى صراطٍ مستقيمٍ، يُرشد النَّاس ويُعلِّمهم الحقَّ، ولذلك فقد أُوتِي الرسول ﷺ القرآن ومثله معه، كما قال ﷺ. فهما هدايتان؛ هداية القرآن ونوره، وهداية الرسول ﷺ، وهما أمرٌ واحدٌ، إذ كِلاهما من عند الله تعالى، ويُؤدِّيان إلى الصراط المستقيم الذي لا عِوج فيه، وهو صراطٌ واحدٌ؛ صراط الله الذي له ما في السموات والأرض، يملك ما فيهما، ويُدير شؤونهما، ولا يمضي فيهما إلاَّ ما يشاء، وفي الخاتمة فإنَّ كلَّ أمرٍ يعود إليه، فأفعال العباد مرفوعة إليه، والخَلق صائرون إليه، والكلُّ يوم القيامة معروضٌ عليه، فإنْ تعددت الأمور واختلفتْ، وإنْ اهتدى بعضها وضلَّ آخرٌ، وإنْ اختلفَ الخلقُ وتنوّعَ إلاَّ أنَّ لك شيئاً صائراً إليه، سواء كان مِن خَلقه الذي صنعه، أو أفعال العباد لِيُجازى كلُّ أحدٍ بما عَمِلَ.

والخَلْقُ وإنْ بدأ منه، فإنّه كذلك يصيرُ إليه، فهو بكلِّ شيءٍ محيط، وقد تكرر ذِكْرُ مشيئة الله في هذه السورة وذِكْرُ نفاذها فقال:-

◎ ولو شاءَ لجعلهم أُمَّةً واحدةً.
◎ ولكن يُدخِلُ مَن يشاءُ في رحمته.
◎ يرزقُ مَن يشاء.
◎ فإنْ يشأ الله يختم على قلبك.
◎ ولكن يُنزل بقدر ما يشاء.
◎ إنْ يشأ يُسكنِ الريح.
◎ يخلقُ ما يشاء.
◎ ويهبُ لمن يشاءُ الذكور.

◎ ويجعلُ مَن يشاءُ عقيماً.

◎ فيُوحي بإذنه ما يشاء.

◎ نهدي به من نشاء من عبادنا

فسبحانه وتعالى في حِكمته البالغة، وفي قُدرته التامَّة، وفي عِلمه المحيط، وفي مشيئته النافذة، تجري حِكمته في الخَلق على معنى لا يُهدى النَّاس إليه إلاَّ منه ومن كتابه، ويُشرِّعُ للنَّاس ديناً لا يعلمون ما هو حتى يأتيهم كتابه، شأنهم شأن رسولهم لا يعلمون الكتاب ولا الإيمان إلاَّ بعد أن يُبَلِّغَهُمْ رسولهم إيَّاه.

والحمد لله ربِّ العالمين

تم بحمد الله

☆☆☆☆☆
☆☆☆☆
☆☆☆
☆☆
☆

قائمة المراجع

❐ «**الإحكام في أصول الأحكام**» لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري. طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. ١٩٩٨م.

❐ «**الترغيب والترهيب من الحديث الشريف**» لأبي محمد عبد العظيم بن عبد القويّ بن عبد الله زكي الدين المُنذري. طبعةدار الكتب العلمية/بيروت. ١٩٩٦م.

❐ «**الرسالة**» للإمام المطلبي محمد إدريس الشافعي. تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر. طبعة مكتبة التراث/القاهرة. الطبعة الثالثة ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥م.

❐ «**السنن الكُبرى**» لأبي عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار النسائي. طبعة دار الكتب العلمية/بيروت ١٩٩١م.

❐ «**السيرة النَّبويَّة**» لأبي محمد جمال الدين عبد الملك بن هشام بن أيوب الحِميَري المعافري. طبعة دار الجيل/بيروت.

❐ «**العين**» لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي. طبعة دار الأعلمي/بيروت.

❐ «**القاموس المحيط**» لمحمد بن يعقوب بن فضل الله الفيروز آبادي الشيرازي الشافعي. طبعة مؤسسة الرسالة/بيروت. ١٩٩٣م.

❐ «**الكتاب المُقدس!**» كتاب الحياة. الطبعة الثالثة. ١٩٩١م.

❐ «**المُستدرك على الصحيحين**» لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن حمدويه الضبي الطهماني النيسابوري الشهير بـ "الحاكم" ويُعرف بـ "ابن الربيع". طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

❑ «**المُسند الكبير**» لأبي سعيد الهيثم بن كليب بن شريح بن معقل الشاشي. طبعة دار إحياء التراث العربي/بيروت.

❑ «**المُعجم الكبير**» لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني. طبعة مطبعة الزهرة الحديثة. الطبعة الثانية.

❑ «**تفسير القرآن العظيم**» لأبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوّ بن درع القرشي البصروي ثم الدمشقي. دار إحياء التراث العربي/بيروت. ١٩٨٥م.

❑ «**تفسير عبد الرزاق**» لأبي إبراهيم محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني الكَحلاني ثم الصنعاني. دار الكتب العلمية/بيروت. ١٩٩٩م.

❑ «**جامع البيان في تفسير القرآن**» لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري. طبعة دار المعرفة/بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

❑ «**جامع المسانيد والمراسيل**»، «**جامع الأحاديث الجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير**» لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ابن همام الخضيري السيوطي. طبعة دار الفكر/بيروت. ١٩٩٤م.

❑ «**دلائل النُّبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**» لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي. طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

❑ «**سُنَن ابن ماجه**» لأبي عبد الله محمد بن يزيد الربعي القزويني ابن ماجه. طبعة دار إحياء التراث العربي/بيروت.

❑ «**سُنَن أبي داود**» لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني. طبعة دار إحياء التراث العربي/بيروت.

❐ «**سُنن الترمذي**» لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي البوغي الترمذي. طبعة دار الفكر/بيروت. ١٩٩٤م.

❐ «**سُنن الدارمي**» لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام التميمي الدارمي. طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. ١٩٩٦م.

❐ «**سير أعلام النبلاء**» لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي. طبعة دار الفكر/بيروت. ١٩٩٧م.

❐ «**شعب الإيمان**» لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي. طبعة دار الكتب العلمية/ بيروت. ٢٠٠٠م.

❐ «**صحيح البخاري**» لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المُغيرة البخاري. طبعة دار ابن كثير. الطبعة الخامسة ١٩٩٣م.

❐ «**صحيح مسلم**» لأبي الحسين مسلم بن الحَجَّاج بن مسلم القشَيري النيسابوري ، طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. ١٩٩٢م.

❐ «**طريق الهجرتين وباب السعادتين**» لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزّرْعي الدمشقي. طبعة دار الكتب العلمية/ بيروت. ١٩٩٥م.

❐ «**عُمدة القاري شرح صحيح البخاري**» لأبي محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بدر الدين العيني. طبعة دار إحياء التراث العربي/بيروت. ٢٠٠٣م.

❐ «**فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير**» لزين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين ابن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري. طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. ١٩٩٤م.

❐ «**كنز العُمال في سنن الأقوال والأفعال**» لعلي بن حسام الدين بن عبد الملك بن قاضي خان الحونبوري علاء الدين الهندي الشهير بالمتقى نزيلي الحرمين. طبعة الكتب العلمية/بيروت.

❐ «**مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**» جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي الحنبلي، وساعده ابنه محمد. طبعة دار عالم الكتب/الرياض. ١٤١٢هـ-١٩٩١م.

❐ «**مختار الصحاح**» لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، زين العابدين.

❐ «**مُسند أحمد**» لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الوائلي. طبعة دار إحياء التراث العربي/بيروت. الطبعة الثانية ١٩٩٣م.

